



# المرتضى مختار السودانية

# تاريخ النخاطوم

الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم

دار البحیث  
ببيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م



## مقدمة

صدر الطرف الاكبر من هذا الكتاب في مجلة الخرطوم التي تصدرها وزارة الارشاد القومي بالسودان ، وأذكر أن زارني عند أول صدور المجلة محررها الصديق قيلي أحمد عمر وأبدى رغبته الشديدة في أن يكون بالمجلة شيء عن الخرطوم . وكنت أعلم أن باحثا أمريكيا قد نشر كتابا عن امتداد من امتدادات الخرطوم وهو بري اللاماب ، وكان العزم أول الامر ان نبحت عن مقال أعده أحد اساتذة الجامعة عن هذا الكتاب . غير أن المقال كان باللغة الانجليزية مع ان المجلة تصدر باللغة العربية ، فضلا عن ان أصل البحث لم يكن متوفرا . وفي اثناء ذلك طلب الى الاستاذ قيلي أن أعد بنفسه مقالا وزين الى الامر وهونه ، وكان ان كتبت المقال الاول والذي ظهر في العدد الثاني من المجلة . وكان من المقدر عندي أن أقف عنده . غير أن الاستاذ قيلي استزادني وألح في الامر . وكنت في داخل نفسي أريد أن أرى لنفسى شيئا منشورا . وهكذا مضت المقالات تباعا شهرا بعد شهر حتى بلغت ما بلغت .

وفي نفس الوقت نشر استاذنا حسن نجيلة كلمة في العدد الاسبوعي من جريدة الرأي العام مرحبا بمقالي وحث على أن اتابع الكتابة وأن أجمع ما أنشر في كتاب . وظهر ان لموضوع المقالات اصدقاء ، اذكر منهم صديقنا المرحوم سليمان كشة الذي أمدني بعدد من المصادر وصديقنا المبارك ابراهيم الذي كان يناقشني في بعض النقاط وينبهنى الى نقاط جديدة ، وقد وضح بعد سنوات أن للمبارك كتابا في تاريخ السودان وهو أمر لم يذكره لي مع أنه أمدني ببعض مصادره . ولعله خشى ان اتوقف عن الكتابة ان أدركت وجود كتاب له .



وليس عندي ما اكافيء به هؤلاء الاصدقاء الا أن أسجل لهم عرفاني بجميلهم وما أحمله لهم من ود خالص .

وقد تسنى لي وأنا بالقاهرة أن أقف على مصادر لم تتوفر لي بالخرطوم ، مثل كتاب المبارك ابراهيم الذي عثرت عليه بدار الكتب المصرية وكان أهم ما وقفت عليه مجموعة الخرط وعدد من الوثائق كانت ضمن المكاتبات المتبادلة بين ولاية مصر وحكام عام السودان ، وهي محفوظة بدار الوثائق القومية العربية بالقلعة بالقاهرة . وينبغي أن اعترف بأنني اعتسدت على نسخ ترجمها موظفون بالدار من أصلها التركي الى اللغة العربية . وقد وجدت اشارات الى بعض الوثائق عن الخرطوم في الملخصات ولكني لم أجد الوثائق المقابلة . وكان أكثر ذلك وقعا على نفسى وثيقة اعتبرها هامة في تحديد تاريخ اختيار الخرطوم عاصمة ، لان الملخص يقول ( محمد علي يوافق على اختيار الخرطوم ) بينما لا توجد الوثيقة المقابلة لهذا الملخص .

وقد تسنى لي أن اعيد النظر في بعض ما كتبت على ضوء الحقائق الجديدة التي وقفت عليها في دار الوثائق ودار الكتب المصرية . ولذلك فإن قراء مجلة الخرطوم سيجدون اختلافا بين هذا الكتاب وبين ما نشرت في تلك المجلة .

وانني لاود أن أشكر كل من عاونني في اعداد هذا الكتاب وأخص بالشكر صديقنا قيلي أحمد عمر واستاذنا حسن نجيلة والشاطر بصيلي عبد الجليل والمبارك ابراهيم والمرحوم سليمان كشه والزميلة خديجة زروق وزميلي وداعة حسين ومحمد صالح حسن ودار الوثائق المركزية بالسودان وأمين مكتبة جامعة الخرطوم ومدير دار الكتب المصرية ومدير دار الوثائق القومية العربية .

محمد ابراهيم أبو سليم  
القاهرة ١١ / يوليو ١٩٧٠

## من القديم الى العهد التركي

الخرطوم عاصمة السودان الحديث ، وريث مجد سوبا عاصمة مملكة علوه المسيحية وقرى عاصمة مشيخة العبد لاب ، عندها يلتقي النيل الابيض والنيل الازرق ومنها يبدأ النيل الكبير مجراه المبارك الى الشمال . وفد اليها مع غروب شمس سوبا جماعة من المحس فعمسروا توتي ، ومن توتي عبر ولي من أوليائهم النهر ونزل الخرطوم لينبني فيه منزلا وخلوة يرتادها الصبيان ، ومع نار العلم التي اوقدها هذا الولي بدأ عمران الخرطوم . وظل المكان لعقب الولي من الولد والجيران ومن اجتمع اليهم حتى غربت شمس دولة الفونج ولما جاء الترك بنوا عاصمتهم في الخرطوم عوضا عن سنار عاصمة الفونج الاولى . وكان انشاء الخرطوم من أعظم انجازات الترك الباقية . ثم قامت دولة المهديّة لتهدم كل ما شيّده الترك وهدمت فيما هدمت مدينة الخرطوم وبنت فيما بنت مدينة أم درمان واتخذتها عاصمة . وجاء الحكم المصري الانجليزي ليعيد للخرطوم مجدها الغابر ويتخذها عاصمة للبلاد .

### الموقع :

تقع مدينة الخرطوم على الضفة اليسرى للنيل الأزرق ممتدة من نقطة التقائه بالنيل الأبيض الى الشرق حتى الجريف ومتسعة الى الجنوب حتى الضفة اليمنى للنيل الابيض . وهي في شكل مثلث رأسه عند التقاء النيلين وقاعدته الى الشرق مستقرة على النيلين الابيض والازرق . وموضعها عند خط عرض ٣٦ ١٥ ° شمالا وخط طول ٣٢ ٣٢ شرقا ، وعلى ارتفاع ١٣٥٢ قدما فوق سطح البحر . .

ومدينة الخرطوم تكون وحدة ادارية واحدة يتبع كلها بلدية الخرطوم . أما ما يقع وراءها فيتبع ريفي الخرطوم بحري . وقد اضيف

اليها حديثا امتداد الصحافة والشجرة والعزوزاب والجريف وغيرها •  
وهي آخذة في الاتساع مبتلعة كل عمران يقوم بالقرب منها •  
وعلى الضفة اليسرى للنيل الابيض والنيل الكبير تقع مدينة ام  
درمان ممتدة شمالا وجنوبا وهي العاصمة التي اقامها الانصار عوضاً  
عن الخرطوم • وقد اعتبرت العاصمة الوطنية في العهد الثنائي ، وهي  
مدينة أفريقية صميمة •

وفي الطرف الثاني للنيل الأزرق مدينة الخرطوم بحري والتي نشأت  
أساساً حول محطة سكة الحديد في العهد الثنائي وابتلعت بعض المواضع  
القديمة كحلة حمد وحلة خوجلي وقصر راسخ وربما تمتد في المستقبل  
حتى تبلغ الحلفاية والكدرو • وتعد مدينة الخرطوم بحري المركز  
الصناعي الأول للقطر •

والمدن الثلاثة الخرطوم وام درمان والخرطوم بحري متصلة بعدد  
من الكبارى وشبكة قوية من المواصلات ، ولكل منها مجلس بلدي  
خاص وهي مجتمعة تعرف بالعاصمة المثلثة ويسكن تسميتها بالخرطوم  
الكبرى •

وتقع الخرطوم وجاراتها في موضع يتوسط أقاليم تختلف في  
اقتصادياتها ، وقد جاء مولدها على أساس ارتباط هذه الاقاليم تجارياً  
وادارياً كما سيأتي بعد •

#### الاسم :

اختلف الناس حول أصل اسم الخرطوم وساقوا عدة تفسيرات منها  
ما يبدو معقولاً حتى يظنه المرء عين الصواب ومنها ما يبدو سخيفاً حتى  
يود المرء لو تجنب ذكره • ومن الصعب أن يصل المرء الى نتيجة محددة  
أزاء هذه التفسيرات • ومصدر الصعوبة هو قدم الاسم بحيث يسبق  
تاريخ انشاء المدينة • ولو انه كان مما أطلق عند انشاء المدينة لاتضح  
لنا مصدر الاسم ومناسبته على نحو ما هو معروف الآن عن القاهرة  
وبورسودان وسرمن رأى والفاشر والاسماعيلية ولكن المدينة اخذت  
اسم الموضع القديم ، وليس يعرف بالتحقيق ان كان هذا الاسم عريباً

أو نوبيا أو مرويا أو من لغة غير هذه وتلك • وربما كان الرأي بأن بعض أسماء المواضع لا تفسير لها الزم بأن يؤخذ هنا ومع ذلك لا بد لنا من أن نستعرض بعض الآراء والتفسيرات اتساما للفائدة •

ذكر قرانت واسبيك المكتشفان لمنابع النيل ان الاسم مأخوذ من القرطم ، وهو نبات تكثر زراعته في مصر وكان يستعمل زيتة للاضاءة • وقال بعض الظرفاء انه في الاصل خور التوم ثم حرف الى الخرطوم، وذهب آخرون الى ان اللفظ يعني في لغة الشلك ، وبعضهم قال لغة الدينكا ، المكان الذي تجتمع عنده العيون والانهر • وقالوا ان الشلك أو الدينكا ، قد أطلقوا هذا الاسم على المكان لان النيل الابيض والنيل الازرق يلتقيان فيه ويكونان النيل الكبير ويجد هذا الرأي حساسا عظيما عند بعض أبناء الجنوب لما يظنون أن اجدادهم كانوا يستوطنون هذه الديار حتى انحسروا جنوبا تحت ضغط القبائل العربية وهذا وهم وخيال ••

فقد كانت عاصمة الفونج في سنار وكانت سلطنة الفونج خالصة للفونج والعرب ولا يعرف في تاريخهم ان الزنوج كانوا يستوطنون الخرطوم أو أي بقعة شمال النيل • وقبل سلطنة الفونج كانت مملكة النوبة العليا ، وكانت عاصمتها سوبا على بعد أميال قليلة من الخرطوم • اذا كانت الخرطوم تقع في قلب مملكة النوبة المسيحية العليا ولا يعقل أن تكون امتدادا للاقاليم التي يسكنها الزنوج الوثنيون ، واذا صح ان الشلك كانوا في تاريخهم يمتدون الى الشمال فلا بد أن يكون ذلك قبل قيام هذه الدولة • ومن المشكوك فيه انهم كانوا يستدون شمالا حتى الخرطوم • واذا تركنا هذا جانبا فائنا نجد ان الناس قد أطلقوا على المكان الذي يلتقي فيه النيلان الابيض والازرق لفظ المقرن الذي يدل على هذه الصفة وهو أخرى بأن يحمل معنى اللفظ الزنجي الذي يعني التقاء العيون والانهر •

وكنت في مقال نشرته في مجلة الخرطوم قد رجعت باللفظ الى أصل نوبي ، وكان رأيي هذا يقوم على قرب الموضع الى عاصمة المملكة

النوبة العليا مما يعطي احتمالا لوجود اسم عرف به في ذلك الزمان وهو احتمالا الخرطوم ووجود قرية بهذا الاسم في النوبة السفلى . فقد ذكر الرحالة المشهور بركهارت في رحلاته قرية بهذا الاسم في النوبة المصرية على مقربة من كلابشه مما يعني وجود الاسم بين اسماء البلدان النوبة . ومن المعروف ان الاسماء النوبية للمواضع تتكرر .

وقد تواتر القول بان العرب اطلقوا هذا الاسم على المكان لان طرفه يمتد في شكل شريط يشبه خرطوم الفيل حتى يلتقي النيلان الابيض والازرق . ومما يؤيد هذا القول اطلاق نفس اللفظ على موضع شبيهه . فقد وجدت في وثيقة من وثائق الفونج ذكرا لموضع يقال له خرتوم البشاقرة ، وهو يعني ان لفظ الخرطوم او الخرتوم يطلق على لسان الارض الذي يمتد داخل الماء كما هو الحال بآخر الطرف الغربي للخرطوم . وعلى ذلك فان للموضع اسمان ، احدهما يأخذ اصله عن هذه الصفة اي امتداد الارض بين النهرين في شكل لسان وهو الخرطوم بينما يأخذ الثاني عن صفة التقاء النهرين وهو المقرن ، وهذا الثاني أقرب الى اللسان العربي .

ويبدو ان اصل اللفظ بالتاء أي الخرتوم ثم قلب التاء الى طاء - الخرطوم ، وهو نوع من التهذيب على اللسان العربي ، والظن عندي أن ذلك التغيير قد تم بعد الفتح المصري ، ونحن نلاحظ مثل هذا التهذيب في حالات اخرى مثل كردفان ، فقد كان الاسم باللام «كردفال» وهو في الاصل اسم جبل بالقرب من الابيض ثم انقلب اللام الى نون «كردفان» بعد الفتح المصري . وقد ورد الاسم باللام في كل الوثائق القديمة السابقة للحكم المصري . والعامية في كردفان ما زالوا ينطقونه على وضعه القديم . ومثله عطبرة فانها في الاصل اتبره بالالف والتاء بدل العين والطاء . وقد ورد هذا الاسم بهذا الشكل ، وهو اصلا اسم النهر الذي يلحق بالنيل عند هذا الموضع ، في وثائق الفونج . ومثله الابيض ، فانه في الاصل الليّض ، وهو تصغير لكلمة الابيض في لغة العامة .

ثم تتساءل بعد هذا كله ما اصل هذا الاسم ؟ هل هو عربي أم  
شلكي ام دينكاوي أم نوبي ام مروي • اغلب ظني انه نوبي ولكنه ظن  
لا يصل الى اليقين • ومن المؤكد في نظري ان اللفظ ليس بعربي •  
واذا صح أن أصل الكلمة بالتاء فان الربط بين الاسم وبين خرطوم  
الفيل أمر بعيد عن الواقع •

### العواصم القديمة في اقليم الخرطوم :

لعل أقدم مدينة في اقليم الخرطوم هي تلك التي اكتشف أثرها  
في سنة ١٩٢٩ في المنطقة الواقعة غرب بحري وجنوب محطة المياه •  
وقد قدر انها ترجع الى القرن السابع بعد الميلاد • كذلك اكتشفت آثار  
حياة قديمة في منطقة الشجرة عند حفر ميناء الري المصري • ويفيدنا  
ارسلان بك الذي زار الخرطوم في سنة ١٨٣١ انه وجد كنيسة متهدمة  
في توتي • كذلك وجدت آثار عمران قديم في عدد من المواضع بام  
درمان • وكل هذا يدل على أن منطقة الخرطوم كانت عامرة منذ القدم  
وان عمرانها كان مؤكدا في العصر المسيحي •

وعلى بعد عشرين كيلو متراً جنوب مدينة الخرطوم كانت تقع مدينة  
سوبا القديمة عاصمة مملكة النوبة المسيحية العليا أو مملكة علوة ،  
وقد اشتهرت سوبا من القرن السادس عشر الميلادي وكانت عامرة  
بالمباني الجميلة والكنائس المسيحية والمعابد التي بنيت على طراز معابد نبتا  
والنقعة • وكانت كنيسة سوبا تتبع كنيسة الاسكندرية لأن النوبة كانوا  
على مذهب اليعاقبة كأقباط مصر • ويبدو أن النوبيين بنوا عاصمتهم  
في هذا المكان لوضعه الجغرافي الممتاز وهم أول من دفعوا بالعاصمة  
جنوب النقعة ويقال انهم بنوا مدينة اخرى قصادها بالجانب الاخر  
من النيل الازرق • وقد ظلت سوبا عاصمة عامرة حتى خربها الفونج  
ونقلوا عاصمتهم الى الجنوب في سنار وذهب تدمير سوبا وخرابها  
مثلا يجري على لسان السودانين الى اليوم •

وقد ذكر بعض المؤرخين انه كان بسوبا عدة مئات من الكنائس

فنقل عنه الكثيرون دون ترو • والمقصود بالقول في نظرنا هو كنائس  
المملكة كلها وليست كنائس سوبا على التخصيص •

وقد اهتم علماء الآثار في العصر الحديث بآثار سوبا وقصدها  
أكثر من عالم • وكان أولهم المسيو جيلود العالم الاثري الفرنسي الذي  
قام ببعض الحفريات في سنة ١٨٢١ وعثر على بعض القطع الاثرية • ثم  
جاء دومشن ، الرحالة الالماني والذي اكتشف بعض اجزاء كنيسة سوبا •  
وقد حمل غردون هذه الاجزاء الى الخرطوم ويقال انها باقية الى الآن  
في الكنيسة الانجيلية بالخرطوم • وفي سنة ١٩٠٣ وفد اليها البروفسير  
بدج واكتشف بقايا بوابة المدينة وبعض أطراف الكنائس •

ولما قامت سلطنة الفونج بنى الفونج عاصمتهم في سنار وصارت  
سنار العاصمة الاولى للمملكة • وقد جعل حلفاؤهم واتباعهم العبدلاب  
عاصمتهم في قرى الواقعة على بعد ٤٠ ميلا شمال الخرطوم • وهكذا  
ظل اقليم الخرطوم على مقربة من العاصمة الثانية • وقد بلغت قرى  
اوج مجدها وقوتها في عهد الشيخ عجيب المنجلك الذي تميز عصره  
بالفتوحات وقد قتل الشيخ عجيب في واقعة كركوج في سنة ١٦٠٤ وحملت  
جثته الى قرى ودفن فيها •

وفي سنة ١٧٩٠ ترك الشيخ عجيب الثالث شيخ قرى عاصمة  
اجداده وانتقل جنوبا ليتخذ حلفاية الملوك عاصمة له • وقد ظلت الحلفاية  
عاصمة للعبدلاب حتى مجيء الترك ومنذ عهد هذا الشيخ ازداد استقلال  
العبدلاب عن الفونج وصارت تبعيتهم للفونج تبعية اسمية • وفي نفس  
الوقت كان نجم قبيلة الشايقية في الصعود • وقد صار الشايقية  
ينافسون العبدلاب • ويناوئونهم حتى جاء الترك فقاومهم الشايقية  
أولا ثم صاروا حلفاءهم وعاونوهم فيما تلى من الفتوحات معاونة صادقة  
وظلت علاقتهم بهم حميمة ابدا •

وقد سلم الشيخ ناصر الامين شيخ العبدلاب دون مقاومة ثم  
ما لبث ان مات بعد قليل • وقد اقام الترك في الحلفاية حامية قوامها  
٤٠٠ من الشايقية تحت قيادة سنجك ولما قتل الملك نمر اسماعيل باشا

في العام التالي وعت الثورة الاقاليم الشمالية قام الشيخ الامين ابن الشيخ ناصر الامين على رأس قوة من أهله وهجم على الحامية وقضى عليها قضاء مبرما . ولما اسعاد الاتراك انفسهم وقمعوا الثورات في الشمال بقيادة الدفتردار أصابوا العبدلاب وضربوهم دون رحمة فهرب الشيخ الامين الى القلابات وصادر الاتراك أراضي العبدلاب في الحلفاية وقرى واقطعوها لحلفائهم الشايقية . وقد بدأ نفوذ الشايقية يزداد في الحلفاية منذ ذلك الوقت وهم يكونون بها الآن قوة وعصبية .

### قدوم المحس وأوليائهم :

وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي وفد الى اقليم الخرطوم جماعات من المحس واستوطنوا في الخوجلاب والحلفاية وجزيرة توتى . وكانت توتى اهم مكان تجمعوا فيه . والمحس ينتمون الى القبائل التي تسكن اقليم المحس جنوبي مركز حلفا وهم يؤكدون دائما انهم من سلالة قبيلة الخزرج العربية ، وهناك من الدلائل ما يوحي بانهم على صواب وبفضل المكانة العظيمة التي خلفها لهم علماءهم وسط عربان الاقليم والخلاوي التي أنشأوها طاب لهم المقام وتملكوا الاراضي وصار لهم نفوذ عظيم . وقد توافق مجيئهم مع قيام السلطنة السنارية اولى الحكومات الاسلامية في السودان . وبانتقال عاصمة الفونج الى سنار وعاصمة العبدلاب الى قرى خلا الجو للمحس وفقهائهم الذين سكنوا حول النيل وظلوا يتكاثرون ويتوسعون ، فانتقل بعضهم الى الخرطوم وبعضهم الى الخرطوم بحرى وبعضهم الى ام درمان . أما العربان فقد ظلوا في باديتهم وحضرهم يوقرون أولياء المحس ويقدمون لهم الهدايا وينشدون عندهم البركة . وقد صار فقهاء المحس رسل حضارة وذاع صيتهم في السودان .

وقد حرص سلاطين الفونج وشيوخ العبدلاب على ارضاء الفقهاء فاقطعوا لهم الأراضي الواسعة وملكوهم وهبوا لهم سبل الإقامة والفراغ لخلاويهم وعلومهم .

وكان ممن اقطع لهم الارض الشيخ خوجلي عبدالرحمن وحيد ولد



ام مريوم وهما في مدينة الخرطوم بحرى الحالية والشيخ يعقوب بن  
مجلى في الجريف غرب وابو سعد والحلفاية •

وقد اعطى الفونج قطعة أرض في العيلفون للشيخ ادريس ولد  
الارباب كما اقطعوا أرضا للشيخ حمد ولد زروق في الصبابي • ثم  
وفد الدوايب واقطع لهم الفونج والعبدلاب أراضي واسعة في الكدرو •  
وهكذا قدر لمنطقة الخرطوم أن تستقبل في هذا الوقت هذا العنصر  
النشط من أهل الشمال وان تكون منارة للعلم ومهبطا للاولياء  
والصالحين •

### اخبار الخرطوم :

لا يذكر المؤرخون شيئا عن الخرطوم في عهد مملكة النوبة  
المسيحية العليا • وفي العصور التالية ، اي طوال العهد الفونجي ، لا يكاد  
يصلنا عنها شيء • فالرحالة الفرنسي بونسيه (Boncet) الذي زار  
السودان في سنة ١٦٩٨ ذهب من قرى الى سنار مباشرة دون ان يتوقف  
في الخرطوم أو يذكرها • ولما جاء بروس في ١٧٧٢ اتجه من سنار  
الى شندى عبر الحلفاية دون ان يذكر الخرطوم • وقد ورد في خريطة  
اوربية صدرت في ١٧٢٩ ذكر توتى في موضعها الحالي ولكن لم تذكر  
الخريطة الخرطوم ، وفي خريطة اخرى صدرت في ١٨٢٠ جاء ذكر الحلفاية  
وام درمان بينما سقط ذكر الخرطوم وتوتى •

وفي سنة ١٨٢٠ رافق اوريان جيش اسماعيل باشا وعبرا معه  
النهر في منطقة الخرطوم وهما كايو وانجلش • وقد سجل الاثنان  
مشاهدتهما في كتابين • اما انجلش فلم يذكر الخرطوم ابدا • واما  
كايو فقد ذكر الموضع باسمه ووصف عبور جيش اسماعيل من ام درمان  
الى الخرطوم ويبدو من وصفه انه اسم موضع ليس الا • وعلى ذلك  
فان الخرطوم لا يشكل اهمية بالنسبة للرحالة الاوربيين حتى الفتح  
المصري • ولعل اول اوروبي جاء بعد الفتح ودون مشاهداته عن الخرطوم  
هو أدوارد بارون فون كالو • Eduard Baron von Callot

والذي اشتهر باسم ارسلان بك . لقد زار ارسلان الخرطوم في ١٩٣١ في طريقه الى الحبشة موفدا من قبل محمد علي باشا وتوقف عندها قليلا ، وهو يسميها رأس الخرطوم كما يشير الى توتى بقوله توتى الخرطوم . وقد ذكر ان رأس الخرطوم ليس به شيء الا بعض الاكواخ الفقيرة . أما توتى فقد اكتشف بها بقايا كنيسة قديمة . هذا في الوقت الذي يصف فيه الحلفاية وذكر انها عاصمة الاقليم وان بها نحو أربعة آلاف نفس .

ومع ان الخرطوم حتى ذلك الوقت لم يكن شيئا اكثر من نقطة عسكرية بينما كانت عاصمة الاقليم الحقيقية في الحلفاية فان ارسلان بك قد أدرك أهمية هذا الموقع وارتباطه بطرق القوافل التي تتجه منها الى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ومن ثم اقترح انشاء مدينة تجارية بها ووضع الخرط اللازمة . لقد ذكر ارسلان هذا في رحلته التي لم تترجم بعد الى الانجليزية ولا العربية ولكن الوثائق الرسمية المحفوظة بدار الوثائق المصرية لا تذكر شيئا عن هذه المقترحات .

واذا ما رجعنا الى المصادر السودانية فاننا نجد ان وثائق الاراضي الخاصة بهذا الاقليم لا تذكر الخرطوم بينما هي تذكر توتى وأم درمان والكدر والفتيحاب . وذكر كاتب الشونة الموضع مرة واحدة في فترة الفونج وذلك عندما وصف هزيمة جيش الفونج والبدالاب امام جيش الفور وكيف طاردهم الفور حتى الخرطوم . ثم يأتي ذكر الخرطوم عند الكلام عن عبور جيش اسماعيل النهر من ام درمان الى الخرطوم ثم عند الكلام عن مجيء عثمان بك وبنائه النقطة العسكرية بها ثم مجيء محو بك خلفاً لعثمان بك . وبعد ذلك يرد الذكر اضطرادا أما كتاب الطبقات فلم يرد فيه ذكر الخرطوم بالرغم من ان مؤلفه من الحلفاية ويذكر كثيرا من أولياء هذه المنطقة .

والذي يستفاد من هذا كله هو أن الخرطوم لم تكن لها أهمية تذكر حتى مقدم الترك اللهم الا وجود خلوة الشيخ ارباب العقائد وبعض اكواخ الصيادين .

### قرية الخرطوم :

وقد ظلت الخرطوم نفسها منطقة غير مأهولة تغطيها الغابات

وتأتيها مياه الفيضان فتغرق اجزاء كبيرة منها • وكان يأتيها المسافرون ليعبروا عندها النيل ويرتادها صيادو السمك في مواسم الصيد يقضون بها حاجاتهم ثم يعودون ادراجهم بنا اصطادوا وفي حوالي سنة ١٦٩١ ترك الفقيه أرباب العقائد جزيرة توتى التي اشتهر فيها وعبر النهر لينشئ في هذا المكان أول قرية مأهولة وكان من عادة الفقيه الذي يشتهر أمره وينشد الاستقلال أن يبحث له عن مكان جديد يبدأ فيه حياته الدينية ويجد فرص الاستقلال والشهرة المتاحة وقد فعل مثل هذا الشيخ خوجلى الذي ترك جزيرة توتى وأنشأ حلة خوجلى والشيخ حمد ولد ام مريوم الذي سكن ام درمان ثم ارتحل الى الخرطوم بحرى الحالية وأنشأ بها حلة حمد الباقية باسمه الى اليوم •

وقد ولد أرباب العقائد في جزيرة توتى ونشأ بها وذاع صيته في البلاد المجاورة ووفد اليه الناس يحصلون الهدايا ويتبركون ببركاته وقد ترجم له ود ضيف الله في طبقاته وذكر ان الطلبة قد توافدوا عليه من كل فج وذكر كاتب الشونة ان الرحال قد شدت اليه وان تلاميذه قد بلغوا الف طالب ونيف ، وقد يكون في ذلك بعض المبالغة وقد بلغت شهرته سنار فواصله السلطان ودعاه لزيارة عاصمته فوفد اليه ارباب العقائد بعد أن ترك ابنه علي خليفة له •

وقد وافاه الاجل في سنار فمات وبها دفن ولو انه دفن في قرية الخرطوم لعجل ذلك بنمو الخرطوم لما كان له من شهرة وصيت لم يحافظ عليهما خلفه • وكان من تلاميذ الشيخ أرباب العقائد الشيخ خوجلى عبدالرحمن والشيخ حمد ام مريوم والشيخ حتيك وكان لكل منهم طرف في نمو الخرطوم والشيخ فرح ولد تكتوك المدفون بضواحي سنار اما الشيخ خوجلى فقد قصد المنطقة المعروفة الان بالخرطوم بحرى وبنى فيها مسجدا ومنزلا • ولما توفي الشيخ في سنة ١٧٤٣ بنى اتباعه قبة فوق قبره وقد ظلت القبة حتى هدمت في سنة ١٩٣٦ واعيد بناؤها وقد نشأت حلة خوجلى الحالية حول مسكن الشيخ خوجلى وعرفت باسمه وكان هذا الجانب من مدينة الخرطوم بحرى يعرف بالقبة حتى الفتح الاخير • وقد أقطعه الفونج والعبدلاب اراضي واسعة في الخوجلاب

وجهات الخرطوم وما زال خليفته يحتفظ بسجلات هذه الاقطاعات الى اليوم وقد تفضل فأباح لدار الوثائق المركزية تصويرها وتقديرها لمن يود دراستها فله منا جزيل الشكر .

أما حمد ولد ام مريوم فقد قصد في أول الامر اقليم ام درمان وبدا بها حياته الدينية وقد ظل بها الى ان وقعت خصومة شديدة بينه وبين الشيخ عبد المحمود النوفلابي . ويقال ان عبد المحمود قد احرق منزل حمد وخلوته وكاد حمد نفسه فيما يقولون يذهب ضحية الحريق لولا أن الشيخ خوجلى أصر عليه بالخروج من المنزل ومغادرة المكان وقد استوطن الشيخ حمد بعدها في المكان الذي به قبته الآن ونشأت حلة حمد المنسوبة اليه حولها .

### عاصمة الترك :

وفي سنة ١٨٢٠ ارسل محمد علي باشا والي مصر ابنه اسماعيل باشا على رأس قوة كبيرة لفتح الاقاليم المنضوية تحت مملكة الفونج بينما أرسل محمد بك خسرو الاستامبولي المشهور بالدتردار لفتح مملكة الفور . وقد دخلت قوات اسماعيل البلاد دون مقاومة تذكر حتى بلغت بلاد الشايقية الذين استسلموا في الدفاع وقاوموا الجيش الغازي مقاومة مشرفة . غير ان الشايقية ما لبثوا ان تحالفوا مع الترك وصاروا عوناً لهم ضد اخوانهم في الجنوب وبفضل تآزر الشايقية معهم والتفوق في العدد والسلاح غلب الترك العبدلاب ثم الفونج ودخلت جيوشهم مدينة سنار التي طالما وصفها أهلها بأنها المحروسة المحمية .

وقد بدا السودان بذلك عصراً جديداً يعرف بالعصر التركي . وقد تميزت الايام الاولى لعصر الترك بالقلقل والحروب وظلت جيوشهم في حركة مستمرة لاسكات الاضطرابات وفتح الاقاليم التي لم تفتح بعد ، وقد ترك الاتراك حامية قوامها ٤٠٠ شايقي في الحلفاية كما سلف القول وتركوا حامية اكبر في مدينة سنار ، وقد بقيت الاولى حتى قضى عليها الشيخ الامين بن الشيخ ناصر . أما سنار فقد ظلت معسكراً للقوات ومقراً للادارة الجديدة حتى عدل عنها واتخذت مدني عوضاً

عنها لسوء جو سنار وتفشى الأمراض في الجيش المربط بها •  
وبعد قليل تمكن الملك نمر ملك الجعليين من قتل اسماعيل باشا  
الذي وجه له اهانة شخصية عدها الملك نمر عارا عليه وعلى اثر ذلك  
هبت ثورات قبلية عارمة للاطاحة بالحكم الاجنبي واهتزت الادارة  
الجديدة التي لم تكن قد استقرت بعد • ولما بلغ خبر هذا الامر كردفان  
وفد الدفتردار مسرعا وانتقم انتقاما مريعا من الجعليين وكافة القبائل  
الثائرة • وقد اصاب شره اهل توتى وأثقل عليهم ثم لحق القدر المشؤم  
بالعليفون • وعلى العموم فقد قتل الدفتردار خلقا كثيرا وخرب الديار  
واثار الرعب في القلوب •

وأول خبر يصادفنا عن منطقة الخرطوم في العهد التركي هو نزول  
اسماعيل باشا في ام درمان عند مقدمه للفتح • وقد ذكر كاتب الشونة هذا  
الحادث ووصف اثر مقدمه على الناس فقال : فهرب منه بعض الناس وقابله  
البعض فاعطاهم الامان لغيرهم ولانفسهم وكساهم وتكامل بالخرطوم فاخذ  
منهم قدر العليق وفي هذا القول ما يعني ان الخرطوم كانت مأهولة بالسكان  
وان لم تكن مدينة • ونحسب ان الباشا قد عبر النهر في هذا المكان •

ولما خلف عثمان بك الدفتر دار وصار مديرا نزل بالخرطوم وقابله  
الشيخ هناك وقد بنى في الخرطوم معسكرا لجيشه وترك فيه حامية وقد  
كان ذلك بداية مدينة الخرطوم الجديدة • ولما مات عثمان بك خلفه محو  
بك مدير بربر وكان رجلا قديرا وقد نزل محو بك في حلة حمد - الخرطوم  
بحرى الآن - وعسكر بها مدة من الزمن ثم عاد الى بربر ولما جاء للمرة  
الثانية نزل بالخرطوم وعسكر بها • وقد روى كاتب الشونة ان جماعة من  
جيش محو قد استغلت غيابه ونهبت حلة خوجلي وخربوا قبتها فعاد محو  
مسرعا ليحمي الناس من شرهم • وعلى العموم فقد خطت الخرطوم في عهد  
محو بك خطوات واسعة نحو العمران • وقد اطلق اسم محو بك على  
منطقة الشجرة الواقعة جنوب الخرطوم وصارت المنطقة تعرف بشجرة محو  
وان كان الاهالي يقولون شجرة الماحي احيانا • وللشجرة قصة لا بأس من  
ان نرويها فقد كانت في الاصل تسمى شجرة النقارة وقد حسب قرانت في

يومياته ان وجود شجرة كبيرة في جزيرة مواجهة لها وكون طبول الخرطوم تسمع بها قد دعا الى اطلاق هذا الاسم عليها ونحسب ان هذا هراء . والأدعى من ذلك ان يقال ان الشجرة كانت مكانا للتجمعات القبلية فتدق فيها الطبول وتقام فيها المهرجانات القبلية . ويحتفظ عرب الشجرة الى اليوم بنقاراتهم ويدقونها في مواسمهم الخاصة والاعياد ، وفي العهد التركي اطلق الناس على المكان اسم محو وقالوا ان هذه الشجرة الكبيرة نبتت في المكان الذي ضرب فيه محو خيمته ، وظلت المنطقة تعرف بشجرة محو حتى سقوط دولة المهديّة . وبعد الفتح الاخير فكر أحد مفتشي الحكومة في شيء يثير به السواح الذين يقدون لزيارة المناطق الاثرية فزعم بأن الشجرة شجرة ضخمة زرعها غردون ورعاها حتى كبرت ومن ثم اطلق الناس عليها شجرة غردون . اما اليوم فقد تخلى الناس عن هذا وذاك وصاروا يطلقون عليها الشجرة فقط .

ثم جاء خورشيد باشا وحل محل محو بك وقد نزل خورشيد اولا بام درمان وقابله محو بك هناك واقاما بها عدة ايام . وقد تلقته على حد تعبير كاتب الشونة المشايخ هناك ثم دخل المدينة . وقد اتسعت الخرطوم في عهده اتساعا عظيما ويقال انه اضطر الى توسيع الجامع الذي بناه بعد سبع سنوات من انشائه وكان بناؤه في سنة ١٢٤٥ هجرية وتوسيعه في سنة ١٢٥٣ وقد اشار كاتب الشونة الى توسيعه فقال : وفي يوم الجمعة المباركة ٧ ج ١٢٥٣ هـ اقيمت صلاة الجمعة بالجامع الشريف بعد عمارته وانشائه بعد ان امر الباشا بتوسيعه في بنائه الاول الذي هو في سنة ١٢٤٥ وقد شيد خورشيد ثكنات للجهادية كما شجع الاهالي على تشييد المنازل وعاونهم بتقديم معدات البناء ويقال ان خورشيد كان يصنع الطوب الاحمر في سوبا ثم ينقله الى الخرطوم .

وقد اضاف عبد اللطيف باشا منشآت جديدة فبنى قصر الحكمدار وهو القصر الذي قتل فيه غردون وقد شيد هذا القصر من جديد بعد الفتح وصار في العهد الوطني المقر الرسمي لرأس الدولة . كذلك بنى عبد اللطيف مبنى مديرية الخرطوم القديمة والمطبعة ومحكمة العموم والاجراخانة

وقشلاقات الطوبجية ، وكانت كلها بالطوب الاحمر وفي عهده انشئت  
مدرسة رفاعة •

وفي سنة ١٨٤٨ وصل الفوج الاول من المبشرين بقيادة الاب ريلو  
وقد قدر رئيس الفوج سكان الخرطوم في ذلك الوقت بحوالي ١٥٠٠٠  
نسمة ، وكان الشريف حسن وهو تاجر سوداني مسلم اول من رحب بهم  
عند وصولهم المدينة ثم نشروا خيامهم على شاطئ النيل • وكانت معيشتهم  
شاقة لاقتقارهم الى المال وتدهور حالتهم الصحية الى درجة خطيرة حتى  
جاز لأحدهم ان يصف معسكرهم بقوله: ان بعثتنا تشبه مستشفى ومواردنا  
قد نضبت - وقد وقف معهم في هذه المحنة الشريف حسن الذي قدم لهم  
مساعدات قيمة وعاونهم معاونة صادقة واشترى لهم من جيبه الخاص قطعة  
ارض على شاطئ النيل الازرق ، فاقاموا فيها ارسالية الخرطوم ، وكان  
ذلك في الموضع الذي به بلدية الخرطوم الآن • وقد تجلت في شخص هذا  
المحسن العظيم سماحة المسلمين واريحيتهم مع من يخالفونهم في الرأي  
والعقيدة وتسامحهم الديني •

ولنقف هنا قليلا لنتساءل عن تاريخ بداية الخرطوم فالمؤرخون  
مختلفون في هذه النقطة اختلافا شديدا •

ذكر المبارك ابراهيم ان ميلاد المدينة - كان في سنة ١٨٢٤م وقال ان  
المصريين قد أبقوا على سنار عاصمة لقربها من جبال شنقول حيث كانوا  
يأملون ان يجدوا بها كميات وافرة من الذهب ولما ذهبت الامال ادراج  
الرياح وابت الجبال ان تعطي الذهب فقدت سنار مؤهلها ولما كان جوها  
سيئا وتفشت الملاريا والبدوسنتاريا في الجنود حتى بلغ عدد الضحايا في ١٦  
اكتوبر سنة ١٨٢١م ، ١٥٠٠ دفينا كما جاء في التقارير الرسمية، والمرضى  
اكثر ، وبقي من الجيش ٥٠٠ فانهم قد انصرفوا الى الخرطوم واتخذوا  
مقرا لرئاسة الحكومة • ومن المؤسف اننا لا نقف على التفاصيل التي  
يذكرها بعد ذلك لان النسخة الوحيدة التي اعتمدنا عليها من الكتاب  
وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تسقط ورقة في هذا الموضع •

وبعضهم قال ان المصريين اقاموا بها معسكرا دائما في سنة ١٨٢٢ ثم  
اخذ يتوسع حتى اختيرت عاصمة في ١٨٣٠ .

وقال آخر ان تأسيسها كان بين ١٨٢٠ و ١٨٢٢ وان هذا التأسيس  
مهد لفتح كردفان .

وقال بدج بان تأسيسها كان بين ١٨٢٠ و ١٨٢٣ ثم يذكر ان عثمان بك  
الذي عين حاكما على السودان في سنة ١٨٢٥ جعل من الخرطوم المنشأة  
حديثا مركزا لقيادته .

وقال آخر ان الدفتردار هو الذي اختار الموضع وهذا يعني ان  
التاريخ يرجع الى سنة ١٨٢٣ .

وذكر تشارلس ديدبير الذي زار الخرطوم في ١٨٥٤ ان تأسيسها كان  
في ١٨٢٣ ، وانها اصبحت فيما بعد مركز الكشف الجغرافي في مناطق النيل  
الاعلى .

وقال عبد الله حسين انها اصبحت معسكرا للجيش في سنة ١٨٢٣ ثم  
اصبحت مقرا لحكمدار السودان خورشيد باشا وعاصمة للسودان في سنة  
١٨٣٠ .

وقال محمد صبري ان معسكرا دائما قد اقيم فيها في ١٨٢٣ وان  
خورشيد اتخذها عاصمة في سنة ١٨٣٠ .

وعلينا قبل ان نصدر حكما ان نفرق بين المراحل المختلفة التي مرت  
بها الخرطوم . ففي المرحلة الاولى كانت احراشا وغابات وفي المرحلة الثانية  
اتخذها ارباب العقائد مركزا لخلوته وبدأ بها العمار . وفي المرحلة الثالثة  
بنى بها عثمان بك جركس نقطة عسكرية . وفي المرحلة الرابعة صارت  
النقطة العسكرية عاصمة لكل السودان .

وكما قلنا سابقا فان الخرطوم كانت عبارة عن غابات واحراش في  
أراضيها العليا ، اما الاراضي السفلى فكانت جروفاً يزرعها أهالي توتى .  
وقد جاء اسم برى من هذه الصفة اي البر بالنسبة للجزيرة . وكان



## صيادو السمك يرتادون المنطقة •

ثم جاء الشيخ أرباب العقائد المحسى من توتى وانتقل إليها بحبرائه وأسس بها خلوة • وقد تحول الموضع بفضلها من مزرعة الى قرية • ولما وصل اسماعيل باشا الى الموضع في طريقه الى سنار لم يمكث بها الا ثلاثة ايام ريثما يعبر جيشه النهر ، وكان ذلك بين ٢٨ مايو وأول يونيو • وفي عهد اسماعيل ظلت حال الخرطوم على ما هي عليها وظلت سنار عاصمة • وكان مما دفع المصريين الى البقاء في سنار واتخاذها عاصمة قربها الى مناجم الذهب في جبال فازوغلي وبني شنقول والتي وضع المصريون عليها آمالا عظيمة ، واهتمام المصريين بالقضاء على نظام الفونج نهائيا ووضع نظام جديد • وكان هذا يعني البقاء في سنار العاصمة والتي تسيطر على مناطق الجزيرة كلها •

وفي نفس الوقت فإن الحلفاية ظلت عاصمة للاقاليم التي كانت منضوية لمشيخة العبدلاب مباشرة • وقد رأينا كيف ترك فيها المصريون حامية من الشايقية وكيف كان أمرها عندما اندلعت الثورة اثر مقتل اسماعيل وكيف ضرب المصريون العبدلاب على يد الدفتردار •

وعلينا على هذا الضوء ان تتابع أخبار المدن الاربعة المهمة — الخرطوم، الحلفاية ، مدني ، سنار ، كما ترد اخبارها في الوثائق المتبادلة بين الولاة في مصر وحكام السودان •

ففي ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٣٦ هـ ترد اشارة الى سنار وتصفها بأنها كرسي بلاد السودان وهي تعني انها عاصمة الادارة المصرية •

وفي محرم سنة ١٢٣٧ هـ نجد محمد علي باشا وابنيه ابراهيم واسماعيل مشغولين بادارة اقليم الحلفاية • فقد اقترح اسماعيل باشا على أبيه تعيين محو بك حاكما على هذا الاقليم • وقد عرض محمد علي الامر على ابراهيم باشا واستشاره فيه • وكان رأي ابراهيم الا يعين قائد مبرز مثل محو بك على الحلفاية نظرا الى انها اقليم خرب وقريب من سنار ومن الممكن ادارته منها بسبعين او ثمانين فارسا • وقد افاد محمد علي محو بك بما انتهى اليه •

وعينه بناء على اقتراح ابراهيم باشا حاكما على أقاليم شندى وبربر والرباطاب والتي ادمجت في ادارة واحدة ... » وبناء على ذلك فقد اجعلت هذه الاقاليم الثلاثة الى عهدة حميتكم واصدرنا أمرا هذا فيتعين بانه نظرا لكون الاقاليم المذكورة هي طريق سنار فالواجب ان تذهبوا اليها مباشرة وان تقيموا في المحل المناسب لان يكون مركزا للحكومة فيها وان تعينوا لكل محل من يقتضيه هذا المحل من رجالكم » .

وعلى ذلك فإن الامر المهم عند الوالي هو ان هذه الاقاليم تعتبر الطريق الى سنار وسنرى اهمية ذلك عندما تتخذ الخرطوم نقطة لبداية الطريق الى الغرب ، وان اختيار عاصمة الاقليم الجديد متروك لمحو ، وقد اختار بربر وهي مدينة قديمة مشهورة وتتصل عندها طرق القوافل التجارية وتوسط هذا الاقليم الجديد .

اما الحلفاية فقد عهد أمرها الى محمد اغا القبوجي باشى ، اي كبير الحجاب . ونحن نعلم من المكاتبات المتبادلة ان القبوجي باشى قد أحضر شيخ العبدلاب ، وهو يشير اليه بملك الحلفاية ومنحه الأمان وأجلسه في مكانه حاكما .

ولعناية الذين تتاح لهم الفرصة للوقوف على الوثائق الخاصة بهذه الاقاليم في هذه الفترة فإننا نذكر ان الوثائق الاصلية بدار الوثائق العربية باللغة التركية وتوجد بها نسخ ووثائق مترجمة الى اللغة العربية ، وهي من وضع مجموعة من المترجمين أتى بهم الملك فؤاد وعينهم في الدار لترجمة الوثائق التركية الى اللغة العربية . وقد رأيت انهم يخلطون بين بربر - في السودان - وبربرا - في الصومال وبين الحلفاية وبين وادي حلفا . ولست ادري ان كان الخلط من المترجمين أو كان من الاصل .

وفي ٢١ شوال سنة ١٢٣٧ ترد اشارة الى حاكم الحلفاية .

وفي ٢٩ شوال ١٢٣٧ نقف على خطاب من محمد علي يبين فيه الوضع بالنسبة لادارة بربر ومحلقاته والحلفاية وسنار ومدني . وهذه هي المرة الاولى التي يذكر فيها مدني - اما الخرطوم فلا يرد لها ذكر . ويلاحظ في هذا الخطاب ان مدني يأتي بالاسم الاصيل وهو ولد مدني . يقول

الخطاب : ان فردة حلفاية قد حولت على القبوجي باشى ( كبير الحجاب ) محمد اغا وحولت فردة شندي وبربر على محو بك . . . وانكم مقيمون بالموضع الذي يقال له ولد مدني وشرعتم في بناء ثكنة ذات تسعين غرفة وانكم عهدتم الى احد الكاشفين بادارة أمور سنار وامرتم رئيس المغاربة محمد اغا بالاقامة بها مع اتباعه . ويرد في الهامش قوله : « لما كان حاكم حلفاية القبوجي باشى المشار اليه وحاكم القصير محمود أفندي ممن ينبغي عودتهم مع طوسون بك فارسلوهم معهم واستخدموا مكانهم اهل التجربة » .

وفي موضع آخر يكرر محمد علي نفس البيانات ثم يضيف : « وقد وافقناكم على عدم اقامتكم بسنار والى اختيار المكث في محل معتدل جوه وعلى تفويضكم ادارة شئون سنار الى الكاشف المشار اليه وتعيين كبير المغاربة المذكور في معيته اما بناء الثكنة فلا تقل استحيانا عن هذه الامور » . وهكذا فان اقامة اسماعيل قد اصبحت في مدني وقد صارت مدني عاصمة بينما صارت سنار مجرد نقطة . والخرطوم لا تذكر ابدا . أما الحلفاية فيأتي ذكرها مع الادارات الاخرى مثل سنار وبربر .

ولما جاء الدفتردار اثر مقتل اسماعيل باشا نكل باهل توتي وكل مناطق الخرطوم كما نكل بالجعليين وسكان النيل عموما . اما في الخرطوم ذاتها فقد هدم جامع ارباب العقائد وقتل حفيده ارباب ولد كامل ولد الفكي علي بمدفع . ولم يذكر انه انشأ في الخرطوم شيئا . وعلى العموم فإن عمله كان منصبا على اسكات الثورة وضربها ولم يكن وقته وقت بناء .

وعلينا ان نلاحظ ان العواصم السابقة كانت على النيل الازرق والنيل الكبير في داخل دائرة كبيرة تتوسط اقليم الجزيرة وجزيرة الهوى وهما قلب سلطنة الفونج ومشيخة العبدلاب وقلب الادارة المصرية في أول عهدها . وتقع داخل هذه الدائرة سنار والحلفاية وقرى واريجي ، وسوبا . وقد اعتبر محمد علي - كما رأينا - اقليم شندي وبربر والرباطاب مجرد معبر الى سنار كما اعتبر اقليم دنقلا معبرا الى الغرب . وعلى ذلك كانت دنقلا

في بعض الاحيان تتبع مصر مباشرة • وفي بعض الاحيان كانت تدمج مع  
بربر • وطبيعة الاقليمين من حيث انهما معبر الى الداخل واحدة •

ويلاحظ ان الاقليم الذي يقع غرب النيل كان تابعا لاقليم كردفان ولم  
يكن هذا الاقليم تابعا لسلطنات الشرق الا في فترات قليلة • وكان اهم ما  
يربط كردفان بالشرق طرق القوافل لا التبعية السياسية • والملاحظة الاخرى  
هي عدم اهتمام النوبة والفونج بأعالي النيل ، وذلك لان نشاطهم كان  
يتركز على النيل الازرق ، ولذلك ظل ما يعرف عن أعالي النيل قليلا حتى  
جاء المصريون وطوروا المواصلات النيلية وعبروا الى الجنوب الى ما وراء  
السدود وادخلوا ذلك العالم المظلم داخل دائرتهم التجارية ثم السياسية •  
ويكاد يكون من المؤكد عندي ان العامل الحاسم في اتخاذ الخرطوم نقطة  
هو ربط كردفان بإدارة سنار •

فقد كانت ادارة كردفان معزولة عن سنار ، امسا لتبعيته لدارفور  
او استقلاله بنفسه ، ولم يصر تابعا لسنار الا لفترة قصيرة • ولما جاء الفتح  
المصري ارسل محمد علي باشا جيشا قائما بذاته لكردفان بقيادة الدفتردار  
بينما ارسل جيشا آخر بقيادة ابنه اسماعيل لفتح سنار • وقد ظلت العمليات  
الحربية ثم الادارة مستقلة في الاقليمين عن بعضهما البعض •

ولما جاءت الثورة بعد مقتل اسماعيل توجه الدفتردار من كردفان  
لتأديب الثوار • ولم يكن في ذلك شيء من الربط بين المنطقتين • ويبدو ان  
محمد علي قد فكر في التخلص من كردفان وتركيز جهوده في سنار حيث  
كان يرجو الذهب والرجال لجيشه • فقد جاء في خطاب من محمد علي الى  
الدفتردار بعد ان سرد تفاصيل حملة الدفتردار شمال الخرطوم حتى  
شندي وبربر :

« فيا ولدي العزيز قد انتهت هذه المهمة الى هذه النتيجة اذا كانت  
الارادة الالهية قضت بذلك • وما علينا في هذا الأمر الا ان نصبر صبرا  
الهما ونجتهد اجتهدا انسانيا لذلك اسند منصب سر عسكرية السودان على  
عهدة حميتكم فاروني حميتكم واحيلوا ادارة جهات كردفان الى ملك مناسب  
من ملوك الولاية على سبيل المقطوعية واذهبوا أتمم الى سنار واجلبوا اليها

الجنود الذين كانوا تحت امرتكم بكردفان او احضروهم عندهم ثم خذوهم معكم حتى اذا وصلتكم الى سنار فافحصوا كيفية ادارة الجزيرة وتدبروا فيها وانشئوا بروجاً في الاماكن المناسبة واقيموا فيها عدداً من الرجال ... فاذهبوا اليها (يقصد شندي) التي اشتهرت بلطافة الجو وأسكنوها حتى يحل موسم الأمطار . حتى اذا انقضى أوان الأمطار فعودوا الى سنار واشتغلوا بتسوية الشئون كما تقتضيه الاحوال ..

... واعلم اننا فوضنا مصالح سنار الى عهدة حميتك ريشا نولي عليها سر عسكر في السنة المقبلة ونرسله اليها » .

وظاهر من هذا الكلام اولاً ان محمد علي كان ينظر الى كردفان بمعزل عن سنار وملحقاتها، وان سنار وملحقاتها صارت تعرف بالسودان. وظاهر ثانياً ان محمد علي يريد ان يركز الأمر في سنار ، وانه يريد ان يجعل أمر كردفان لملك يديره بالنيابة عنه مقابل التزام يدفعه . وظاهر ثالثاً ان مكان العاصمة لم يقطع فيه حتى الآن وذلك لسوء جو سنار ومدني . وكان شندي اليق من جهة الجو وصلاحيته الا ان اهله لم يكن يشجعون مثل هذه الخطوة كما ان وضعه الجغرافي لم يكن يمكن من ادارة اقليم سنار وعلى ذلك فإن الوالي يأمر سر عسكره بالاقامة في شندي ريشا ينتهي موسم الأمطار وبالتوجه بعده الى سنار . وهو يرجو ان يدرس كيفية ادارة الجزيرة أي اقليم سنار وأن ينظر في أمر العاصمة المناسبة .

ثم جاء عثمان بك جركس البرنجي حاكماً على « السودان وكردفان » معا وبصفة دائمة . وعلى ذلك فإن الأمر يقتضي النظر في نقطة تتحكم على اقليم سنار والحلفاية وبربر وكردفان ، نقطة متوسطة تربط هذه المناطق ويمكن ادارتها منها . والواقع ان هذا هو الذي كان يشغل بال عثمان بالاضافة الى كيفية تقسيم القوات . لقد ارسل عثمان تقريراً الى محمد علي باشا قبل ان يصل الى الخرطوم وصف فيه أحوال القرى وهروب الاهالي الى الجبال كلما حل بموضع والاجراءات التي اتخذها . ثم ذكر انه عند وصوله الى الخرطوم سوف يسير القائمقام سليمان بك الى كردفان . ثم ذكر في خطاب آخر وصوله الى الخرطوم ، وانه عازم على الاقامة بها وانه

ارسل القائمقام سليمان والاورطة الثانية واربعة كشاف الى كردفان وانه سينشئ قلعة بالخرطوم وحصنا في جهتي الشرق والغرب وانه سيجعل بها الاورطة الخامسة بينما يوزع باقي الجنود بين سنار والخرطوم . وفي خطاب ثالث وصف عثمان كيفية توزيع الجنود وذكر انه ارسل لكردفان الاورطة الثانية والثالثة والدليل باشي علي اغا الكردي واربعة من الكشاف وارسل الاورطة الاولى للمرابطة في سنار وارسل الاورطة الرابعة للمرابطة في مدني بينما جعل الاورطة الخامسة في الخرطوم .

وعلى ذلك فإن استراتيجية عثمان هي توزيع الجنود على الاقاليم المختلفة وانشاء نقطة بقلعة في الخرطوم للتحكم منها على الاقاليم ، ولذلك أنشأ النقطة والقلعة وحصن الشرق وحصن الغرب . والمقصود بالشرق الخرطوم بحري الحالية وبالغرب ام درمان .

ولقد وقفت في دار الوثائق العربية على ملخص لوثيقة هامة بالنسبة لتحديد تاريخ الخرطوم . ولكنني لم اقف على أصل الخطاب في المجموعة المترجمة الى اللغة العربية وحال عدم معرفتي بالتركية دون البحث عنها في أصلها التركي . وهذه الوثيقة فيما يقول الملخص مؤرخة في ١٦ ديسمبر ١٨٢٤ وصادرة من محمد علي باشا الى عثمان بك البرنجي ، وقد اعطى فيها محمد علي باشا موافقته على اختيار الخرطوم . ومدلول هذه الوثيقة لا يخرج عن موافقته على توزيع الاورط وبناء القلعة بالخرطوم كما سلف .

هل يعني هذا ان الخرطوم اصبحت عاصمة ؟ ليس هناك من الدلائل ما نستطيع ان نقطع به ولكن يبدو ان الخرطوم لم تكن اكثر من نقطة ولكنها اكتسبت اهمية لربط كردفان بإدارة سنار ودمجه .

ولقد مات عثمان في ٢٣ رمضان سنة ١٢٤٠ بالخرطوم ودفن بها . وقبره غير معروف كما ان موضع معسكره غير معروف ايضا . ولكنني احتمل انه كان الى الجنوب في اتجاه منطقة الشجرة . والدليل على ذلك اطلاق اسم محو على المنطقة على زعم انه زرع بها شجرة عرفت باسمه ، وهذا دليل على ان مقره كان هنا .

وجاء بعده محو واستقر في الخرطوم ، ولعله كان يفضل الإقامة بها

لان جوها كان احسن من جو سنار ومدني ولانها قريبة الى الاقاليم التي  
خدم فيها اي بربر وشندي • اما اقليم كردفان فقد استقلت ادارته وصار  
سليمان بك مديرا لها بعد ان ترقى الى مرتبة اميرالاي • ماذا فعل محو  
بالخرطوم ؟ هل اتخذها عاصمة ؟ لا شيء يقطع بذلك ، ولكن يبدو ان  
اقامته كانت هناك بينما يؤخذ من الروايات ان دواوين الادارة كانت في  
مدني •

ثم جاء خورشيد ونمت الخرطوم في عهده كما بينا • وعلى ذلك فإن  
نقطة بدء مدينة الخرطوم كانت في عهد عثمان بك جركس البرنجي وعلى  
يده ، ثم صارت المدينة تكبر حتى بلغت ما بلغت في عهد خورشيد وصارت  
عاصمة وفق اختياره •

وعلى ذلك كان انشاء نقطة الخرطوم في سنة ١٨٢٤ وهو تاريخ تعيين  
عثمان بك • وكان تعيين محو على سنار في سنة ١٨٢٥ ورفعته عن الحكم  
في سنة ١٨٢٦ • ثم جاء بعده خورشيد • ويبدو ان الاخير لم يتخذ النقطة  
عاصمة عند اول مجيئه وانما جاء ذلك شيئا فشيئا الى ان تم نقل الدواوين  
اليها بصفة نهائية حوالي سنة ١٨٣٠ م •

## ( ٢ ) عاصمة الترك المصريين

بينما كانت عاصمة الادارة المصرية تنتقل من مكان الى آخر ويجري البحث عن مكان مناسب كان السودان نفسه يسير نحو تكوينه المندمج ليتخذ شكله السياسي والاقتصادي الحالي •

لقد كانت منطقة دارفور سلطنة منفصلة وقد سبق قيام سلطنة الفور قيام سلطنة الفونج • ولم يكن الفور اول من اسسوا الدولة في هذه المنطقة ، فقد سبقهم الى ذلك الداجو ثم التنجر الذين وضعوا قانون دالي المشهور والذي يعد المحاولة الوحيدة في السودان لتسجيل القوانين العرفية وتنقيحها • وفيما يقول المؤرخون فإن سلطنة الفور قد قامت على انقاض سلطنة التنجر في سنة ١٦٤٠ م • وقد استمرت حتى وضع الزبير باشا نهايتها في سنة ١٨٧٥ م وضم اراضيها الى البلاد التابعة للإدارة المصرية • اما كردفان فكانت تقليديا تابعة لدارفور ، وكان يحكمها الكنجارة وهم بنو عمومة سلاطين الفور ، بشيء من التبعية ، تزيد او تنقص حسب الظروف لسلطان دارفور • ونحن نعلم ان جيوش سنار قد غزت كردفان واحتلتها بعد وقائع كادت الدائرة فيها ان تدور على الفونج ويبدو ان احتلال الفونج لم يستمر طويلا ، فقد قاد الوزير محمد ابو لكيك وقائد جيش الفونج قواته وذهب بها الى سنار ليقصي السلطان بادي بن نول ويستولي على السلطة وقد انشغلت دولة الفونج بعد ذلك بالحروب الداخلية والفتن ولم تهدأ فيها الاحوال ليجدد الفونج نشاطهم في كردفان • وقد بقيت كردفان تحت حكم الكنجارة التابعين لسيادة دارفور حتى غزت قوات الدفتردار الاقليم وأخضعته لحكم الترك ، وكان الاقليم كما اسلفنا مستقلا بإدارته تحت الدفتردار ثم صار في ادارة موحدة مع سنار واطاليم النيل بعد مقتل اسماعيل • ولما جاء عثمان بك صار حاكما على كردفان وسنار وملحقاتها •



وفي عهد محو صارت ادارة كردفان مستقلة ، ثم عاد فادمج في ادارة سنار في سنة ١٨٣٢ م في عهد خورشيد .

وكانت مديرية دنقلا وحدة ادارية منفصلة حتى سنة ١٨٣٣ ، وكان مديرها الى هذا العهد يتصل بالقاهرة مباشرة . وكانت المنطقة الشمالية منها اي منطقة المحس وسكوت وأرض الحجر وحلفا تابعة لمحافظة قنا حتى سنة ١٢٣٧ هـ . ففي هذه السنة اضيف السكوت والمحس الى دنقلا بينما ظلت حلفا وملحقاتها الى حدود السكوت تابعة لقنا . وقد جاء ضم حلفا الى السودان عند قيام المهديّة حيث اعتبرت الحصن الاول ضد غارات المهديّة . وفي نفس الوقت فصل الطرف الجنوبي من محافظة قنا ( ١٢٩٢ هـ ) وسمى مديرية الحدود ثم مديرية اسوان .

وكانت حلفا قرية صغيرة عند الحد الشمالي للشلال الثاني ، وكانت طرق القوافل والسفن تلتقي عندها . ثم اتخذت اهمية خاصة بعد فتح السودان على يد اسماعيل ، اذ اعتبرت المحطة الرئيسية لنقل البضائع وترحيل الموظفين والجنود والحيوانات المصدرة بين أسوان ودنقلا . ولما جاءت المهديّة أقيم فيها معسكر دائم للجيش المصري ولم يتمكن الانصار من اقتحام هذا المعسكر أو ان يحاصروها أو يحتلوا البلاد الواقعة خلفها ، وانما تمكنوا فقط من شن بعض الغارات . وقد تمكن لنجومي من اجتيازها من الطرف الثاني من النهر الا انه وجد نهايته في توشكي . وعلى اي فان حلفا قد اضحت نتيجة لهذه الظروف جزءا من السودان . وصار خط الحدود يسير في شكل لسان حتى فرص بعد ان كان في بلدة صرص .

وقد تمتعت مديرية بربر - وهي تشمل منطقة الرباطاب وبربر وشندي بنفس الاستقلال والتبعية المباشرة لمصر حتى سنة ١٨٢٦ . اما الاقاليم الشرقية والجنوبية فقد استولى عليها المصريون وضموها الى هذه الادارة الجديدة مع مرور الزمن . وبذلك اتخذ السودان شكله السياسي والاقتصادي .

وكانت مدينة الخرطوم القديمة تبعد نحو ميل جنوب النيل وكانت الدواوين ومساكن الموظفين وثكنات الجيش في المكان الذي به محطة السكة

الحديد الآن وكان الحي الاهلي الى الشمال منها وهو ما يعرف بحي سلامة  
الباشا .

وفي عهد خورشيد دخلت المدينة طورا جديدا وذلك بأن اتجهت في  
اتساعها نحو الشمال ، وقد شمل ذلك انشاء حي المسجد . وفي عهد عبد  
اللطيف اتسعت المدينة نحو الشمال الشرقي وقام حي الحكمدارية .

وفي عهد جعفر صادق حلت كارثة كبرى بالمدينة ( سنة ١٨٦٦ ) من  
جاء الامطار والسيول وانهار عدد كبير من المنازل مما دعى والي مصر الى  
التفكير في بناء العاصمة في جزيرة توتي بدلا من الخرطوم . وقد جاء في  
ملخص خطاب الى الحكمدار بالسودان قوله « بوصول افادته بتاريخ ٢٦  
ربيع أول سنة ١٢٨٣ المتضمن نزول الامطار الغزيرة في ليلة الثلاثاء الموافق  
٢٥ ربيع اول سنة ١٢٨٣ وأحدث ضررا بناحية الخرطوم ولكن بسبب انها  
عمت جميع انحاء السودان فالمأمول باذن الله زيادة المحصولات ... وصل  
مسامعه الكريمة بأن موقع بلدة الخرطوم منحة ورطبة من جهة ومن جهة  
اخرى فإن مساكنها مبنية بالطوب الاخضر بعضها والبعض الاخر من القش  
ولذلك يرى نقلها من موقعها الحالي الى الجزيرة التي امامها تدريجيا كلما  
سنحت لذلك الفرصة » . هذا هو ملخص الخطاب كما دونه أحد موظفي  
دار الوثائق المصرية ، اما الخطاب الاصلي فلم نعر عليه . وقد فضل جعفر  
باشا المضي في عمران الخرطوم . ثم زاد اسماعيل ايوب في المباني الحكومية ،  
وكان مما شيده معمل الورق ومعمل البارود .

ولقد ابلغ اقصى امتداد الخرطوم في اواخر العهد التركي المنطقة  
الواقعة ما بين حديقة الحيوان الحالية وما بين مباني وزارة الصحة تقريبا .  
فكان ما يلي ذلك من الغرب عبارة عن حدائق وبساتين ، وما يليها الى  
المقرن منطقة يغمرها الفيضان . ومن هذه المنطقة كان يبدأ الشارع الذي  
يسير على محاذاة النيل ، وكان ينتهي في الطرف الآخر من المدينة . وكان  
يبدأ منه شارع آخر ينتهي بالسوق . وقد شيد الاتراك مصالح الحكومة  
بالقرب من النيل ، والى الجنوب من ذلك قام حي المسجد والذي كان  
ارقى احياء المدينة وكانت الاحياء الشعبية تقع في الاطراف .

وقد واجه الاتراك المصاعب والأهوال من فيضان النيل الابيض

الذي كان يغطي مناطق شاسعة ويترك وراءه البرك والمستنقعات ، وقد ساعد ذلك في انتشار الأوبئة الفتاكة ، وكانت الامطار والسيول تهدم ما يشيده الانسان . وكانت الامراض الفتاكة كحمى ام سبعة والهواء الاصفر ( الكوليرا ) تنتشر من وقت لآخر وتفتك بالناس فتكا .

ومن طريف ما يذكر ان خورشيد باشا قد شيد قصرا في شندي ليقضي فيه فترة الصيف المخيفة ، وكان موسى حمدي باشا يقضي الصيف في اسوان . وقد اعتمد خورشيد في اول الامر على الطوب الذي جلبه من خرائب سوبا ، ويقال انه عهد بذلك الى عبد السلام زعيم المغاربة والذي كان مرابطا بقومه في موضع حلة كوكو بالخرطوم بحري . ثم انشأ الاتراك كمائن الطوب الاحمر في بري والجريف ، اما الحجر الذي استعمل في بناء بعض القصور فقد جلب من غرب ام درمان .

وكان انعدام الحرفيين من بنائين ونجارين وغيرهم من اعقد المشاكل ولذلك احضروهم من مصر ، واعدوا بلوكات من الجيش لتقوم بهذا العمل . وكان بالخرطوم موظف عمله مناظرة مشاكل البناء والاشراف على المباني وهو ناظر العمارات الميرية . وكانت الظروف الطبيعية كالسيول والفيضانات والامطار تعقد الامور بينما لا توجد مواد البناء بشكل كاف . يقول الحكمدار في خطاب الى المعية السنية بتاريخ ٤ محرم سنة ١٢٨٧ ، مستعرضا مشاكل العمران وذاكرا له الخطة التي بدا تنفيذها منذ ثلاث سنوات :

» ... السودان لاستغراق ايرادها في المصاريف لم كان جاري بها عمارات ميرية وطوابي ومساكن عسكرية حتى من الجملة لم يوجد بها اشوان وقشلاق وجبه خانات ودواوين واستباليات الاشياء قليل مبني بالطين والطوب الاخضر . وفي كل سنة يهد من الامطار ويصير تجديده سنوي بمصاريف زائدة ومشقة بدون فائدة كون ان جهات السودان لغاية حضوره بها لم كانوا يعرفون الطوب الاحمر ولا الجير ولا كان يوجد بها بنايين وحجارة ونجارين وفعلة وحدادين . ولما اتضح له ان احداث المباني

بالحجر والطوب الأحمر والجير هو أوفر وأرجح للميري وأنه لشرف الحكومة في ابقى اثار العمارة في زمن الحضرة الخديوية فذلك رتب بلوكات عمارة من العساكر السودانيين المتقدمين في السن بالخرطوم والتاكة وكردفان وسواكن ومصوع واعرض كيفية ذلك شفاهي وتحريري للحضرة الخديوية وصار اسعافي بارسال حجارة ولغمجية وبنائين ونجارين وحدادين وبواسطتهم قد صار تعليم جملة اشخاص من العبيد واهالي السودان . وانه لما كان بالمحروسة وطلب منه تقديم ميزانية الصرف ( اتضح ان هناك وفر كثير ) لانه اذا شرع في بناء لا يصرف الا اجرة البنائين والحجارة والجيار والنجارين . واما ضرب الطوب وقطع الحجر ونقل الاخشاب فهو بمعرفة عساكر بلوكات العمارة ونقله لمحل العمل هو بمراكب الميري وجمال وحمير الميري واغلب الفعلاهم من المحاييس المذنين وكلما صرف بهذا الوجه تخصص بالابعادية على كل عمارة حتى صار احداث مباني وعمارات وارصفة ومحطات للتلغراف ومساجد ومكاتب ودواوين وكمارك واستحكامات وشون ومخازن باغلب مراكز المديرية خصوصا سواكن ومصوع . . . »

وغني عن البيان ان الخطاب يعالج شأن العمران بصفة عامة ، وان كثيرا مما ذكر لا ينطبق على حالة الخرطوم بالذات ولكن مشاكل العمران العامة ينبغي ان تفهم حتى تتضح صورة عمران الخرطوم بشكلها الطبيعي .

ويبدو أن الحكومة كانت تشجع الموظفين والضباط لبناء مساكنهم فقد جاء تعليق الخديوي على عريضة احد الضباط ما يلي : اذا كان المذكور حفر بير وغرس أشجار مختلفة ونخيل ويلزم جهدا لتقدم العمران فإن من اللازم مساعدته وامثاله بما يتناسب .

وعن مدينة الخرطوم وعمارتها وجملة من شئونها يصدر الخديوي أمرا الى الحكمدار ، يشير فيه الى ان التصورات المعقولة التي ابداهها الحكمدار « في ادخال اصلاحات جديدة على الأبنية الاميرية في بندر الخرطوم هي في محلها وانها تستحق الاستحسان والتقدير . بيد انه

روى من المناسب ان يقام ديوان مديرية الخرطوم وديوان الحكمادارية  
 ودار المحكمة في سمت واحد وان يرتب لبنادر الخرطوم والاقاليم  
 السودانية كدنفلة وبربر وكردفان وكسلا وسواكن ومصوع مأمور  
 وضبطية وقواصون على نحو ما هو جار في اقاليم هنا . وان ينشأ محل  
 خاص لديوان الضبطية قريبا من ديوان الحكمادارية وان يختار محل  
 المستشفى في مكان معروض للهواء واسع الجوانب وان تكون له حديقة  
 كبيرة وان يكون في البندر قشلاق كذلك في مكان بعيد مع الاهتمام  
 بتنظيم الشوارع وتوسيعها على قدر الامكان ورعاية اصول الصحة  
 والهندسية في بناء المحلات المنشأة وتصريف المياه التي تتجمع من السيول  
 المعتادة صونا للمدينة من الغوائل للبحر . ولما كان ترتيب الضبطية  
 ومأموريها على النحو الآنف ذكره سترتب عليه ان يناظر حفظ الامن  
 العام والمنازعات والمخاصمات بهؤلاء المأمورين فيجب اختيار الموظفين  
 من رجال العمل المتحلين بصفات الاستقامة لتعتمد عليهم العامة وكذلك يجب  
 اختيار القواصين من عساكر الباشبوزق ( غير النظامية ) المهذبن لا من  
 غواة الهدام والجرأة والسفه والتهتك . وبما انه سترسل ٤٠٠ كسوة  
 للباس هؤلاء فيجب اعطاء كل واحد كسوتين وتعيين بلوكباشي على  
 رأس كل تسعة منهم وعلى رأس كل ٥٠ نفر ملاحظ ( قفوش اغاسي )  
 وان يعطي نفر ماهية قدرها ٢٠٠ قرش والبلوكباشي ٢٥٠ قرش  
 والقفوش اغاسي ٣٥٠ قرش على الا يزيد عددهم على ما يتي نفرا الآن .  
 ثم يوزعون على البنادر بحسب اهميتها ما عدا سواكن ومصوع اللتين  
 سيرسل اليهما من هنا . ولما كانت الحكومة تعتنى بوضع لائحة لمأموري  
 ضبطية الاقاليم فسنرسل لكم صورة عنها عند استكمالها . فعليكم  
 تصريف الشئون الآن وفق درايتكم حتى نرسل اليكم اللائحة . أما ما  
 يعطي للاهالي والاجانب من الطوب والحجر والجير والبلاط والخشب  
 من أجل العمارات فيجب ألا تضاف اليه ارباح ترغيبا للاهالي في  
 العمران . ولما كان من مقتضيات رغبتنا توطيد الامن والسكينة في البلاد  
 وتحسين حالة العباد وترك اثر بارز في اصلاح السودان فإن كل جهد  
 تبذلونه في استكمال ذلك يوجب ارتياحي . فشمروا عن ساعد الجد

وابذلوا في سبيل الاصلاح الذي أشرتم اليه في خطابكم كل جهد.

### وصف الخرطوم :

كانت المدينة مقسمة الى احياء ، وكان كل حي يسمى قسما واليك  
وصفا لأهم احياء المدينة •

### حي الحكمدارية :

كان حي الحكمدارية أهم احياء الخرطوم وقد تجمعت فيه دواوين  
الحكومة ومصالحها وبيوت كبار الموظفين وثكنات الجيش والمرافق التابعة  
له • وكان هذا الحي يمتد من المكان الذي به الآن مصلحة المراجعة  
الى المكان الذي به جامعة الخرطوم ، وهو المكان الذي تتركز فيه  
السلطة الآن • وكان أهم مباني الحي هو قصر الحكمدارية ، وهو المقر  
الرسمي للحكمدار ، وكان موضعه في المكان الذي به وزارة المالية  
والاقتصاد والميدان الذي على شماله • وقد شيد هذا القصر في عهد  
أحمد ممتاز باشا ، واستجلب لبنائه الحجر الابيض المنحوت من غرب  
ام درمان • وكان المدخل الرئيسي للقصر وهو الذي يدخل منه العموم  
بالناحية الجنوبية • أما المدخل الخصوصي الذي يدخل منه الحكمدار  
فكان بالشرق وكان المدخل الرئيسي يتكون من ثلاثة أبواب وأمام كل  
باب دكتان طويلتان إحداهما بالناحية الشرقية والاخرى بالغربية ، ويجلس  
على هذه الدكك القواصة الاتراك سراويلهم المقصبة وارديتهم القصيرة  
وسيوفهم الكبيرة • وبشرق هذا المدخل رواق مستطيل فيه غرف من  
الجانبين وله باب شرقي يوصل بين القصر والسراي وهو باب الحكمدار •  
وكان في غرب هذا الرواق مكاتب القلمين التركي والافرنجي ومكتبة  
القصر •

والى الشرق من قصر الحكمدارية كان السراي وهو القصر الذي  
أعد لسكنى الحكمدار وعائلته • وقد شيد هذا القصر خورشيد باشا ثم  
جدد بناءه عبداللطيف • وقد بني القصر بالحجر الابيض المنحوت الذي  
استجلب من ام درمان • وكانت تحيط به من الشرق والغرب والجنوب

حديقة واسعة • أما البناء نفسه فكان مطلا على شارع النيل • وقد ظل هذا القصر مسكنا للحكمداريين حتى شغل غردون في سنة ١٨٨٤ اي في أثناء الحصار بعض اجزائه بالدواوين ، وقد جعل في الدور الارضي مصلحة المالية وجعل طرفا من الدور الاعلى مكاتب له ولمعاونيه بينما اكتفى هو بجناح لسكناه • وقد قتل غردون على يد انصار المهدي في هذا الجناح ، واسدل بذلك الستار على الحكم التركي الذي استمر اكثر من ستين عاما • ان هذا القصر هو قصر الذكريات ، فقد اقام فيه الحكام الاتراك الى أن لقي آخرهم مصيره على يد الانصار • ولما دارت الدائرة على الانصار وعاد الامر للفرقة اتجه كتشنر لتوه الى هذه البقعة ليرفع على انقاض القصر العلمين المصري والبريطاني ويقيم صلاة جنازية على روح غردون • وبعد فترة وجيزة شيد على نفس الاساس القديم القصر الحالي واقام فيه حكام عام السودان ، وكانوا هذه المرة من البريطانيين ، وقد ظلت الايام تدور والعلمان يرفرفان فوق القصر رمزا للحكم الاجنبي المشترك حتى جاء اليوم المعلوم وانزل العلمان في حشد كبير وحل مكانهما علم السودان المستقل • وقد غير هذا العلم نفسه في احتفال رسمي في مايو ١٩٧٠ ، وقد اضحى القصر اليوم مقر رأس الدولة وصار يعرف بالقصر الجمهوري بعد ان كان سراي الحاكم العام •

والى الشرق من السراي كانت الشونة ، وهي مخزن للغلال وكان موضعها في المكان الذي به وزارة الاشغال الآن • وكان يعمل بهذه الشونة أحمد بن الحاج أبو علي المشهور بكاتب الشونة والذي وضع المخطوط المنسوب اليه في تاريخ سلطنة الفونج واولئ العهد التركي ، وهو مخطوط قيم ، ويعد الاثر السوداني الوحيد في موضوعه • ولهذا المخطوط نسخ خطية كثيرة ونسختان محقتان مطبوعتان ، حقق احدهما البروفسير مكي شيكدة واخرهما الاستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل • وقد روى كاتب الشونة الشيء الكثير عن مدينة الخرطوم ، وهو مصدر أساسي في هذا الموضوع • وتجاور الشونة من الشرق الترسانة ، وكانت هذه من أهم مصالح الحكومة ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لاهتمام

الاتراك بالنقل النهري بين مصر والسودان ولاعتمادهم على المواصلات النهرية في توسعهم نحو اواسط افريقيا ، وقد تم لهم بالفعل فتح بلاد شاسعة امتدت حتى يوغندا • وبخلاف ترسانة الخرطوم اقام الاتراك مراكز لبناء السفن من خشب السنط في الكاملين وبربر وود شلعي وسنار ودنقلا • وقد استجلبوا لذلك العمال المهرة من مصر وأدخلوا طرازا جديدا من المراكب لم يكن للاهالي به عهد ، وبفضل اهتمامهم بالنقل النهري ونمو التجارة النهرية اتسعت صناعة المراكب وعادت لاهلها بالربح الوفير ، فوفد الصناع الى اواسط السودان حيث يكثُر السنط ويشتهد الاقبال على المراكب : وكان من هؤلاء عبدالله بن فحل والد الامام المهدي •

وكانت الترسانة في أول امرها بغرب المدينة في الموضع الذي به الآن طلبية مياه المدينة بغرب متحف الخرطوم • وقد أمر الوالي بنقلها الى مكان مرتفع تفاديا لمياه الفيضان فنقل الجزء الخاص بالسفن الى الشرق في الموضع الذي يبناه ، بينما ابقى على الجزء الخاص بصناعة المراكب الشراعية في الموضع القديم ، وهو الذي عرف بالمنجرة • وكان به أيضا طرف اهلي تصنع فيه مراكب الاهالي • وحتى بعد ان نقل ذلك الجانب من الترسانة ظل معظم عمال الترسانة ، واغلبهم من السود يسكنون بها حتى جاءت المهديّة • والى وقت قريب كان هذا الموضع عامرا بسكانه وقد رحلوا بعد الاستقلال الى أماكن اخرى بعد ان اعطوا أراضي البناء والتعويضات اللازمة •

وكان بالترسانة ١٢ سفينة بخارية كبيرة وعدد من الصنادل الصغيرة وعدد كبير من السفن الشراعية • وكانت كلها مملوكة للحكومة لتؤدي أعمالها ، كما أنها كانت تؤجر للتجار وكل من أراد • وكان اغلب السفن والمراكب التي استعملها الاجانب في التجارة بأعالي النيل مؤجرة من الحكومة • وقد انشئت في هذه الترسانة البواخر : محمد علي ، ونيانزا ، وشبين ، والتوفيقية ، والحسينية ، والفاشر ، والزبير • وقد احصى قرانت البواخر والسفن التابعة للترسانة فعد ٤٥ سفينة وذهبية تحت



البناء وعشر سفن جاهزة للإيجار ، ومائتين تعمل على النيل الأبيض •  
وكان للترساة ناظر كما كان بها مهندس ميكانيكي نمساوي الاصل  
( ١٢٨٨ هـ ) وعدد كبير من التجارين والحدادين وغيرهم من العمال •  
ولقد لعبت البواخر دورا خطيرا أثناء حصار الخرطوم ، وكان من  
المقدر الا تقاوم المدينة كل هذه المقاومة لولا هذه البواخر التي كانت  
ترسل حممها على الانصار وهي في وسط النهر ولا سبيل الى الوصول  
اليها • ولما سقطت المدينة استولى الانصار على ما بقي من هذه البواخر  
وأضافوها الى بيت المال • وبدار الوثائق المركزية بعض وثائق هذه  
الترساة في عهدا التركي وعهدا المهدي ، وهي تفيدنا بعلومات كثيرة  
عن السفن وتلقى اضواء كثيفة على دور النقل النهري في العهدين التركي  
والمهدي •

وعلى ما نحسب كانت المطبعة الاميرية ملحقة بالترساة او على الاقل  
لم يكن موضعها بعيدا عنها • وكانت ادارة المطبعة تتكون من المطبعة  
ومخزن كبير للورق وورشة لتجليد الكتب والدفاتر • وقد طبع الاتراك  
في هذه المطبعة دفاتر الحسابات وأوراق الدفعة وكل مستلزمات الحكومة  
من المطبوعات ، ولما اشتد حصار الخرطوم وشح النقد في المدينة طبع  
غردون بوناته المشهورة والتي بلغت قيمتها ستين الف جنيه ، وكانت  
البونات عبارة عن سندات حكومية تعهد غردون بدفع قيمتها نقدا من  
خزينة الخرطوم أو مصر بعد ستة اشهر من تاريخ اصدارها •  
ولقد كانت بونات غردون أول نقد ورقي عرفه السودانيون •

وكان ما طبع في هذه المطبعة الرسائل التي ألفها علماء الخرطوم  
في الهجوم على المهدي وانكار مهادته ، وقد تم طبعها في سنة ١٢٩٩ هـ  
ومنها كتاب هدى المستهدي الى بيان المهدي والمتهمدي للشيخ الأمين بن  
محمد رئيس ومميز علماء السودان ، ورسالة الغزي وحتيك ومن معهما •  
وتوجد النسخة الوحيدة من هدى المستهدي في الخزنة التيمورية بدار  
الكتب المصرية وعدة نسخ من الرسالة الثانية بدار الوثائق المصرية ولا  
توجد نسخ لها في غير هذا الموضع •

وكان شرقي الترسانة بعض ثكنات الجيش ومصنع حربي لصناعة الذخيرة وملابس الجيش والاحذية ثم مستشفى الخرطوم . وقد بدأ انشاء هذا المستشفى في عهد ممتاز باشا وبلغ كماله في عهد اسماعيل ايوب ، وكان يسع ٢٧٠ سريرا . وقد وصف احد السواح الذين زاروا هذا المستشفى بعد افتتاحه بسنوات وصفه بالرداءة والقذارة بينما وصفه الدكتور فلكن الذي زاره بعد هذا السائح بقليل بأنه مستشفى فسيح وممتاز . ومما يذكر ان الاتراك بنوا مستشفى في كل عاصمة من عواصم المديرية ما عدا فاشودة .

والى الجنوب من قصر الحكمدارية كانت مباني المديرية ومصلحة البوستة ومصلحة المالية وميدان فسيح تقام فيه الحفلات الرسمية . وكان يحيط بها كلها سور كبير . وكانت مباني المديرية اقل ارتفاعا من مباني الحكمدارية ، وقد شيدت مبانيها في عهد خورشيد باشا وكان بجنوبها دهليز مستطيل وبوابة جنوية مزخرفة ، وتوصل بين الدهليز والبوابة فرندة ذات اعمدة شاهقة يجلس عليها اصحاب المطالب والمصالح من الاهالي . وكان على جانبي الدهليز غرف يسكنها البلك المكلف بحراسة هذه المصالح . وكان في الطرف الشمالي الغربي من هذا المربع مصلحة البوستة والمالية ، وقد نقلت الاخيرة الى السراي في عهد غردون كما اسلفنا . والى الجنوب من هذا المربع كانت مباني مصلحة الصحة وكان موضعها في المكان الذي به مصلحة المراجعة الآن .

### حي المسجد :

والى الغرب من حي الحكمدارية كان حي المسجد وهو اهم الاحياء السكنية . وقد نشأ هذا الحي حول المسجد الذي بناه خورشيد باشا ثم وسعه كما سبق القول في المقال السابق . ويخيل لنا ان هذا المسجد لم يكن بعيدا عن البقعة التي كانت بها حلة الخرطوم القديمة . وكان اهم معالم هذا الحي المسجد المذكور . وهو المسجد الذي صلى فيه الامام المهدي في اول زيارة له لمدينة الخرطوم بعد سقوطها في يده ، ثم السوق ، وكان مقسما الى قسمين ، السوق العربي والسوق الافرنجي،

وكان كل منهما يتكون من أربعة شوارع ، وقد امتدت يد الاصلاح اليه في عهد اسماعيل أيوب ووسعت شوارعه . وكانت بيوت الاهالي في هذا الحي مبنية الى عهد خورشيد باشا بالطين والشكاب وجلود البقر والقش ، ولم يكن بها منازل بالطوب الأحمر الا العدد القليل . وقد شجع خورشيد الاهالي على التعمير وظل يمدهم بالاشباب والالواح فحات المباني الراقية مكان بيوت الشكاب والقطايط والزرائب . ومع مضي السنين صارت هذه البقعة مسكن عليا القوم وسراتهم ، فاقامت فيها القصور وسكنها كبار التجار والاعيان والاجانب بينما تراجع الفقراء الى اطراف المدينة . وكان من هذه القصور قصر علي الخلوصي وكان مقاما في المكان الذي به قصر السيد علي الميرغني الآن ، وقصر الخواجة جورج تشيادي الذي كان مشيدا في المكان الذي بين سراي السيد علي واستراحة الري المصري ، وقد شغل صاحبه الدور الأرضي بحانوت مستطيل مملوء بأصناف المشروبات الاوربية وبار وقهوة على الطراز الافرنجي ، وكان في هذا الحي بعض القنصليات الاجنبية ، وكانت القنصلية المجرية على الشارع المطل على النيل بينما كانت القنصلية الايطالية شرق المسجد وكان من القصور المهمة قصر الجاركوك ، وقد خصص هذا القصر لسكني الامام المهدي بعد سقوط المدينة . وقد كان المهدي يحل به للراحة عندما يقوم بزيارة المدينة ولم يتخذ مسكنا دائما لأنه ظل معسكرا في الجانب الغربي من النيل الابيض حتى شرع في بناء معسكر الهجرة والذي تطور الى مدينة ام درمان .

وفي الموضع الذي به المجلس البلدي الآن شيد المبشرون الكاثوليك مبنى الارسالية الرومانية الكاثوليكية ، وقد كان ذلك أول بناء حجري عرفته المدينة ، وقد الحقوا به مدرسة لتعليم الصبيان وحديقة واسعة امدت الارسالية بمطالبها . وقد كانت الارسالية تشغل المنطقة التي تشغلها الآن بلدية الخرطوم ومكاتب الري المصري ومنزل مفتش الري المصري ومصلحة النائب العام . وقد جلب المبشرون طلبة بخارية للري ، واستخدموا ايطاليا يدعى دومنيكو ليشرف على المزرعة وقد بقى دومنيكو يقوم بهذه المهمة بحماس حتى توفي بعد سقوط المدينة في يد الانصار

بزمان • والى الشمال الغربي من هذا الحي كانت كنيسة الاقباط ، وقد اقيمت الكنيسة الحالية في موضع الكنيسة القديمة •

وكان بالموضع الذي يسمى الآن المحطة الوسطى ارسالية بروسيا البروتستنتية التي أقامت معبداً وداراً ومدرسة •

### الاحياء الشعبية :

وكانت هناك أحياء أخرى أقل أهمية من الاحياء السالفة وهي الاحياء الشعبية التي يسكنها عامة القوم ممن هم دون كبار الموظفين وسراة المدينة • وقد قامت هذه الاحياء في أطراف المدينة وكان جل سكانها من المواطنين • من هذه الاحياء حي سلامة الباشا ، وكان موضعه في الجنوب الغربي من المدينة ومكانه الآن جنوب السوق العربي • وكان سكانه من الدناقلة والنوبة وغيرهم من أهل البلد • ويعتبر هذا الحي أقدم أحياء المدينة ، ثم حي النوبة ونقصد بهم الوافدين من جبال النوبة وهم بخلاف الوافدين من حلفا ، وكان هذا الحي يقع الى الشرق من حي سلامة الباشا وكان سكانه في الغالب من النوبة والعناصر السوداء المتقاعدين عن خدمة الجيش • • وكان هناك حي يسمى « هبوب ضرباني » وهو أفقر أحياء المدينة ، كما يبدو من اسمه وكان يسكنه الفقراء • وفي المنطقة الواقعة غربي شارع الحرية الحالي كان حي الترس ، وقد أخذ اسمه من الجسر الذي اقيم جنوبيه لحماية المدينة من فيضان النيل الابيض وكان سكان هذا الحي من المصريين والسودانيين • وكان هناك حي الكاره وهو حي يسكن فيه العسكر المصريون والسودانيون ، وحي الطوبجية ، وكان يسكنه الطوبجية • وفي أقصى الشرق كان حي بري المحس وهو حي الوطنيين من أهل الجهة ، وقد ظل هذا الحي في مكانه الى أن نقل الى موضعه الحالي بالبراري في سنة ١٩٠٠ وقيمت في مكانه ثكنات الجيش البريطاني •

### ادارة المدينة :

وقد أنشأ الاتراك في الخرطوم محكمة شرعية عليا كان من اختصاصها النظر في القضايا الجنائية والمدنية بجانب القضايا الشرعية • وكان أول

من تولى القضاء الشيخ أحمد السلاوي الذي وفد مع الجيش الفاتح ، وقد رأيت تأشيرة له على بعض سندات الاراضي وصف فيها نفسه ومحكمته بقوله : بالمحكمة الشرعية المطهرة المرضية بخرطوم جزيرة سنار المحمية لدى متوليها السيد أحمد افندي السلاوي قاضي بلاد السودان . وكان دون هذه المحكمة محكمة مأمور ضابطية الخرطوم التي كانت تنظر في القضايا الصغيرة . ثم انشئت المجالس المحلية في السودان على غرار المجالس في مصر للنظر في القضايا الجنائية والمدنية الكبرى . وكان من نصيب الخرطوم مجلس محلي . ثم أسس في الخرطوم مجلس للاستئناف ، تستأنف فيه جميع الاحكام الصادرة من المجالس المحلية وكان يجوز استئناف احكام هذا المجلس عند مجلس الاحكام بمصر . أما الادارة المحلية فكانت في يد ناظر قسم الخرطوم ، وهو يوازي المركز في نظام الحكم الثنائي الذي تعدل مؤخرا . وكان قسم الخرطوم يمتد جنوبا على النيل الازرق الى مسافة بعيدة . وكان أول النظار تركيا يدعى بكر بك ثم خلفه سودانيون ، وكان اغلب هؤلاء من قبيلة الشنابلة والمحس . اما المديرية فكانت تتكون من عدة أقسام كما هو العهد بمحافضة الخرطوم سابقا .

### التعليم :

كان السودانيون يعتبرون التعليم مهمة انسانية يقوم بها من له القدرة والكفاءة بعون ذوي الاريحية مقابل حسن الجزاء في الآخرة . وقد قامت مدارسهم المنبثة في القرى والتي عرفت بالخلاوي على هذا الاساس . ولم تكن لهذه المدارس برامج ولا رابطة تجمع بينها ، وكانت شهرة الخلوة تقوم على شخص الاستاذ ومبلغ علمه وما عسى أن يكون لاجداده من الشهرة والصيت . ولقد سبق القول ان قرية الخرطوم قد قامت حول احدي هذه الخلاوي . ولما جاء العصر التركي وتحولت القرية الى مدينة عامرة لم يغير ذلك من نظر الوطنيين الى التعليم كثيرا ، فارتاد ابناءؤهم الخلاوي التقليدية واستنكفوا عن مدارس الحكومة ومدرسة الارسالية لما كانوا يرون فيها من الخطر على ابنائهم . وقد اهتم المصريون بهذا النوع من التعليم ، وأعطوا الخلاوي

المهمة مساعدات مالية نقدا ونوعا ، أي جارية • وكان من الخلاوي التي تحصل على هذه الاعانة خلوة الغبش المشهورة التي تتلمذ فيها المهدي لفترة ، وقد رفض المهدي ان يأكل طعام الخلوة لاعتباره اياه من جارية الحكومة ، لما انها حرام عليه في اعتقاده ، ذلك لان بعض المتدينين كانوا يسيئون الظن بالحكومة ويرون انها تجمع أموال المسلمين بغير وجه شرعي • وقد رأيت خطابا في دار الوثائق القومية العربية يعد شاهدا على نمط الاعانة • وقد جاء فيه أن خلوة الشيخ أبي صالح بن الشيخ أحمد الطيب كان بها ٥٤ طالبا من الفقراء وقد خصص لها ٢٥٠ قرشا شهريا ، منها ١٠٠ للخلوة و ١٥٠ للشيخ نفسه بالاضافة الى أربعة ارادب وسدس من الذرة •

وخلوة الشيخ الامين محمد خوجلى كان بها ١٥٣ من الفقراء ، وخلوة الشيخ محمد عبدالله خوجلى بالغبش ٥٧ فقيرا ، وذكر ان الاوائل يحفظون القرآن ، وأن الأواخر يدرسون العلم الشريف • وقد خصص لخلوة الشيخ الامين ٤٠٠ قرش ومن الذرة ستة ارادب • أما لخلوة الغبش فقد خصص ٢٥٠ قرشا وأربعة ارادب ذرة • وكان المصريون يجعلون في كل مسجد من مساجد المدن مدرسة لتعليم الدين يرتادها الكبار والصغار • ففي دنقلا انشأوا في سنة ١٢٦٣ هـ مسجدا ومدرسة والحقوا بها ١٦ دكانا ليصرف ريعها على المؤسسة الدينية •

وكان أول مسجد ادخل فيه نظام التعليم مسجد الخرطوم ، وقد أمر بذلك سعيد باشا عند زيارته للخرطوم ثم أصبح الامر بعد ذلك سنة يحافظ عليها في كل مسجد كبير • يقول خطاب عن هذا المسجد : « اجبتم بأن موكب جناب الخديو لما كان في السودان انشيء بموجب ارادة سنية مسجد لتعليم من له رغبة بتعلم العلم الشريف وخصص له من جانب الحكومة مائة وخمسون قرشا ولكن بالنظر لوجود الفقراء في المسجد المذكور بكثرة ترون انه اذا أضيف على ذلك المرتب القديم مائة قرش أيضا حتى يكون المجموع مائتين وخمسين قرشا مع ترتيب ثلاثين أردب من الذرة في السنة يمكن ادارة أمور ذلك المسجد بمن فيه » • وقد طلب الخطاب الموافقة بعدد الفقراء ومقدار حصة كل منهم

وقد جاء الرد بأن الفقراء يبلغون ٨١ وان المرتب مائة وخمسون قرشا وان ذلك كله مقيد من قديم باسم الشيخ ابراهيم ، وهو شيخ هذه المدرسة .

ويقول الخديو في خطاب عن مدارس المساجد بعد أن يشير الى القرار بتعيين الاساتذة المرتبين لأجل نشر العلوم والمعارف : « بعد انشاء الجوامع في مثل هذه الجهات والنواحي التي دخلت تحت ادارة الحكومة وتبعيتها وبعد انشاء مدرسة واسعة في جانب كل جامع من الجوامع المذكورة لأجل نشر العلوم والمعارف يلزم انتخاب الذين سيكونون اساتذة لهذه المدارس من أصحاب الاهلية والكفاية . وحيث ان رؤساءهم بالطبع سيكونون من زمرة العلماء فالأصوب ان يكون تلقيبهم بعنوان رئيس الاساتذة أو بعنوان آخر بدلا من أن يكون بعنوان شيخ » وفي خطاب آخر يقول : « ان المدرسين الذين يعينون لنشر العلوم في المدارس الواسعة التي تستحدث في نواحي وجهات تدخل تحت ادارة الحكومة في جنب جوامع تنشأ فيها يلزم أن يكونوا من أهل الكفاءة والاهلية . ومن الضروري انتخاب هؤلاء المدرسين من قبل العلماء فينبغي تسمية من يقوم بانتخابهم باسم مميز للمدرسين أو رئيس المدرسين بدل تعبير الشياخة » .

وبالاضافة الى ذلك اهتم المصريون بارسال الطلبة السودانين الى مصر ليلتحقوا بالازهر الشريف أو المعاهد المختلفة . وفي سنة ١٢٦٣ انشيء الرواق السنارى لينزل به طلبة السودان الذين يدرسون بالازهر . وقد فكر المصريون في تدريب السودانين ليحلوا محل المهندسين المصريين الذين يقومون بتركيب مصانع الحليج ومكابس القطن والاشراف عليها ، وفي ذلك يقول خطاب بدار الوثائق القومية : « بخصوص وفيات المهندسين الذين يحضرون من مصر لتركيب دواليب الحلاجة والمكابس يقترح فرز مائة شاب من الاهالي ان كانوا من تلاميذ مدرسة الخرطوم أو من أولاد العساكر وخلافهم ويرسلوا المحروسة لتعليمهم في مدارس العمليات الميكانيكية والزراعية » . وجاء في خطاب آخر ما يلي : « افادتكم المؤرخة في ١٩ شعبان سنة ١٢٨٧ تقترحون فيها انتخاب عشرين تلميذا

يختارون من تلاميذ المدارس هناك وايفادهم الى مصر ليتعلموا فن الطب « اي الطب » والصيدلة وذلك بناء على ندرة الاطباء في بلاد السودان . وقد رفض هذا الطلب لان الاطباء والصيادلة الذين يوكل اليهم الشئون الصحية يجب أن يكونوا حاذقين ومهرة في فنههم ولا يمكن تخريج أطباء اكفاء في مدة وجيزة » .

ولما غضب عباس باشا الاول والي مصر على رفاة رافع الطهطاوي مدير مدرسة الالسن وأحد مشاهير رجال التربية في مصر ، نفاه هو وبعضا من المثقفين الذين شملهم غضبه الى السودان تحت ستار انشاء مدرسة في الخرطوم ، وكان من بين هؤلاء محمد بيومي مدرس الرياضة بالهندسخانة و ابراهيم سليم مهندس مديرية القليوبية سابقا . وعندما بلغت هذه البعثة العظيمة الخرطوم لم تكن الظروف مواتية للمضي قدما بالمدرسة المزعومة . فقد كان رجال البعثة يعلمون انهم مبعدون عن بلادهم اكثر من كونهم رسل علم وحضارة ، وقد أظهروا تبرما واضحا من هذه المهمة . ولم يكن استقبال الحكمدار اسماعيل حقي بخير ، فقد صرف النظر عن المدرسة ووزع معداتها على الجيش وأهمل شأن رفاة وصحبه وقد قيل انهم بقوا في الخرطوم مدة طويلة دون عمل . وبلغ الهوان برفاة مبلغه عندما ندب لاحصاء النخيل . أما الاهالي فقد استقبلوا الخبر بخوف وتوجس . قوم ظنوا ان الهدف من وراء المدرسة هو التجنيد ، وآخرون كانوا يخشون على ابنائهم من الكفر والالحاد لزعمهم ان المدرسة مفسدة اي مفسدة ورجس من عمل الكفار . وقد كان هذا الزعم عالقاً باذهان العامة حتى وقت قريب واخشى أن يكون فينا شيء منه حتى اليوم . على أن الحال قد تغير قليلا عندما تذكرت القاهرة الرسالة المنسية وجاء سليم صائب خلفا لاسماعيل حقي الذي أثر جيشه بطرايش المدرسة ومعداتها . وقد قدر لهذه المدرسة ان تفتح أبوابها في سنة ١٨٥٣ ، وكان قوامها ١٢ مدرسا وضابطا للصحة . أما الطلاب فقد كانوا من أبناء الموظفين وأثرياء المدينة ، أما أبناء العامة فكانوا يذهبون الى الخلاوي . وكان يدرّس في هذه المدرسة القرآن الكريم واللغتان العربية والتركية والرياضة . ولما توفي عباس



باشا وخلفه سعيد باشا في الحكم استدعى هذا الاخير رفاة وزملاءه الى القاهرة ، وكان قد مات منهم بيومي وآخرون وبذلك انتهت قصة هذه البعثة التعليمية التي تأخذ بريقها من شخص رفاة وزملائه اكثر من المهمة ذاتها . وفي سنة ١٨٦٨ استجد الاهتمام بالتعليم وفتح المصريون مدرسة ابتدائية في الخرطوم بينما فتحوا بعد قليل مدرسة مماثلة في بربر واخرى في دنقلا . وقد كان برنامج هذه المدارس على نمط برامج التعليم في مصر . وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات . وقد وظف اغلب خريجوها في الترسانة والتلغراف . وفي سنة ١٨٦٩ ارسل ١٠٠ من خريجها الى القاهرة ولكن يبدو أن رحلتهم لم تكن موفقة لضعف مستواهم بالمقارنة الى مستوى زملائهم في مدارس مصر . وبخلاف هذه المدرسة كانت هناك مدرسة حرية لتعليم الفنون العسكرية .

وقد أسس الآباء الكاثوليك مدرسة ارتادها ابناء الاوربيين وبعض أثرياء المدينة ، كما ارتادها الاطفال السود الذين تبنتهم الكنيسة . وقد كان برنامج هذه المدرسة يشتمل على الموضوعات الفنية والعملية والموضوعات الانسانية . ولم يكن الاقباط اقل اهتماما من غيرهم فقد بنوا مدرسة خاصة بهم وارسلوا اليها ابناءهم .

### سكان المدينة :

كان سكان مدينة الخرطوم خليطا من أجناس كثيرة . ومن الممكن تقسيم هذه الاجناس الى أقسام ثلاثة ، الجالية الشرقية والجالية الغربية ثم الوطنيين ، أما السودانيون فقد كان اغلبهم من مواطني الأقاليم القريبة من المدينة ، وقد وفدت اليها مع مرور الزمن جماعات كبيرة من الجعليين والشايقية والدناقلة وقد تركز أبناء كل قبيلة منهم في حي من الاحياء ، كما يحصل عادة في المدن السودانية . واذا ما نظرنا الى عدد السودانيين بالنسبة الى عدد الاجانب فإن عددهم يبدو صغيرا . وقد قدر أحد الرحالة عددهم في أواخر العهد التركي بخمس السكان اي نحو عشرة آلاف . وكان نصيب السودانيين من ثروة المدينة وخبراتها نصيبا ضعيفا لتفوق الوافدين من الخارج عليهم حضاريا وماديا .

## الجالية الشرقية :

تتكون هذه الجالية من خليط من أبناء الشرق ، وكان أغلبهم من المصريين ثم الشوام . وكان الاخيريون يعملون بالتجارة وكان اغلب المصريين من مديرتي اسنا واسوان ، وقد كان أبناء هاتين المديرتين على علاقات تجارية قوية مع السودانيين منذ أزمان بعيدة ولم تكن كثرتهم الغالبة في المدينة امرا عفويا وانما كانت امتدادا لهذه الظاهرة التاريخية . وكان المصريون يحتكرون أغلب مناصب الدولة الا ان الوظائف الكبيرة كانت شبه مختكرة للاتراك المتمصرين . كما كان العهد بهم في مصر . وكان من ضمن المصريين مجموعة كبيرة من الاقباط ، وقد قدر أحد السواح عددهم في سنة ١٨٤٢ بنحو المائتين بينما قدر قرائت عددهم في سنة ١٨٦٣ بخمسمائة ، وقد شيد الاقباط مدرسة لتعليم أبنائهم وكنيسة لاداء شعائرهم ، وقد بقيت هذه الكنيسة حتى خربها الأتصار بعد أن سقطت المدينة ، وقد سافر آخر آبائهم وهو ابونا حنا ، الى مصر عندما اشتد خطر الانصار على المدينة . وكان أغلب اقباط الخرطوم يعملون بالتجارة وكانت أعمال الحسابات في الدولة شبه مختكرة لهم وهذا مجال يجيده هذا العنصر النشط الدؤوب ، ويقال انهم كانوا يضعون العراقيين أمام غيرهم ليكون هذا العمل لهم وحدهم . وكان هناك العباددة وهم قوم كانت لهم السيطرة على الطريق الصحراوي بين مصر والسودان منذ عهد الفونج نسبة لوضعهم الجغرافي الممتاز . وعندما دخلت جيوش اسماعيل باشا السودان قدم العباددة خدمات جليلة له . فقد رافقه خليفة ود حاج محمد وأخوه داود ، وهما من زعاء إحدى بطون العباددة ومعهما ٧٠٠ من عربان العباددة وثلاثة آلاف جمل وقد كافأهم اسماعيل باشا على ذلك بأن امضى لهم احتكار الطريق كما كانوا وجعل لهم عشر الصادرات مقابل تسهيلات الترحيل وتأمين الطريق . ونتيجة لذلك تزايد نفوذ العباددة وازدادت هجرتهم الى السودان ، ولولا أن علاقات زعماء العباددة مع الحكومة كانت تتوتر من وقت لآخر لكان لهم شأن أكبر . وقد كان مركز ثقل العباددة في بربر أما في الخرطوم فقد كانت فيها مجموعة كبيرة منهم ، بعضهم يقيمون

في المدينة ويعملون بها وبعضهم الآخر يتردد اليها للتجارة او عمليات الترحيل . وقد كانت العلاقات الاجتماعية بين أفراد هذه الجالية وبين الوطنيين حسنة الى درجة بعيدة ، وقد أدت في النهاية الى ظهور طبقة جديدة في السودان نتيجة التزاوج بين العنصرين ، وهي طبقة المولدين التي تتركز في المدن الكبيرة وتقوم بدور بارز في بناء السودان الحديث .

### الجالية الاوربية :

كان اوائل الاوربيين الذين وفدوا الى المدينة يشغلون الوظائف الفنية في الجيش المصري كاطباء ومهندسين ومستوظفين ثم وفد بعد قليل بعض التجار الكبار الذين كانوا يعملون في محيط التجارة المحتركة للحكومة . وفي عهد خورشيد ازداد عدد الفنيين الاوربيين في الجيش المرابط في الخرطوم ، وكان اغلبهم من الفرنسيين والايطاليين . ولما ألغى احتكار الحكومة للتجارة في عهد احمد ابوودان، فتح الباب على مصراعيه امام التجار والمغامرين فوفد عدد كبير من اليونانيين والايطاليين وغيرهم من الاوربيين ، وقد قدر عدد الاجانب في المدينة في اواخر العهد التركي بنحو ٢٤٥ أسرة ، منهم مائة أسرة يونانية و ٤٠ أسرة المانية و ٤٠ أسرة نسوية و ٢٠ أسرة فرنسية وعشرين أسرة روسية و ١٥ أسرة ايطالية و ١٠ اسر من الأرمن . ولم تكن هناك أسر انجليزية . وكان بخلاف هؤلاء المشردون على المدينة للتجارة والسياحة والاكتشافات والتبشير . وكان اغلب الاوربيين يعملون بالتجارة . وكان اليونانيون منهم يحتكرون أعمال البقالة . وتبعاً لتضخم المصالح الاوربية في السودان افتتحت القنصليات في الخرطوم . وكان اقدم هذه القنصليات القنصلية الفرنسية التي افتتحت في سنة ١٨٣٩ ويبدو ان ذلك كان امتدادا لاهتمام فرنسا بالشئون المصرية . وكان اهم القنصليات القنصلية النمساوية المجرية التي اتخذت اهمية خاصة لكونها راعية الارسالية الكاثوليكية . وقد افتتحت هذه القنصلية في سنة ١٨٥٣ .

وعينت بروسيا المسيو دبوسبرج الذي سبق ان جاء السودان

تاجرا ، قنصلا لها • وكان لفرنسا قائم باعمال القنصلية ببربر وهو فريديناند لافارج والذي كان تاجرا • وكان قبسوبي كوزي قنصلا لبريطانيا في ببر ، وقد عينه غردون في هذا المنصب بالاضافة الى كونه ممثلا شخصيا له عندما مر ببربر في طريقه الى الخرطوم في آخر رحلة له ••

وفي سنة ١٨٥٨ عينت بريطانيا المستر بتريك قنصلا لها في الخرطوم ، وكان لا يتقاضى مرتبا • وقد اتهم بتريك باقتناص الرقيق تحت ستار الكشف الجغرافي والتجارة ورفعت العرائض للحكومة البريطانية التي اکتفت باستغفائه • وكانت لساردينيا قنصلية ، ولتوسكانا قنصلية ثم ادمجت القنصليتان تحت راية ايطاليا الموحدة • وكانت لليونان ايضا قنصلية ، اما الروس فلم تكن لهم قنصلية • وكان جرجس بولص وهو قبطي كما يبدو من اسمه يمثل مصالح ايران بينما مثل احد الشرقيين مصالح الولايات المتحدة •

ان ازدياد نفوذ الجاليات الاوربية وقناصلهم في الخرطوم كان امتدادا لنفوذهم الطاغى في مصر والامتيازات الاجنبية التي ارهقت كاهل شعوب الامبراطورية العثمانية وأهانت غرورهم • ولم تكن علاقة التجار الاوربيين بحكومة السودان علاقة حميمة بل اخذت دائما طابع المشاحنات والمناورات ، وقد بلغت العلاقات حدا من السوء في عهد عبداللطيف باشا فطلبت الدوائر الاجنبية سحبه من السودان وخاطبه تجار الخرطوم بلغاتهم التي لم يكن له من يترجمها نكايه واستخفافا به • وقد سحب بالفعل في سنة ١٨٥١ •

وبدار الوثائق القومية خطاب من اصطفان رسمي وكيل الامور الخارجية الى الكاتب الخصوصي للخديو يطلب فيه ان يعرض على الخديو عريضة من اربعة من القناصل بالخرطوم ، وهم المسيو هوبر قنصل النمسا العام ، والمسيو جليبر وكيل قنصل انجلترا ، وقنصل ساردينيا وقنصل فرنسا • وقد ارفق معه عريضة القناصل ، وكتابا من لطيف باشا الى الجناب العالي • والقناصل المذكورون يشكون من

تصرفات لطيف باشا حاكم دار السودان ازاء التجار الاوربيين • ويذكر  
اصطفان ان لطيف ارسل قبلا كتابا الى الكتخدا بك يشكو له من  
أحوال الاوربيين الذين يتجولون في السودان باسم التجارة والسياحة ،  
وانه اقترح منع هؤلاء التجار والسواح من استئجارهم الرجال وشرائهم  
العبيد وحثهم السلاح •

لقد سيطر التجار الاجانب على التجارة ، وتوسعت على ايديهم  
وأيدي شركائهم من السودانيين الشماليين والجنوبيين تجارة الرقيق  
واستفحل أمرها في وقت كانت فيه تنحصر في البلاد الاخرى • وقد ذهب  
التجار الاجانب بالمغانم والثروات الطائلة التي جمعوها من ورائها •  
بينما ألصق عارها بالسودانيين الشماليين وحدهم •

## (٣) الحياة في الخرطوم

لقد رأينا اتساما للفائدة ان ننقل بعض الفصول في وصف الخرطوم والحياة فيها في العهد التركي . وقد رجعنا في ذلك الى كتاب صديقنا المرحوم سليمان كشة : « تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية » . وغيره من المصادر .

١ - مقتطفات مما كتبه احد ادباء مصر في جريدة الاهرام سنة ١٨٩٦ . وقد نشر الطرف الاول من هذه المقالات في كتاب بغير اسم مؤلفه ، وينتظر الباقي من يجمعه من الجريدة وينشره . . .

يقول الاديب بعد أن يحدد موضع الخرطوم : « وتحيط بسه بساتين خصبة نضيرة يبلغ عددها نحو مائتي بستان ، مساحة اصغرهما نحو ستة افدنة ما عدا البساتين الصغيرة التي لا تبلغ الأربعة أفدنة وهي اضعاف الاولى ويبلغ ثمن ثمار البستان الواحد نحو ٥٠٠ جنيه في السنة .

ويسكن هذه المدينة نحو ٢٥٠ الف منهم نحو الخمس من السودانيين ، والآخر من الاتراك والمصريين والسوريين والاوربيين والمغاربة بين تونسيين وجزائريين ومراكشيين . وفيها من الاوربيين نحو ٢٠ عائلة فرنسوية اشهرها عائلة الدكتور بتيه ونحو ١٥ أسرة ايطالية و ٤٠ عائلة نسوية ومثلها المانية ، واشهر العائلات الايطالية عائلة الخواجا دفيد النقاش . ومن العائلات النسوية عائلة الخواجا هاك ماخبر ايضا . وبها ١٠٠ عائلة يونانية ونحو ٢٠ عائلة روسية اشهرها عائلة الخواجا كاموسكى الساعاتي ونحو ١٠ عائلات من الأرمن اشهرها عائلة بطرس بك سركيس ولم يكن بين تلك العائلات عائلة انجليزية » .

وبعد ان يعدد اقسام المدينة يقول :

« مدينة الخرطوم جامعة الى جمال الموقع الطبيعي محاسن النظام المدني والروثق الحضري • واكثر ابنتها من الحجر واللبن الاحمر مزدانة بالجبس والآجر • وقصورها في غاية البهجة والروثق وشوارعها منتظمة جدا • وفيها شارع يبتدىء من شاطئ البحر الازرق وينتهي في جنوب المدينة يسمى السكة الجديدة استعارة من اسم السكة الجديدة في القاهرة • وجميع سكانها محافظين على عاداتهم الاصلية ثم نشأ فيها التقليد الغربي وعادات المدنية الأوروبية واصبحت اخلاق وعادات السكان من الطبقة الاولى والثانية حتى في المآكل والمشرب أوروبية محضة • وذلك لسببين، اولهما وجود المدارس الاوربية التي تقدمت ونمت بسبب قبولها التلاميذ بلا أجره وثانيها ميل سكان الخرطوم الى كل ما يقرب من المدنية الاوربية والى الاوربيين ولا سيما الفرنسيين • والدليل على ذلك ان في الخرطوم نحو الف شاب يتكلم باللغتين الفرنسية والايطالية •

ولسكان الخرطوم ميل شديد الى تزيين المنازل بادوات الرياش الفاخر وهم يقتدون بالاوربيين فيما يخترعون من اصناف اثاث المنازل وانواع الملابس وعندهم من الملاهي وأماكن الرقص والقهاوي ما يزيد على الخمسمائة •

### تجارة الخرطوم :

التجارة في هذه الحاضرة مهمة جدا حتى انها تعدل وحدها تجارة جميع الاقاليم السودانية • اما مقاديرها في الحبوب فهي أجل من ان تحصر • وللخرطوم اهمية عظيمة في تسفير القوافل والسفن التجارية والشرائية حاملة صنوف التجارة الى جميع مدن السودان • وأهم هذه الصنوف الانسجة المصرية وسن الفيل والصمغ والريش • ويبلغ ما يتجر به من السن نحو ٤٠ الف قنطار • اما الصمغ والريش فتضيع

عندهما فذلكة الرقم حتى ان ما يوزن منها كل يوم تبلغ أجرته نحو الف جنيه فاكتر عدا موزونات سن الفيل التي يزنها وازنو المصالح الاميرية .

### المصالح الاميرية في الخرطوم :

اولاها ديوان الحكمدارية ثم ديوان المالية فديوان المديرية فالمحافظة فالضبطية اي حكمدارة البوليس فديوان العسكرية العمومي المجند السوداني فالترسانة وفيها من البواخر نحو مائة باخرة عدا المراكب الشراعية ، وهي من احسن مصالح السودان نظاما واتمها معدات . وفيها من المعدات والآلات والمواد والادوات الصناعية ما تبلغ قيمته اربعة ملايين من الجنيهات . وفيها مطبعة اميرية ومكان لتجليد الكتب والدفاتر ثم مخازن الميرة الحربية والذخائر وغيرها . وفيها مدرسة اميرية تحوي نحو ٤٠٠ تلميذ ، واساتذتها من المصريين البارعين . وتدرس فيها اللغتان التركية والفرنسية عدا العلوم الهندسية والرياضية وغيرها على نمط المدارس المصرية . وفيها ايضا مدرسة حربية لتعليم الفنون العسكرية ومدارس الآباء الكاثوليكين تقدمت تقدما عظيما وكثر طلابها ونجح غالب الذين خرجوا منها منذ ٤٠ عاما . وكان السودانيون لا يدخلون اولادهم في تلك المدارس مع تعددها من اميرية واهلية ومدارس الآباء الكاثوليكين ولكن معظم سكان الخرطوم من مصريين وسوريين واوريبيين يدخلون اولادهم فيها . اما المدارس الاميرية فكانت مخصصة للغلمان الذين فقدوا كل سند وعضد بموت آبائهم وأقاربهم وبأولاد العساكر ايضا . وكانوا كلهم يعطون مرتبات وأكسية . ومن ظهرت نجابته منهم كان يرسل الى مصر على نفقة الحكومة لتكملة دروسه . وكان يرسل منهم نحو ٣٠ تلميذا سنويا يوزعون على المدارس الحربية ومدارس الزراعة ومدارس الصناعة حتى اذا اتموا دروسهم عادوا الى بلادهم بالشهادات الدالة على براعتهم .



اما المتخرجون في المدارس الاهلية والمدارس الكاثوليكية فكان  
اكثرهم من ابناء الاغنياء » •

٢ - وقال محمود طلعت في كتابه غرائب الزمان في فتح السودان :  
« انتهينا الى ساحل الخرطوم في غروب الاحد يوم ٥ ربيع الاول  
١٢٩٢ : ١١ ابريل ١٨٧٥ • وفي صباح يوم الاثنين حضر الينا معاون  
الضبطية وارشدنا الى محل نقلنا اليه متاعنا • ثم توجهنا الى الحكمدارية  
وسلنا افادة المالية فأمرنا انا ومن معي بالانتظار حتى يتم اعداد الجمل  
اللازمة لسفرنا عليها الى كردفان • ولا ينسى القارئ اللبيب ان طول  
المسافة قد ادهشني جدا وان الثلاثة اشهر التي استوليت على استحقاقها  
ستتقضي قبل أن أصل المركز الذي تعينت لأجله • وفي هذه الحالة  
شعرت بألم الفراق الحقيقي فاستخرطت في البكاء وسكنت الدمع مدرارا  
على فراق حبيتي واهلي •

وبعد انصرافنا من الحكمدارية اخذنا نطوف بالخرطوم التي هي  
عاصمة بلاد السودان ومحط رحال تجارتها ، فاذا هي بلدة حسنة  
الموقع جميلة المنظر تحيها امواج البحرين الازرق والنيل غدوا ورواحا •  
ويوجد بها من الجهة الشمالية المشرفة على البحر الازرق كثير من  
البساتين النظرة الشائقة والقصور الباذخة الشاهقة حتى لقد يعتري  
القادم على هذا المنظر البهيج حيرة لا يكاد يصدق معها حقيقة ما ينظره  
او يرى انه قادم على اجمل بلد واعظمها تدنا وحضارة • ولا غرو فان  
الخرطوم كانت المحل الاول لاشغال الحكومة المصرية في اواسط افريقيا  
ومركز تجارة السودان ومحط أعظم تجارة وعاصمة بلاد فسيحة الارحاء  
واسعة الاطراف كثيرة الخيرات جزيلة البركات ، ترابها تير وحصادها در  
ويسكن الخرطوم خلق كثير لا يقلون عن مائة الف نسمة وبها ايضا كثير من  
الافرنج لكن الجنس اليوناني اكثر من غيره لان كل البقالين ( البدالين )  
هناك يونانيو التبعة ، وما بقي منهم يشتغل بالتجارة • غير ان الجنس  
الانجليزي وان كان متشاغلا ومتظاهرا بأشغال التجارة كسائر الاجناس  
الا ان ذلك لم يكن الا صفة اسمية فقط أو هو وسيلة لبلوغ غاية كامنة  
في النفس •

ويوجد في الخرطوم كثير من الشوارع المنظمة وعلى جانبها قصور  
مشييدة ومنازل جميلة تسر الناظرين . وهذه الشوارع تكنس وترش  
صباحا وعصرا وهي لا تقل في نظافتها عن شارع محمد علي . وبها ثلاثة  
مدارس احداها للحكومة ، وهي كاملة المعدات حسنة الترتيب .  
والاخرتان صغيرتان احدهما للجزويت والاخرى للاقباط . أما المكاتب  
الصغيرة ( الكتاتيب ) التي يدرس بها القرآن الشريف فهي مما لا يدخل  
تحت حصر . وبها أيضا كثير من القهاوى ، منها ما هو على شاطئ النيل  
الأزرق ومنها ما هو داخل المدينة وجميعها منتظمة ومببضة تبيضا  
جميلا . وارضيتها مكسوة بألواح الخشب . وقد علق على جدرانها  
الصور الجميلة الى غير ذلك من وسائل الزينة . وبها ما تشتهى الأنفس  
وتلذ الاعين من المأكولات والمشروب فضلا عن انواع الالعاب والملاهي  
كالبياردو والشطرنج والنرد وغيرها مما لا يقل عن ما في مجتمعات مصر  
العمومية .

وبالجملة فالخرطوم مدينة توفرت فيها وسائل اسباب المدنية  
وكملت فيها وسائل العمران وسكانها على جانب عظيم من الرقة ودماثة  
الخلق والكرم والشجاعة .

اقمنا بها خمسة وعشرين يوما اخذنا فيها حظنا من الراحة واتمنا  
لوازم السفر ثم انتقلنا من الخرطوم الى ام درمان ، وهي واقعة على  
الشاطئ الغربى لنيل الأبيض فوجدناها عبارة عن مكتب تلغراف  
وبعض أماكن خالية من السكان . وقد خصصت هذه البقعة لاقامة  
الواردين من داخل السودان الغربى والمترددین عليه . وقد خيل لنا ان  
جميع عساكر مصر قد نقات الى هذه البقعة لكثرة من بها من الجهادية  
وعساكر الباشبوزق . فأقمنا هناك ثلاثة ايام حتى جاءتنا الابل وقد ايقنا  
عند رؤيتها اننا هالكون لا محالة لبشاعة منظرها ولانها متناهية في الطول  
والارتفاع وشديدة السواد ولم يسبق لنا رؤية ما شاكلها . وفي يوم  
الاثنين ٥ ربيع الثاني ١٢٩٢ الموافق ١٠ مايو سنة ١٨٧٥ علونا تلك الابل  
وازمعنا المسير » .

٣ - وقال محمود القباني :

ان الخرطوم كان لعهد دولة سوبا التي نجهل تفاصيل كيف بادت مسكونة من الناحية الشرقية « البراري » وفي جهة الجنوب الشرقي . اذ رأينا أثرا ظاهرا لذلك هو الذي كنا نعرفه باسم جبل سوداء ، وما هو بجبل بل كتيب من رمل تكون ممتزجا بقمامات من أوساخ عمران آدمى شبيه بالتلال التي لا يحصيها عدد في مصر . وهناك يسمونها الكفرية نسبة الى الاجيال التي كانت قبل الاسلام .

وموقع هذا الجبل المجازي الذي أزيل بعد فتح الحكومة الحالية شرق المقبرة المسيحية مع انحراف لجهة الجنوب . وفي ركنه الجنوبي الغربي مقبرة الاقباط . أما المقبرة الافرنجية فموقعها الحالي وانما زيدت ووسعت من جوانبها الاربعة . وفي مدخلها من جهة الشمال تمثال ملك بجناحين صنع من حديد أسود كالصلبان التي توضع على القبور ، وكان العامة يسمون هذا التمثال باسم كنيسة نكولة ، والخاصة يقولون مقبرة الافرنج . اسست هذه المقبرة مع كنيسة الكاثوليك ، وقد بنيتا بحجارة منضدة ، وسقوف الكنيسة ومساكن القساوسة مسقوفة بعقود حجرية غاية في الاتقان والمتانة والابداع بأيدي الصناع الايطاليين من نحاس وبناء ونجار وحداد . وقد انفقت نفقات طائلة لجلب الحجارة من جهات جبل أوليا وغيرها . ومهما يكن سمعنا من كبارنا انها كانت حركة اقتصادية في الخرطوم وضواحيها ملأت جيوبا كثيرة بالنضار من الجنه الفرنسي البنتو والريال القشلي النمساوي . وقد سمي هؤلاء القساوسة باسم المرسلون الافريقيون وتعهدت بحمايتهم امبراطورية النمسا والمجر واعترفت بهذه الحماية الامبراطورية التركية سيده مصر والسودان وقتئذ .

واني لأذكر ان للآباء الكاثوليك مدرسة انتظمت في تلامذتها لما بدأت حوادث المهديّة سنة ١٨٨١ ، وابطلت دروس اللغة الفرنسية في المدرسة الاميرية بالاشتغال بالاهم من المهم . سلخت في هذه المدرسة ٣٢ شهرا وشهدت الاحتفال بجنازة المطران دانيال كمبوني الذي أسس

كلية كمبوني هنا احياء لذكراه ، وكان احتفالا رائعا حضره حاكم دار  
عموم السودان محمد رؤوف باشا واورطة الجند النظامي وقناصل الدول  
والايعان والموظفون . وقد خلفه في هذا المنصب المطران سوغارو .  
ثم غادر القساوسة الخرطوم في أوائل شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣ . وموضع  
هذه الكنيسة هو ديوان مديرية الخرطوم وأقول ايضا ان مكتب محكمة  
الجنابات ، ذات غرفة المطران كمبوني التي لفظ روحه فيها .

وقد كانت هذه الكنيسة من عمائر الخرطوم الجميلة تمتد حديقته  
الى الشمال . يفصل بينها وبين النيل ، شارع عبدت أرضه يتنزه فيه  
المتنزهون في الأصل وفي الليالي يمتد من شرق السراي الى غرب  
حديقة الحيوانات التي كانت ملكا للعم المرحوم ابراهيم بك خليل من  
أكابر سرة الخرطوم .

وتمتد الحديقة الكاثوليكية شرقا الى آخر عمارة الري المصري ،  
وتسقي بوابور بخاري من النيل باشراف خولي ايطالي يدعى دومنيكو  
أبى أن يترك ما غرسته يده حتى أدركته المنية في ايام المهدي . ففي هذه  
الحديقة العنب يثمر مرتين ، وكثير من النخل وفيها ما يكفي أهلها من  
فواكه وخضروات وبطاطس يباع الباقي في الاسواق . وان ذكرت عمارة  
الكاثوليك لمساهمتها في عمران المدينة وزهوتها أذكر انه كان قبل أن  
أخلق بسنوات ارسالية بروسية بروتستنتية أقامت في الخرطوم وأسست  
معبدا ودارا ومدرسة من الآجر لا بأس بعمارتها ثم قفلت راجعة من حيث  
جاءت بعد أن باعت ممتلكاتها .

وفي الأزمنة الاخيرة كانت دورهم ملكا للمغفور له الزبير رحمة  
باشا ثم صارت هذه الدار مقرا للمدرسة الاميرية الى سنة ١٨٨٥ .  
واحذر أن موقع هذه الدار غرب محطة ترام الخرطوم الوسطى بقليل .  
أعود بعد هذا البيان الى العهد الذي أسس فيه الجامع والثكن العسكري  
والسراي ودواوين الحكومة لكي اتدرج منه الى الطور الثاني ، وهذا  
الطور الانشائي قام بانفاذه المرحوم علي خورشيد باشا رابع حكام  
السودان وأطولهم مدة اذ دام حكمه نحو ١٣ سنة واكثر من أسندت

اليهم هذه الوظيفة كانت أيامهم على الاكثر لا تتجاوز الثلاثة سنوات لما يرميهم به الاعداء من الطموح والاستقلال أو الميول الى ضم السودان الى تركيا التي كانت تمتلك شواطئ البحر الاحمر سواكن ومصوع • وعلى كل فان اعمال علي خورشيد باشا لم تخرج عن كونها مقاصد حسنة لل عمران وتوالت وفود التجار المصريين على الخرطوم واكثرتهم من اسوان واسنا فساهموا في تشييد عمران المدينة وتقدمها بما انشأوا من منازل وغرس البساتين واصلاح فنون الزراعة وتوسع صناعة السفن الشراعية على ايدي السفن ومالكها بالذهب المصري الذي لم يكن قاصرا على الجنيه ونصف الجنيه بل هناك قطع من الذهب قيمتها خمسة قروش وعشرة وعشرين وخمسين وما زالت موجودة الى سنة ١٨٨٥ • وقد اتخذ منها حلى النساء ، فضلا عن الريالات التركية « المجيدي » والنمساوي القشلى • اما النقل على ظهور الابل فكله بأيدي شيوخ قبيلة العباددة سواء كان حكوميا او تجاريا •

اما رخص الاقوات في الخرطوم فقد أدركناه ورأيناه • فان قيمة اردب الفترية من عشرة قروش الى اثني عشر • وسمعنا كبارنا يتزمرن ويقولون انه كان بخمسة او ستة قروش • وأردب القمح من ٢٥ الى ٣٠ ، وكان من ١٥ الى ٢٠ قبل ان نخلق •

والحكومة تعتبر الريال التركي ١٦ قرشا وربع ، والاهالي يتعاملون به بعشرين قرشا صاغا ، والقرش الصاغ ثمانية قروش نحاسية تسمى « خردة أو طبر » • وتجري حسابات الحكومة بالقروش ورسمها هكذا ( بارة قروش ) • والقرش الصاغ اربعون بارة • وهناك ما يسمى كيس ، والكيس خمسمائة قرش • وتجري مخاطبات الحكومة الادارية والعسكرية باللغة التركية كما تجري الحسابات والضرائب ومخاطبة شيوخ القبائل باللغة العربية • والى آخر أيام الخرطوم تجد عنوان المخاطبات تركى اللغة والمخاطب عربي اللغة هكذا : سودان حكمدارى وخرطوم مديري •

\*\*\*

كانت الحكومة تبذل المعونة لساكني الخرطوم حتى انها لم تقف عند حد منحهم الاراضي بلا ثمن بل كانت تعاون بمنح أخشاب السقف للعمارات حتى كانت سنة ١٨٧٤ وفشت الأوبئة فمن حمى « ام سبعة » الى الهواء الاصفر « الكوليرا » . وقد هجر الخرطوم كثير من السكان وعد في ذلك الزمن انه مناخ موبوء لما كان يكتنفه من نواحي الجنوب والشرق من مستنقعات تتعفن فيها المياه .

وكان جل ما يرد الى السودان من المنسوجات هنديا علاوة على الطيوب من عطور وعطارة وأسرة الساج واسرة الحق .

وقد بذلت الحكومة مجهودات لا يستهان بها في ردم المستنقعات وفتح المجاري لتصريف المياه والسيول التي كانت تنحط على المدينة . وقد ادركنا هذا المجرى وموقعه في الساحة الواقعة جنوب سراي الحقاينة ثم ينحني شمالا فيصب في النيل الأزرق . ومنذ نشأتنا وجدناها مدينة زاخرة بالعمران وبنيات بالاجر « الطوب الاحمر » والحجارة المنضدة وكانت تستخرج من خفر الشاطئ الغربي بام درمان . كما ان القمائن التي تشوى بها اللبن كانت في الضاحية الشرقية البراري والجريفات . واكثر المنازل كانت دورين وأقلها الدور الارضي .

والحكومة تشدد في تعميق الاسس وعرض الجدران . وأقل ما يسمح به في عرض الجدار ذراع معماري ونصف ذراع نحو متر وعشرين سنتيا . وقد ارتفعت اسعار الاراضي التي على شاطئ النيل أولا اذ كانت مرغوبة لغرس البساتين لسد حاجيات سكان المدينة من فاكهة وخضروات ونخيل واعناب تأتي أكلها في العام مرتين ، واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف . فكان سكان الخرطوم يأكلون العنب شتاء وصيفا من النوع الاحمر أكثر والقليل من الابيض .

ولما كثر عدد الاجانب من سراق الاوربيين رغبوا في تشييد دورهم على شاطئ النهر فبذلوا اثمان عالية لأصحاب البساتين حتى بلغت قيمة المتر الواحد من جنيهين الى ثلاثة ...

ان مصالح الحكومة بالخرطوم متعددة وأماكنها متدانية مواقعها وأعظم تلك البنايات هي بناية الحكمدارية اعني السراي التي لم تكن ديوانا بل هي دارسكنى أسرة الحكمدار . وفي العهد الاخير تحولت ثلاثة اجزائها الى دواوين حكومية ، فعل ذلك غردون سنة ١٨٨٤ ، اذ اكتفى هو بالجناح الاعلى بمكتبه ومعاونيه وشغل الدور الارضي كله بمصلحة مالية السودان .

ديوان الحكمدارية : بنى بحجارة بيضاء جميلة منحوتة ذات منظر يضارع أعظم مباني القاهرة ومرتفع سطحه عن سطح الارض بأكثر من ثلاثة امتار وله نوافذ شمالية تطل على النهر والشاطئ مرصوف بالحجارة وقد غرست حول النوافذ أشجار باسقة . ومدخل ايوان جلوس الحكمدار من الجهة الجنوبية بثلاثة ابواب كبيرة جدا يجلس القواصة الاتراك على دكتين شرقية وغربية بسراويلهم المقصبة وارديتهم القصيرة سلطة وسيوفهم الكبيرة المعقوفة . هذه الابواب الثلاثة هي التي يدخل بها العموم لمقابلة الحكمدار . وفي شرق هذه الابواب رواق مستطيل فيه غرف من الجانبين وله باب شرقي يدخل منه الحكمدار من والى السراي . والغرف التي بجانب هذا المدخل احداها مكتبة لحفظ الكتب ومكاتب لموظفي القلمين الافرنكي والتركي وأوراق هاتين القلمين . ويقابل بناء الحكمدارية بناء مديرية الخرطوم وهو منزو الى جهة الغرب وأقل ارتفاعا من بناء الحكمدارية الذي يسامته من الجنوب دهليز مستطيل وبوابة جنوبية كبيرة مزخرفة يتوصل من فرندة ذات اعمدة شاهقة يجلس فيها ذو الاشغال من الاهلين وكثير ما هم . والغرف التي بجانبها الدهليز معدة لسكن البلك النظامي وضباطه المنوط بهم حراسة السراي ودور الحكومة اسبوعيا . ثم هناك مصلحة التلغراف وخزانة الحكومة ثم الدفترخانة في الجناح الشرقي والزاوية الجنوبية . يجمع هاته المصالح حوش واحد متسع تقام فيه الحفلات الرسمية ...

.... ومما يستحق الذكر مناظر المتنزهين حول المدينة من الشرق والغرب والجنوب والشمال وفي الزوارق وان كانت قليلة . فانها تمثل

منظر النزه في زوارق البسفور في استانبول كما يقول الاتراك ومن شاهدوها واحتذوا مثالا هنا . فأنت ترى مناظر المتنزهين في الارياض ركبانا على الخيول المختلفة في آلتها فتلك بسرج تركي واخرى بسرج سوداني أو افرنكي والكل في غاية الفخامة من رشحات فضية مطلية بالذهب . واختلاف الازياء في المتنزهين له منظره البديع ، فهذا يلبس زيا افرنجيا انيقا مع الطربوش وبجانبه آخر يلبس الزي القديم ( السراويل والشيكن ) . اما الطربوش المضلع فهو الزي الرسمي لجند الباشبوزق على اختلاف أجناسهم . وكنا نرى قساوسة الارسالية الكاثوليكية باثوابهم الكهنوتية وغطاء رؤوسهم الطربوش . وكانوا قبل زماننا يتعممون كقساوسة الاقباط . والميزة بينهما ان القبطي بقفطان وجبة او زعبوط وهم بثوبهم الطويل المزرر . وقد رأيت في كنيسة الكاثوليك تمثالا نصفيا من الرخام وضع احياء لذكرى انياسو كنونجير الالمانى الذي أسس الكنيسة لاسا قفطان وفرجية وعمامة .

وبالجملة ان الازياء في الخرطوم كانت معرضا محتويا لأزياء اهل الارض كلهم تقريبا . ومن بين المعممين زي العمام المتباينة من مصرية وصعيدية الى سودانية الى سورية الى هندية الى بخارية الى تركية . وكذلك اللحي الافرنجية . وكثير منهم كانوا يخلقون لحاهم من أسفل الحنك فيسميهم الناس ابو دقنين . ومن مشاهد النزهة التي تجري في الخرطوم في أغلب أيام الاسبوع لعبة الجريد التي يقوم بها جنود الباشبوزق والاتراك والمغاربة والشايقية والاهالي . وهي تمثل مبارزات الحروب والترامى بالسهام ولست بناس حلقات الحاوي المشعوذ والالعب المدهشة من فنون السيام . وفي مرة وفد الخرطوم حاوى شهدناه قطع شابا اربا اربا الى عشرين قطعة والدم قد ملأ الارض وصرخ الحاضرون ثم تمثل لأعيننا ان الدماء والاجزاء المقطعة تتحرك وتقترب من بعضها حتى استوت شخصا سالما بجلايته الزرقاء وطربوشه قبل ان يذبح ويقطع اربا . ومن مناظر الشعوذة التي نراها كل يوم رجل من ساكني الخرطوم قصير القامة ضخمة الجثة كبير الوجه ضخمة الرأس يبلغ شعره منكبيه



يحمل مسمارا غليظا مستطيلا ، على رأسه حلقات حديدية لا يقل وزنها مع المسمار عن عشرين رطلا ، يغرس هذا المسمار في عينيه حتى تراه لامعا شبرا في قفاه وقد سالت الدماء ثم يستله ولا اثر للدم ولا ضرر بالعين . وهكذا يعيده دواليك . وقد يضعه في صدره وقلبه وبطنه حتى صارت شعودته هذه مألوفة لدينا .

٤ - وقال رفاعه رافع الطهطاوي في قصيدة نشرها في كتابه مناهج الالباب ، وكان كما قلنا كمن نفى الى الخرطوم :

وما السودان قط مقام مثلى	ولا سلامى فيه ولا سعادى
بها ريح السموم يشم منه	زفير لظى فلا يطفئه وادى
عواصفها صباحا او مساء	دواما في اضطراب واطراد
ونصف القوم اكثرهم وحوش	وبعض القوم أشبه بالجماد
فلا تعجب اذا طبخوا خليطا	بمخ العظم مع صافي الرماد
ولطخ الدهن في بدن وشعر	كدهن الابل من جرب القراد
ويضرب بالسياط الزوج حتى	يقال أخو بنات في الجلال
وشرح الحال منه نصف صدر	ولا يحصيه طرسى أو مدادى
ولولا البعض من عرب لكانوا	سوادا في سواد في سواد
وحسب فتكها بنصيف صحبى	كأن وظيفتي لبس الحداد
ثلاث سنين بالخرطوم مرت	بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى	هناك ودونها خرط القتاد
نعم ترجى المصانع وهي احرى	لتأييد المقاصد بالمبادي
علوم الشرع قائمة لديهم	لمرغوب المعاش او المعاد

٥ - الخرطوم كما راها الرحالة الاوربيون :

كانت مدينة الخرطوم نقطة البداية بالنسبة للرحالة الاوربيين الذين كانوا يأتون الى السودان للكشف الجغرافى وخاصة في اعالي النيل . وقد سجل اغلبهم مشاهداتهم في كتب . وقد فعل ذلك أيضا

غدد من الاوربيين ممن كانوا في خدمة الحكومة المصرية • وقد اخترنا هذه الصورة السريعة لاعطاء فكرة عن مشاهداتهم •

لقد وصل فردناند ويرن Ferdinand Wern الى الخرطوم في ١٨٣٩ ، وعاش في الخرطوم قرابة سنة • وكان أخوه جوزيف جراحا في الجيش المصري وعمل في سنار والخرطوم ، وقد أقام معه فرديناند اثناء مقامه بالخرطوم • ويذكر الرحالة انه عانى طوال اقامته في الخرطوم من الحسى وسوء الطقس والذي بلغ من الرداءة حده • ثم يذكر ان الخدمات الصحية كانت سيئة للغاية وان العاملين بها كانوا يجهلون أصول الطب وتركيب الادوية فضلا عن انهم كانوا يسرقون الاغذية وأقمشة الطب والادوية وانهم كانوا يحضرون أدوية مغشوشة • ويبدو ان حالة الامن كانت سيئة • فقد أفاض الرحالة في وصف حالة القلق الذي كان ينتاب الموظفين الاقباط عندما يتركون عوائلهم في المنازل ويذهبون الى أعمالهم وكيف انهم كانوا يغلقون الابواب على عوائلهم ويأخذون المفاتيح معهم • وقد عانى ويرن الامر من جراء الاهوية الشديدة التي تسبق الخريف والامطار الغزيرة • ويذكر انه شاهد في ٣١ اغسطس ١٨٣٩ اعنف العواصف التي شاهدها • وقد هطلت الامطار وفاضت المياه حتى ابتلعت المنازل ودكت بعضها •

وجاء في ١٨٥٠ جورج مللى George Melly وقد وصف المدينة وصفا أخاذا وهو قادم اليها من جهة الشرق ، ثم وصف القصر والمنزل الذي نزل به ، وكان في جوار القصر ، وحديقة الحيوان • وقد وصف حدائق الخرطوم والسوق • وسجل مشاهدات دقيقة عن شعور الناس نحو والدته واخته وكيف تجمعوا للنظر اليهما •

وكان جون باتريك قنصلا لبريطانيا في الخرطوم • وكان قبل ذلك تاجرا ، وقد اتهم بالاتجار في الرقيق • وقد وصف الخرطوم كما شاهدها وعرفها في سنة ١٨٤٦ والسنة التي تليها وقدر عدد سكانها بنحو ٦٠ الف شخصا • وبعد أن عدد المباني الحكومية والتي كانت مشيدة بالطوب

الأحمر ذكر ان المبنى الوحيد الذي شيد بالحجر هو الأرسالية الكاثوليكية . اما بيوت الاهالي فكانت بالطين ثم عاد باتريك الى الخرطوم في سنة ١٨٦٠ ، ومعه زوجته ليقوم بمهمة القنصل . وقد وصف الحياة الاجتماعية في المدن وبالذات حياة الاوربيين .

وجاء صمويل بيكر في ١٨٦٢ . وقد وصف المدينة بانها بدائية وانها مركز تجمع قوافل التجار ( تجار الرقيق والعاج ) . وعاصمة الادارة التركية التي كانت تسيطر على موارد البلاد بطريقة شرهة ولا تعطى الاهلين مقابل ذلك حكما صالحا .

وقال : كانت عملية نهب بشعة لم يعرف التاريخ لها مثيلا ، اشترك فيها كل موظف في الدولة من الحاكم العام - موسى حمدي باشا في ذلك الوقت - الى اصغر خفير . اما الجنود الاتراك والمصريين الذين كانت تتكون منهم حامية الخرطوم فقد بلغ عددهم حوالي خمسة عشر الفا من الجند كانوا يعيشون في البلاد كجيش محتل . وقد انعدمت في قلوبهم الرحمة . كان كل ما يهمهم هو جمع الضرائب والتي كانت تجبى بالهبا ظهور الناس بالسياط او بالغارات المسلحة على مخازن الذرة وزرائب الماشية في البلاد النائية .

وكانت شوارع الخرطوم مهسلة وقد تراكت عليها القمامة ورسم الحيوانات وتزاحم فيها نحو ثلاثين الف نفس هم سكان الخرطوم في ذلك الوقت . وكان الواحد منهم لا يستطيع ان يقضى غرضا دون ان يستعين بالرشوة . وكان الجلد والتعذيب شيئا عاديا . وكان موسى باشا حمدي يجمع أرذل خصائل بني جلدته واضاف عليها الوحشية المتناهية . والجو شديد الحرارة وعندما تهب العواصف الرملية يتحول ضوء النهار الى ظلام ليل شديد السواد . . . ان كل قافلة تقدم من الجنوب الى الخرطوم تأتي بشيء جديد من الاكتشافات والطيور والحيوانات والسلع والنباتات الغريبة التي لم تعرف الى ذلك الوقت .

وقال برون روليه Brun Rollett ذلك الفرنسي الذي قضى في السودان ردحا طويلا ، ان الخرطوم كانت مدينة واسعة في الازمان الغابرة حتى دخلها الشك في ليلة من الليالي حوالي ١٧٨٠ . وقتلوا سكانها وخربوها خرابا تاما ثم يذكر ان جيش محمد علي لم يجد عند وصوله الى المكان الا ثلاث قطاط ومقبرة كبيرة . وقد قدر روليه سكان الخرطوم في وقته ( اي حوالي سنة ١٨٤٠ ) باربعين الى خمسين الفا .

وقال اللورد بروذوى Prudhoe والذي وصل الى الخرطوم في ١٠ مارس ١٨٢٩ في طريقه الى سنار ان المدينة تتكون من نحو ثلاثين منزلا من الطين وقطاطي من القش . وقد اقام هو وصحبه في خيمة . وكان الحاكم العام نفسه يسكن في منزل مشيد بالطين . ولم تكن بالمدينة اشجار .

وذكر المسيو كومبي Combes الذي زار الخرطوم في سنة ١٨٣٤ ان سكانها يبلغون نحو ١٥ ألفا ، وذكر ان الناس كانوا يتعاملون بريالات مارياتريثا النمسوية والمحمودية التركية والبيوطة المصرية والسافريتا النمسوية والمصفاني .

ويقول شوينفيرت عن الخرطوم في سنة ١٨٦١ ان الحالة الصحية فيها كانت في غاية السوء من جراء اجزائها المنخفضة عن منسوب النيل والتي كانت تصير بركا ومستنقعات تفوح منها الرائحة الكريهة ويتوالد فيها الذباب والناموس . وقد تفشت الملاريا بشكل مزعج .

ولما جاء دي كوسون DeCosson في سنة ١٨٧٣ فانه لم يكن برما بالمدينة كأصحابه السابقين وانما ذكر ان المدينة حسنة لولا امراضها . وقد طاف كوسون المدينة على حصان . ودون مشاهدات طريفة عن اطراف المدينة وبساتينها وخاصة منطقة المقرن . كذلك وصف شاليه لونج المدينة وصفا طيبا .

والظاهر ان جملة الرحالة الاوريين كانوا ناقسين على الادارة المصرية مع انهم بفضلها قد جسعوا الثروات الطائلة وتسنى لهم القيام برحلات الى أعالي النيل والقيام باكتشافاتهم . وقد كانوا يحصلون على البواخر والسفن الحكومية بايجار بسيط . وكانوا ناقسين ايضا على السودانيين وعلى جو الخرطوم وأمطارها . وقد كتبوا كثيرا عن تجارة الرقيق وعابوا أمرها على الشساليين مع ان القدح المعلى في هذه التجارة كانت للاوريين الذين يؤجرون الشساليين . وكان باتريك القنصل البريطاني نفسه متها بالاتجار في الرقيق . والرحالة الاوريون نادرا ما يلتفتون الى حياة السودانيين أو الى الطرف الاهلي وانما غالب كلامهم عن متاعبهم وما كانوا يعانونه وعن مجتمع الاوريين واهتماماتهم الكشفية .

## ( ٤ ) - المهديّة والخرطوم

### المهديّة :

في أواخر يوليو سنة ١٨٨١ أمارط المهدي اللثام عن حركة كان يعمل لها منذ فترة • وأعلن عن عزمه على القضاء على النظام التركي في السودان واقامة مجتمع اسلامي ثم القيام بسلسلة من الفتوحات حتى يدين له العالم اجمع وينعم بهذا النظام الذي أتى به •• ان حركة المهديّة هذه كانت حركة دينية ذات أعماق بعيدة وكانت تعادي بشكل مباشر المجتمع الذي تمثله مدينة الخرطوم ، عاصمة الترك ، وقصبة النظام السياسي الذي اعلن المهدي انه لا يزول الا بحد السيف ومركز القوة والثقل في المعارك التي سيخوضها هو وأنصاره •

ولما بدأت الدعوة في الجزيرة ابا لم تصل انباؤها الى المسؤولين في الخرطوم بشكل رسمي وانما نقل انباؤها نفر من الناس فعدها الحكمدار رؤوف باشا وشاية مغرضة من ذوي المنفعة عنده او الغرض السيء في فقيه ابا ، أو لعله قد استهون شأن هذا الفقيه وعده متجاوزا على قوة وسلطة عصرت قبله الآلاف ووقفت دون الوصول اليها جحافل الوهابيين وجيوش سنار وفرسان الشايقيه والعدلاب وعزم الملك نمر وفرسانه ، أو لعله حسب الامر في عداد المناوشات التي تقع بين الطوائف الدينية المتنافسة ، وعلى أية حال فقد سكت رؤوف ولم يتحرك الا بعد شهر كامل من اعلان المهديّة علنا بعد أن ظل الامام المهدي يعمل لها سرا نحو أربعة شهور • ولما كثر اللغط وتناقل الناس اخبار الفقيه وثورته في

أسواقهم ادركه القلق فأرسل أبا السعود بك لعله يستيقن من حقيقة الشيخ وحوارييه أو لعله يستدرجه الى الخرطوم فيقضي على أمره . وقد عاد ابو السعود ليبلغ الحكمدار ان الامر جد لا هزل ، وان المهدي مصر على ما اعلنه ، وانه ينذر الحكمدار وقومه بالويل . وقد أكد الامام المهدي نفسه هذا التقرير ببرقية أرسلها من الكوة ، وفي الحال وجه الحكمدار قوة يقودها ابو السعود نفسه للقضاء على الحركة . وارسل يبلغ رؤسائه في مصر بما وقع ولكن الخيبة هذه المرة كانت أسوأ وأمر من سابقتها ، فقد هزم الفقيه وحواريوه بفئوسهم وعصيتهم وسيوفهم جنود الحكمدار المدججين بالاسلحة النارية هزيمة نكراء . وعاد ابو السعود يحمل أنباء الهزيمة وغصة الخيبة .

كان ذلك اول لقاء بين الدعوة الجديدة وبين مدينة الخرطوم ، وقد جرى اللقاء في مهبط الدعوة ، ولما انتقل الامام المهدي الى الغرب ابتعد شبح الخطر المباشر عن الخرطوم ، ولكن أنباء الانتصارات التي حققها الامام المهدي في الغرب ظلت تقلق المدينة وأهلها .

### نحو الخرطوم :

عندما انتصر الامام المهدي على هكس تأكدت سيطرته على الاقاليم الغربية بصفة نهائية ، وتلاشت احتمالات ارسال قوة اخرى كبيرة للقضاء عليه . وقد فتح الطريق أمامه ليعود الى النيل مرة أخرى ويواجه المدينة الاولى وقصبة النظام ، وبالفعل ارسل الامام المهدي خطابا الى محمد الطيب البشير ليقوم هو وانصاره بمحاصرة الخرطوم كما أرسل امرا عاما لاهالي الجزيرة واقليم الخرطوم للاشتراك في الحصار . وفي هذه الاثناء وفد غردون الى الخرطوم واعلن سياسة الاخلاء فساعد ذلك في مسعى الامام المهدي وانحاز العبيد بدر والمضوى عبد الرحمن واحمد الامين ام حقين وعبد القادر قاضي الكلاكلة وكثير ممن لهم وزن الى جانب الامام المهدي وبالتالي فقد بدأت المرحلة الاولى من مراحل الحصار .

ولقد حاصر محمد الطيب البصير صالح الملك في فداسى ، وزحف ابراهيم العباس العبيد بدر والشيخ المضوى عبد الرحمن نحو مدينة الخرطوم من الجهة الشرقية الشمالية . وقد التقوا بقوة من الباشبوزق الشايقية في الحلفاية فهزموها هزيمة نكراء في منتصف مارس ١٨٨٤ . وقد ارسل غردون قوة نهرية بقيادة ابراهيم فوزي فوجدهم وقد شادوا المتاريس والطوابى وتحصنوا بها ، فعاد بعد ان ناوشهم قليلا . وبعد ايام ارسل غردون قوة كبيرة بقيادة السعيد باشا حسين الجميعابى ووكيله حسين باشا الشلالى ، فالتقت القوة بالانصار ووقعت معركة انتصر فيها الانصار وقد قيل ان قائدى القوة الحكومية كانا على اتفاق مع الثوار وانهما عملا لهزيمة جنودهم ، وقد حوكما بتهمة الخيانة واعدما وبعد هذه الواقعة تقدم الانصار حتى بلغوا حلة الشيخ خوجلى وعسكروا فيها بقيادة ابراهيم العباس والشيخ المضوى وبدأوا من هناك حصار المدينة . اما العباس العبيد فقد اجتاز النيل الازرق ونزل في الجريف وحاصر المدينة منها . وأنضم عبد القادر قاضي الكلاكلة الى جانب الثوار فوفد على رأس قوة كبيرة من اهله ونزل في مواجهة المدينة من الجهة الجنوبية الغربية . وتقدم مصطفى الامين ام حقين من جهة اسلانج ونزل خور شمبات وحاصر منها ام درمان ، وجمع احمد ابو ضفيرة الجموعية والفتيحاب وحاصروا ام درمان من جهة الجنوب .

وفي نفس الوقت عقد الامام المهدي لقائده المشهور ابي قرجة اللواء ، ولقبه بامير البرين والبحرين ، يقصد النيلين والجزيرة ونواحي الخرطوم ، وأوفده على رأس قوة كبيرة ليتولى قيادة القوات المحاصرة . وقد تقدم أبو قرجة فسلم له صالح الملك في فداسى ، وثم نادى بالنفير العام في الجزيرة وتقدم الى الخرطوم وقواته تزداد عددا وخطورة . نزل أبو قرجة بالجريف وبعث بانذار قصير الى غردون يخطر فيه بقدمه اميرا على البرين والبحرين وتسليم فداسى له ثم طلب منه التسليم .



## حصون الخرطوم :

شرع عبد القادر باشا الذي خلف رؤوف في تقوية دفاع المدينة فحفر خندقا حولها وبني حائطا • وبعد هزيمة هكس أضاف كوتلوقن وهو احد ضباط هكس بعض الاضافات الى الحصون • ثم جاء غردون فأكملها • وكان الحصن ممتدا من الجهة الجنوبية للمدينة بين النيلين الابيض والازرق في شكل نصف دائرة • وقد قدر طوله بنحو سبعة آلاف متر عند الفيضان ونحو تسعة آلاف متر عند انخفاض النيل • وكان الحصن يتكون من خندق عريض يبلغ عمقه في أقصاه ١٨ قدما ، وقد كوم التراب الذي اخرج منه الى الداخل ثم بنى حائط سميك من الطين وجعل المزاغل ليكون سترا يقي العساكر من نار العدو ويمكنهم من اجادة التصويب ووضعت أهرام فارغة خلف الخندق مباشرة عثرة في سبيل العدو ، وعلى بعد ٣٠ مترا من الخندق غرزت في الارض أوتاد من الخشب محددة الاطراف ثم ربطوها بالاسلاك على هيئة شباك وعلى بعد ١٠٠٠ متر من الخندق وضعوا دانات ملؤها البارود والمواد الملتهبة في شكل الغام لتلتهب بمجرد اللمس •

وكان الطرف الغربي هو أضعف جوانب الحصن لان النيل يترك فجوة كبيرة عند انخفاضه • وفي أوائل ايام الحصار كانت هناك سفينتان مسلحتان تقومان بحراسة البقعة ، وكان من المقرر في اول الامر بناء طابية قوية من الحجر او الطوب الاحمر في هذا المكان ثم صرف النظر عنها بعد ان ارتفع البناء عن الارض وبدلا عنها أنشئت نقطة مراقبة للحراسة عند انخفاض النيل •

وكان للحصن ثلاثة ابواب هي باب الكلاكلة وباب المسلمية وباب برى • اما باب الكلاكلة فكان يدخل منه العربان الذين كانوا يجلبون اللبن والخضروات وقد اغلق هذا الباب عندما وصلت أنباء هزيمة هكس • ولما جاء غردون أمر بفتح الباب ثم عاد فقفله عند بدء الحصار • اما بوابة المسلمية فكانت أكبر الابواب وأوسعها ، وكانت توصل بباب كبير من

الحديد يرفع بالاوناش • وقد مرت بها الجيوش التي خرجت من المدينة للغزو • أما الباب الثالث فكان باباً صغيراً وقد اوصد منذ بداية الحصار لان طابية الانصار في برى كانت قريبة منه • وقد بنيت الطوابى حول المدينة • كانت هناك طابية المقرن في مواجهة جزيرة توتى وكان عليها مدفعان ، وقد قاومت هذه الطابية مقاومة عنيفة عند سقوط المدينة وكانت باقية حتى هدمها الانصار في سنة ١٨٩٧ لبناء طابية اخرى بالقرب من النيل ، وقد ظلت الاخيرة باقية حتى هدمت في سنة ١٩٣١ عند توسيع شارع النيل • وكانت هناك ثلاث طواب على الخندق وهي طابية الكلاكلة وطابية المقرن ، وفي الشرق بنيت طابية عند قصر راسخ وفي أم درمان أنشئت طابية على بعد ١٢٠٠ متراً من النيل وقد حفروا خندقين يحيطان بها ويصلان الى النيل •

### غردون :

كانت الامور في العاصمة وفي مصر تتطور بسرعة • وال ينفذ وراء وال وثورة في مصر ضد الطبقة الحاكمة ثم تفشل الثورة ويدخل الانجليز مصر ثم يظهرون على مسرح الحوادث في السودان تبعا لذلك • وفي الغرب يوالي الامام المهدي ضرباته القوية فينتصر على راشد والشلالي ثم يحتل الأبيض ثم ينتصر على هكس ويسحق جيشه سحقاً • لقد خلقت هذه الظروف بلبلة عظيمة ، وقد تمخضت البلبلة عن بلبلة جديدة هي بعثة غردون وسياسة الاخلاء ثم سياسة القضاء على الامام المهدي التي نادى بها غردون بعد ان فشلت سياسة التهدة •

وعندما بلغ غردون الخرطوم كان بها نحو ٥٠ ألف من المدنيين ونحو ٩ الى ١٠ آلاف من العساكر والضباط • وقد أعلن غردون سياسة الاخلاء وخلق السلطنات السودانية وعفا عن الضرائب وأدوات التعذيب فأحرقها علناً • وكان قد عزم على هدم الحصون التي أنشأها عبد القادر الا انه تركها بعد أن ألح عليه الأهالي • وقد بدأ رحيل المصريين ، وندب غردون

أحد أعوانه ليتولى امر الجلاء • وعسكرت أورطتان مصريتان في أم درمان تمهيدا للرحيل • وقد صار غردون دواما يعلن عن نواياه الطيبة نحو السودانين ونحو الامام المهدي نفسه ويمنى نفسه بالأمانى ولكنه استيقظ يوما من حلمه فاذا بطبول الحرب تدق بعنف واذا بالقبائل المجاورة للخرطوم تنحاز الى الامام المهدي وتستعد للزحف على المدينة • وجاءه رسول من عوض الكريم ابى سن زعيم الشكرية وابلغه انه لا يستطيع ان يتقلد منصب مدير الخرطوم الذي عرض عليه • وكان غردون قد خاطب الامام المهدي بخطاب وعرض عليه سدة كردفان واقامة علاقات ودية بينهما ، وارسل اليه هدية وقد جاء الرد فاذا بالامام المهدي يرفض الهدية ويعيدها ، ويعرض عليه بدلا عنها جبة الانصار المتواضعة ويرفض عروضه كلها ويدعوه للسلام والقاء السلاح •

وتتيجة لهذه الظروف اضطر غردون الى العدول عن سياسة الاخلاء والتهدة وبدأ يستعد للقاء الامام المهدي وصار شعاره ان لا بد من تحطيم المهدي • وقد أمر بالغاء رحيل الاورطتين الحريتين وصار يقوي دفاع المدينة للقتال ، وقد عمل على تجنيد الاهالي وتدريبهم ووزع قواته على طول خط القتال •

### الحصار :

ترك ابو قرجة قوة بقيادة محمد الطيب البصير في الجريف ، وتقدم هو بقوته الرئيسية حتى بلغ برى • بنى طابية في مواجهة طابية المدينة بينما شرع محمد الطيب في بناء طابية في الجريف وقد عسكر الطاهر ابن العبيد بدر في منطقة تقع بين ابى قرجة ومحمد الطيب وقد شرعت القوات الثلاث تقذف الحمم على المدينة •

وفي هذه الاثناء كانت بواخر غردون تقوم بمهمات على النيل الابيض فأرسل أبو قرجة صديقه أحمد فضلو على رأس قوة لبنى طابية قرب حلة الشجرة غير ان غردون وجه ضربة قاضية على الطابية وهدم حلة

الفرقان التي كانت تجاورها • وقد ظل المحاصرون في الجهات الباقية في قوة حتى ارتفع النيل وتمكن غردون من استغلال البواخر • وبعد سلسلة من الوقائع انحسر ابو قرجة وجماعته بعيدا عن المدينة وقد واصل غردون انتصاراته ونقل المعركة الى الجريف فانتصرت قواته ، ثم تقدمت القوات الى ام ضبان ولكنها هزمت هزيمة نكراء فاستعاد الانصار أنفاسهم قليلا •

وفي هذه الاثناء كان النجومي قد فرغ من حرب الدائر فندبه الامام المهدي على رأس قوة كبيرة تبلغ نحو اربعة آلاف وارسله اميرا عاما على المحاصرين • وقد التقى النجومي بابي قرجة في شكرالله ، ومن ثم زحفا على الخرطوم وقد بدأت بذلك المرحلة الثالثة من مراحل الحصار • وقد بنى النجومي طابية في الكلاكلة وجعل قيادته هناك ، بينما ترك العائلات مع ابي قرجة في حلة العرقان • وقد جعل عبد القادر مدرع امير الحسنيات في مواجهة بوابة المسلمية بينما جعل عبدالله النور في طابية برى • أما قوات الشيخ العبيد والشيخ المضوى فقد عسكرت في حلة خوجلى وقد عززها النجومي بالاميرين عبدالله ولد جبارة وابي بكر عامر •

وخرج الامام المهدي من الرهد في اغسطس سنة ١٨٨٤ قاصدا الخرطوم وقد بلغ تخوم ام درمان وعسكر في ابي سعد في أكتوبر • وبحلول الامام المهدي بدأت المرحلة الاخيرة من مراحل الحصار • وقد ركز الامام المهدي هجومه على نقطة ام درمان وحاصرتها قوة بقيادة حمدان ابي عنجة حتى سلمت في يناير سنة ١٨٨٥ •

### المدينة :

ومع الهزائم المتتالية وتناقم الموقف العسكري تضخمت مشاكل المدينة وقد بلغ القلق قمته عندما سقطت بربر وفقدت المدينة الاتصال بمصر • وقد واجه غردون هذه المتاعب باصدار المنشير ونشر الانباء

السارة وقد صنع نجمة سماها نجمة الحصار ثم وزعها على العسكريين ثم المدنيين . ولما نفذت النقود من الخزينة صار يقترض من التجار لدفع المرتبات ثم لجأ أخيراً الى طبع اوراق البون ، فكانت اول عملة ورقية في السودان . وقد توقف الاهالي عن قبولها فاجبرهم غردون عليها . ومن طريف ما يذكر أن بعضهم قد تمكن من طبع بونات مزورة بعد أن زور امضاء غردون وختمه ونقشها على القرع . وقد أخذ التجار في اخفاء الغلال في المطامير فشدّد عليهم غردون ، ووزع ما عندهم ثم وزع من مخزون الشونة . وقد جمع فقراء المدينة وظل يوزع عليهم حتى شح مخزن الغلال فاضطر الى اخراجهم من المدينة وقد تمكن من الحصول على بعض الغلال عندما هزم قوات ابي قرجة في الجريف وبرى ثم في سنار ، ولكن الناس اتوا عليها وانتشرت المجاعة في المدينة وصار الناس يأكلون الكلاب والحمير وكل ما تصل اليه اليد .

### النجدة الانكليزية :

تحت ضغط الرأي العام البريطاني أرسلت الحكومة الانكليزية قوة انكليزية لانقاذ غردون . وقد التقت هذه القوة في ابي طليح والمتمة بقوات الامام المهدي ، وتمكنت من التقدم بعد ان هزمتها وكان غردون قد ارسل عددا من البواخر تحت قيادة نصحي باشا ليوافيه باخبار الحملة .

### الهجوم :

بلغت انباء القتال في ابي طليح والهزيمة التي لحقت بالانصار معسكر الامام المهدي وخلقت بلبلة وقلقا . وقد اختلفت الآراء فقال البعض بالعودة الى كردفان ونادى البعض برفع الحصار عن الخرطوم ، والتوجه شمالا لملاقاة الانجليز . وطالب البعض الآخر بتوجيه ضربة قاضية على المدينة لاحتلالها ثم الاستعداد للقوات القادمة . وقد انتصر الرأي الاخير وهاجمت قوات الامام المهدي المدينة مركزة هجومها على الطرف الجنوبي الغربي الذي انكشف بعد ان انحسر الماء ، وبعد قتال

مرير سقطت مدينة الخرطوم في يد الامام المهدي وقتل غردون وقطع رأسه  
وكان ذلك في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ •

استبد القلق بأهالي الخرطوم وبلغ اقصاه عندما بلغتهم هزيمة هكس  
وبات الناس في خوف شديد • ولما جاءتهم أنباء القاهرة بعودة الجنرال  
غردون حاكما عاما للسودان استرد الناس أنفاسهم واستبشروا خيرا لما  
كان لهذا الجنرال من سمعة عالية • وقد عاش الناس على امل عظيم وفي  
حلم الانتصارات المرتقبة حتى حلت ركابه السعيدة وخطب فيهم قائلاً :

« جئتكم وحدي غير مصحوب بالعسكر والاسلحة اعتمادا على  
معونة « الله وولائكم للحكومة » • واعلن العزم على جلاء القسوات  
المصرية عن البلاد واقامة السلطنات السودانية والاعتراف بالتأثير الذي  
توقعوا قهره والقضاء عليه سلطانا على كردفان ، وأشياء اخرى كثيرة  
قالها الجنرال فلم يفهمها أهل الخرطوم ولا وجدوا لما يسمعونه مكانا في  
عالم الواقع والحقيقة • وفي يأس سعوا اليه لعله يعود الى الواقع الذي  
يعيشون فيه وألحوا عليه واكثروا السعي والرجاء فابقى على الحصون  
وابطأ في جلاء القوات قليلا • وقد ظل الناس في حيرة من أمر الجنرال  
وأمر انفسهم حتى زحف الانصار على المدينة وانتصروا على قسوات  
الحكومة في أطرافها وضربوا حولها الحصار وعندئذ عبر الناس عن  
غضبهم ومعارضتهم لسياسة غردون واستيائهم لما بلغت اليه الحال •

وقد هاج الناس وماجوا لاعتقادهم ان قائدي قوات الحكومة ،  
السعيد حسين الجميعابي والحسن ابراهيم ، قد خانا العهد لتواطئهم مع  
الانصار وأديا الى هزيمة الحلفاء ومقتل عدد كبير من العساكر ، وقد  
ذهبت المظاهرات الهادرة الى السراي طالبة برأسيهما ، ولعل ذلك كان  
اول عهد الناس بالمظاهرات في هذه البلاد ، وقد تمت محاكمة القائدين  
بالفعل واعدموا •

وبعد واقعة الحلفاية اعتدى على حياة استيوارت نائب غردون

وساعده الايمن باطلاق الرصاص ولكنه نجا ، وفي الحال الغى غردون المجلس الاهلي الذي كونه من أعيان المدينة للنظر في قضايا المواطنين وعهد لمحمد نصحي باشا بالأمن فنظم ديوان المحافظة ووضع حراسة عسكرية في الشوارع والاسواق والمعادي ودور الحكومة ثم وجه منشورا للاهالي يحذر فيه من اطلاق الاسلحة النارية داخل المدينة ومنع التجول ليلا . وقد اتخذت اجراءات حاسمة للقضاء على اللصوص الذين اقتشروا في المدينة وسطوا على البيوت ليلا لما ادركوا ضعف الامن واضطراب الاحوال .

وقد دارت حرب كلامية بين المهديين وبين غردون وجماعته وتبادل الطرفان الرسائل وقارعا الحجة بالحجة والدليل بالدليل وتبادلا التهديد والوعيد وقد بلغ ما كتبه المهدي لأهالي الخرطوم رسالتين وهذا بخلاف ما كتبه لبعض الشخصيات خاصة وبلغ ما كتبه لغردون خاصة ٨ رسائل .

وقد نقل نعوم شقير بعض هذه الوثائق في تاريخه كما ان مصنفى مجموعات الرسائل كانوا ينقلون في مصنفاتهم ما يقفون عليه ومن الممكن جمعها من هذه المصادر مجتمعة . وقد وجه النجومى وابو قرجة والامراء المحاصرون للخرطوم عددا من الخطابات الى غردون ومساعددين ولم ار مصدرا نقل هذه المحررات ولكنني وقفت على أصولها في المتحف البريطاني . ولما بلغ النجومى اطراف الخرطوم وجه لأهالي الخرطوم خطابا تكلم فيه عن المهدي والمهدية فانبرى له علماء الخرطوم واعدوا رسالة يدحضون فيها مهدي الامام المهدي وينكرونها . وقد طبعت هذه الرسالة بمطبعة الخرطوم الاميرية ووزعت على الملأ . وجاء في آخر الرسالة اسماء العلماء الذين أعدوها وهم محمد الامين الضير والشيخ شاكرو وحسين المجدى ومحمد خوجلي والشيخ موسى . وقد غفلت مصادر المهدية المطبوعة عن هذه الوثيقة المهمة ولكن توجد منها عدة نسخ في دار الوثائق المصرية ، ولم أر نسخا لها في غير هذا المكان .

وقد انفرد الشيخ محمد الامين الضير برسالة انكر فيها مهديـة

المهدي • وقد طبعت الرسالة بمطبعة الحكومة الحجرية في ١٢٩٩ هـ •  
وهناك نسخة وحيدة منها ، في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية •

وفي أواخر أيام الحصار بات الناس في قلق عظيم وصاروا في موقف يفقد فيه ضعفاء النفوس ، وهم كثيرون ، سند العقل والضمير ولا يستقرون على شيء • فها هنا مدينة بلغ بها التعب مبلغه من جراء الحصار والمجاعة والارهاق المادي والمعنوي معا ، وفي الخارج جحافل المهدي الهادرة التي احكمت الحصار على المدينة ، ومن الشمال تتقدم الحملة الانجليزية لانقاذ المدينة • وقد بات الناس يوازنون بين هذه وتلك ولمن عسى أن يكون النصر والظفر • ولقد كثر الهاربون من المدينة عندما نزل المهدي في أبي سعد لانهم ظنوا ان لا محالة من سقوط المدينة في يده • وقد كتب اليه جماعة من كبار المدينة وأعيانها كتابا يقولون فيه انهم مؤمنون برسالته ومؤيدون له وانهم ساعون في اضعاف الحكومة بكل جهد وينتظرون الفرصة للالتحاق به ، وقد ضبط الكتاب وألقى على اصحابه القبض ، وكان منهم ابو بكر الجاركوك واحمد جلاب مدير الخرطوم وادريس بك النور والفضل ابراهيم ومحمد خوجلي قاضي عموم السودان والشيخ محمد الامين الضير • وقد وقفت على خطابات المهدي التي يرحب فيها بخروج بعض الهاربين كما وقفت على وثائق تدل على ان بعض أعيان المدينة كانوا يعملون لمؤازرة المهدي واخراج الناس من المدينة •

ولما حملت الانباء انتصار الحملة الانجليزية على الانصار في ابي طليح عادت كفة الميزان وصار بعض الناس يهربون من معسكر المهدي الى المدينة الجائعة لعلهم يجدون بعض النصيب عندما ينتصر الانجليز على المهدي •

وقد رحب المهدي بالهاربين ترحيبا حارا ووجه منشورا الى جماعاته يحثهم فيه على الترحيب بالمهاجرين وعدم الانتقام منهم لموتاهم • وقد طلب الى احمد سليمان امين بيت المال احصاء الذين يخرجون من



المدينة وتقديم سبل العيش لهم ، ولما احصى الامين هؤلاء والمساكين الذين طردهم غردون وجددهم يبلغون المئات فأنشأ لضعفائهم ملجأ يقيمون فيه ويقيهم من العوز والسؤال ، وألحق القادرين منهم برايات الجيش ، وكان من الاخرين العطا محمد الدود الذي عين اميرا على السروراب ولحق بأحمد الامين ام حقين الذي كان معسكرا في السبلوقة ليمنع وابورات الحملة الانجليزية من الاجتياز ، والعطا هذا من المتهمين بافشاء سر الضعف الذي اعتري الخندق من جهة الغرب وتشجيع المهدي على الهجوم الذي قام به على المدينة •

وقد دارت حرب عنيفة بين جواسيس غردون وجواسيس المهدي ، وقد تمكن الجانبان من الوقوف على ما يجري في الطرف الآخر عن طريقهم كما تمكنوا من نقل الرسائل وتوصيلها خارج الحدود ونشر الاشاعات • وكان غردون كلما أحس بضعف في موقفه العسكري يعمد الى نشر الاعلانات عن الحملة الانجليزية وقرب وصولها ليرفع من روح العساكر المعنوية وليبث الخوف في نفوس الانصار وفي نفس الوقت كان يتصدى له عملاء المهدي والمؤيدون له فينشرون الاخبار المناوئة ويؤكدون للناس كذب غردون ويصفون قوة المهدي وجيوشه التي لا تقهر • وكان لغردون كاتب يدعى ابراهيم رشدي وثق فيه غردون وأولاه ثقة عظيمة وأطلق يده في الامور فانقلب هذا يبيع الوظائف ، ولما ادرك عملاء المهدي ذلك ابتاعوا بعض الوظائف منه وتسلموا الى أسرار الحكومة وظلوا يمدون المهدي بها • ولما كتب المهدي منشوره المشهور الى أهالي الخرطوم استنسخ الكتاب عددا وافرا منه واعطوه لاحد الجواسيس فوضعها في اناء من صفيح على شكل ابريق وقطع به النيل الابيض سباحة بالليل ودخل المدينة وألقى بالمنشورات في الأزقة والطرقات وقذف بها في المنازل ثم عاد أدراجه • واحسب ان ذلك كان أول عهد الخرطوم بالمنشورات المحظورة التي توزع خفية ، وهكذا سبق الانصار اخوانا لهم جاءوا من بعدهم اتفقوا معهم في الطريقة والوسيلة وان خالفوهم في المذهب والرأي •

وكان من اهم المناوئين لغردون والمتحمسين لقضية الثورة المهديّة رجل يدعى احمد العوام ، وهو مصري الجنسية ومن خطباء الثورة العراقيّة ، وقد شاء له القدر ان يواصل جهاده السياسي الذي بدأه في مصر فتبنى قضية الثورة السودانية وظل يدافع عنها حتى سقط شهيدا . وقد أشار العوام الى هذا الموقف في رسالته فقال: « فاني طال ما جادلتهم ( يقصد علماء الخرطوم ) بالحق سرا ونصحت لهم حتى في دار الحكومة جهرا على يد وسمع من حضر من كتبة الديوان في ليلة النصف من شعبان هذه السنة ( سنة ١٣٠١ هـ ) رجاء ان يسعوا في ايجاد الصلح بين الطائفتين المتحاربتين » . وقد قبض عليه غردون بتهمة الاثارة ومساندة حركة المهدي ووضعه في السجن وكبله بالحديد ثم عفا عنه بعد ان توسط لديه ابو بكر الجاركوك والحق معاونا في الحكمدارية براتب قدره ١٥٠٠ قرش في الشهر ، وهو مبلغ كبير بارقام ذلك الوقت ، ويبدو ان غردون حاول اغراءه بهذا السبيل عن مناصرة قضية المهدي . ولكن العوام ظل على عهده ومضى يثير الناس ، ولما بلغ المهدي نواحي الخرطوم ازداد نشاطه وظل يكذب علنا دعاوي غردون عن قرب وصول النجدة الانجليزية .

ثم اقدم على تدمير مخزن الذخيرة الذي كان يجاور منزله وذلك بان أغرى امرأة بالقاء جمرة على المخزن من شباك ، غير ان الحراس تنبهوا للامر قبل ان يستفحل ففشلت الخطة وقبض على المرأة ودلت هي على العوام ، ولما فتش منزل العوام عثر فيه على قصائد تحض على الثورة وعلى رسالته المشهورة وقد حوكم العوام وأعدم ، قيل أعدم في منزله ليلا وقيل اعدم في قصر راسخ بالطرف المقابل للمدينة . وقد وقف الامام المهدي على هذه الرسالة وأجازها ، وهي احدى ثلاث رسائل طبعت بمطبعة المهديّة اما الاخرى ففهما رسالة الشيخ ابراهيم زهرا ورسالة الشيخ حسن سعد محمد العبادي ، وقد دافعا فيهما عن المهدي وعقدا مقارنات بين علاماته وصفاته وبين العلامات والصفات التي ذكرها القوم عن المهدي المنتظر وبالذات الشيخ محيي الدين بن عربي الذي افرد كتابا خاصا لهذا الموضوع . اما العوام فلم يتكلم عن المهدي ولا المهديّة

عن هذا الوجه التقليدي وانما تعرض الى قضايا فكرية وسياسية كانت تشغل بال المفكرين السياسيين الذين ناصروا الثورة العراقية مثل امامة الخليفة العثماني وشرعية خلافته وفساد نظامه والوضع السياسي في مصر وتسلبت العناصر الاجنبية على مصر وفلاحيتها ، ويبدو لي ان العوام كان يناصر الثورة المهدية من هذه الزاوية ، اي طريقا للخلاص من النظام العثماني في تركيا والولايات التابعة له لا تأييدا لفكرة المهدية ذاتها ، فهو يدين الوضع السياسي في تركيا ومصر ويحمل على السلطان عبد الحميد واسرة محمد علي ويحرض على الثورة عليهما ، ولكنه يتفادى الكلام عن المهدي ويعلن انه يرجئه حتى يلتقى به ، ولست أرى في هذا العذر الا هربا ومداراة ، وقد غلب عليه الصدق عندما قال في الصفحة التاسعة : « وان يمكن لنا ( الله ) ديننا الذي ارتضاه لنا ديننا وفاء بصادق وعده وتصديقا لحديث نبيه سواء كان بالامام المهدي هذا عليه السلام . فقد ظهرت كواكبه ولاحت بوارقه ، او بغيره من عباد الله الصالحين » . فالمهم عند العوام ليس شخص القائم بالامر وانما المهم هو الامر نفسه . وعلى أي حال فقد سقط العوام شهيدا قبل أن يلقي المهدي وقام بالمهمة التي ارجأها الشيخ حسين زهرا فأتم الفصل الخامس وعدد مناقب الامام المهدي .

وقد سقطت المدينة في يد المهدي في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ ، وبسقوط المدينة ومقتل الجنرال غردون لم يبق للحملة الانجليزية التي أشرنا الى قدومها لنجدة غردون هدف فعادت مسرعة الى الشمال بينما زحفت على اثرها جيوش المهدية ، وبانسحاب الجيش الانجليزي هذا خلا الجو للمهدي واعوانه فاقبلوا بجدة الى العمل . وكعهدنا بهم بعد كل انتصار كبير انصرفوا الى التنظيم الداخلي واعطوه الجانب الاكبر من اهتمامهم ، وكانت مشاكل مدينة الخرطوم من أولى المشاكل التي تصدوا لها . وقد اعلن المهدي مصادرة أموال الميرى وأموال اعيان الخرطوم وكبار الموظفين وقصورهم كما صادرة المواضع التي تنتج منها المصالح العامة كالدكاكين والوكالات والطواحين التي على شاطئ النيل وطلب اخلاءها من السكان

لتؤدي فيها مصالح المسلمين • وقد رأيت كتابا يأمر فيه أميرا مقربا اليه  
باخلاء منزل بجوار الترسانة ليسكن فيه بعض عمال الترسانة •  
وقد قام احمد سليمان امين بيت المال بحصر الغنائم وجمعها فكانت  
شيئا وافرا وان كان يقال ان كنوز الخرطوم ما زالت حبيسة الارض لان  
اهلها ضنوا عن الافصاح عنها للفتاحين •

وقد قتل في يوم الفتح خلق كثير ، ويعجب المرء من الوصف الذي  
يسوقه الذين شاهدوا الواقعة كيف نجا من نجا وسلم من القتل ، وقد  
وقفت على خطاب من المهدي الى الخليفة عبدالله يقول فيه ان ستمر  
الجيف التي تملأ الشوارع واجب ويدعوه الى حث أهل القتلى لدفن  
قتلاهم • وكان من المشاهير الذين قتلوا في ذلك اليوم الشيخ حسين  
المجدي رئيس اساتذة المدرسة الاميرية والمدرس بجامع المدينة والشيخ  
فايد شيخ السجادة الاحمدية والشيخ موسى مفتي المحاكم الشرعية  
والشيخ محمد حتيك قاضي القضاة ، وذلك بخلاف الجنرال غردون  
وبعض القناصل • أما الشيخ الضير فقد دخل عليه ابنه علي وكان اميرا  
في جيش المهدي ، وصحبه الى عبد الرحمن النجومي القائد الفاتح ثم الى  
الامام المهدي ثم الى الخليفة عبدالله ليأخذ له العفو ، ويذكر ابراهيم  
فوزي أن الاخير قد أغلظ له القول • وقد مات الضير بعد ذلك بقليل •  
ولو أن قادة الفتح أدركوا ما أدركه علي بن الضير وسعوا الى المحافظة  
على كبار الخرطوم وأعيانها لما خولف امر المهدي الصريح بعدم الاعتداء  
عليهم ولما قتلوا على يد العامة •

وكان من القادة الذين أسروا ابراهيم باشا فوزي الذي كان محافظا  
للخرطوم ، وقد بقى في ام درمان حتى الفتح وقدر له ان يكتب كتابا عن  
حياته وذكرياته في السودان • وكان منهم فرج باشا الزيني وسرور بك  
بهجت ، وقد حكم عليهما بالاعدام انتقاما لمقتل السعيد باشا الجميعابي  
وحسن باشا ابراهيم الذين حكم عليهما الزيني بالاعدام اثر اتهامهما بالخيانة  
في واقعة الحلفاية • وقد قبض ايضا على حسن بك البهنساوي الا انهم

اخذوا سبيله بعد أن صادروا أمواله فاقام في ام درمان مدة ثم تمكن من الهرب الى مصر عن طريق الحبشة ليواجه فيها تهمة الخيانة لاعتقاد شاع عندئذ بأنه سهل للانصار احتلال المدينة • وكان من الذين نجوا ابراهيم البردنين وقد اتهم فيما بعد بأنه أرشد الانصار الى بيوت الاغنياء ودلهم على الكنوز المدفونة ويبدو من المكانة التي أعطيت له انه لم يكن بعيدا عن هذه المهمة •

وكان من أدق المشاكل التي واجهت المهدي بعد الفتح نساء المدينة، وقد ذهب ابراهيم فوزي ، وهو رجل يغالى في وصف الحوادث ، الى انهم قسموا الحرائر الى قسمين ففرزوا الابكار الحسان وجعلوهن للمهدي واعوانه بينما سرحوا غيرهن • وقد روى آخرون نفس القصة باختلاف في التفاصيل والدرجة ، ولكن الذي يظهر لنا من الاوامر التي أصدرها المهدي بشأنهن انه منع زواج الانصار من حرائر الخرطوم ، وقد أمر بان تشدد العقوبة على كل من يخالف هذا الامر • وقد أمر بان يرد كل من لها زوج الى زوجها وكل من لها ولي الى وليها ، اما غيرهن فيبقين عند امين بيت المال حتى ينظر في أمرهن • وقد رأيت خطابا منه الى امين بيت المال يحثه فيه على معاملتهن بالحسنى كما وقفت على امر منه الى أمير كبير يطلب اليه اعادة زوجة احد كبار الضباط الى ذويها ، وفي خطاب آخر يذكر المهدي للخليفة عبدالله ان بعض الانصار قد تعدوا على زوجة ابي بكر الجاركوك فاستجارت المرأة به وقد وجه المهدي نظره ونظر الخلفاء والامراء الى مثل هذه الحالات وطلب توقيع عقوبات صارمة على من يعتدون على حرائر الخرطوم • على ان المهدي وكبار أعوانه قد تزوجوا بعض نساء الخرطوم ، وقد اعلن المهدي في خطاب الى اتباعه انه خطب آمنه بنت الجاركوك ثم تزوجها ، وقد طلب في خطاب تسليم عوائل الجاركوك الى ذويهم ، ومثل هذا كثير •

وقد نزل كبار الانصار في قصور الدولة وقصور الاعيان في حي المسجد • أما أهالي الخرطوم فقد جمعوا في الطرف الجنوبي من المدينة •

وقد خصص قصر الجاركوك للمهدى الذي كان يحل به كلما زار المدينة •  
 وقد وقع الاختيار على هذا القصر بالذات لقربه من المسجد ولاتساعه •  
 أما الخليفة عبدالله فقد نزل في السراي واحتكر حديقته • وقد نزل الخليفة  
 شريف في مبنى الكنيسة الكاثوليكية بينما احتل ابو قرجة ديوان المديرية •  
 وقد باشر الانصار بهمة ونشاط ادارة مصالح المدينة التي يحتاجون اليها،  
 فعين المهدي قريبه أحمد محمد حاج شرفى لياشر ادارة الحدائق كما عين  
 خاله طه محمد لياشر ادارة الترسانة ، وعين عبد الرحيم الطريفي  
 للمحافظة على الجبخانه ومباشرة تعبئة الخرطوش وتصليح آلات الحرب •  
 وقد دارت المطبعة بعد قليل وصدرت مناشير المهدي وتعليماته مطبوعة •

وقد عين خالد العمرابي مسئولا عن أهالي الخرطوم الذين نجوا من  
 المذبحة ، فجمعوا أولا لحصر الممتلكات والغنائم ثم اطلق سراهم وخصص  
 لهم الطرف الجنوبي من المدينة • وفي مايو سنة ١٨٨٥ أمر الخليفة كل  
 القاطنين في الخرطوم باخلاء المدينة والانتقال الى ام درمان ، وقد استثنى  
 الاشراف من هذا الامر وكلفوا بطرد من يبقى من الاهالي وسمى ابراهيم  
 البردنين لمراقبة المتخلفين ورفع أمرهم الى الامير عبد الحلیم مساعده ويبدو  
 ان الخليفة كان على الاقل في أول الامر حريصا على الابقاء على مدينة  
 الخرطوم ، فقد وقفت على كتاب منه الى احمد سليمان يقول فيه :  
 « بعلمك اني نبهت غير ما مرة بعدم تهديم منزل واحد من منازل الخرطوم  
 على وجه العموم من غير استثناء واكدت في ذلك غاية التأكيد واعلمتك  
 بانه اذا حصل من اي احد هدم بيت واحد فاذا لم تستطع منعه خابرتني  
 به وما تركت لك في هذا الخصوص شيئا • وقد كنت اظن انك تقوم  
 في تنفيذ هذا الامر بهمة عالية ولكن بحضوري بالخرطوم ومناظرتي اليه  
 وجدت كثيرا من المنازل مهدوما بل وجدت البلد في بعض المحلات صار  
 خربا وكل ذلك حصل وانت بالبلد لاصقت من ارتكب ذلك ولا اخبرتني  
 باقل شيء في هذا الخصوص • على انه لم يخف على الله أمر الناس  
 الذين اجرؤا ذلك لما انه ظاهر على مساكنهم وقد كان الواجب عليك  
 واللائق بحالك الاهتمام بتنفيذ هذا الامر اول صدوره منا لما انك تعلم

انه لا قصد لي غير اجراء ما فيه مصلحة الدين العمومية ، وحقق تلغرافك هذا ان يأتيني منك اولا قبل خراب البلد لامكان المداركة » •

لقد صدر هذا الخطاب في اغسطس سنة ١٨٨٥ ، وظاهر منه ان الخليفة لم يكن راضيا عن التخریب كما انه يتهم بعض الاشراف ويأخذ على احمد سليمان سكوته على ذلك • وفي ذلك ما يعني ان الاشراف كانوا يقطنون الخرطوم حتى ذلك التاريخ ، كما يبدو ان بعضهم قد بدأوا يبنون المنازل في المدينة الجديدة ، ولكن هل كان من المتوقع ان تبقى المدينة وقد اتخذ المهدي أم درمان قاعدة • ان انشاء مدينة حديثة بجوار مدينة قديمة لا بد ان يسرع بخراب القديمة وزوالها ، لان المدينة الحديثة تنشأ على حساب المدينة القديمة سواء كان ماديا بأخذ طوبها وأحجارها واخشابها كما وقع لمدينة سوبا عند انشاء الخرطوم وللخرطوم عند انشاء ام درمان ، او بانتزاع الاهمية التجارية او الحضارية كما وقع لمدينة الفسطاط عند انشاء القاهرة ، ولمدينة سواكن عند انشاء بورسودان ولمدينة بربر التاريخية التي اضعفها ظهور عطبرة ، وفضلا على ذلك فان اهمال امر الخرطوم يبدو امرا منطقيا بعد الخلاف الذي وقع بين الاشراف والخليفة لان سكانهم هناك يرمز الى عصبيتهم والى مكاتتهم العالية • ومن الملاحظ ان الانصار كانوا على وجه العموم يعزفون عن المدن القديمة لكونها لا توافق طبيعة تجمعاتهم العسكرية والقبلية وتقسيماتهم، وقد ظل الانصار بعد فتح الایض في معسكر الجزارة الذي انشأوه عندما كانوا محاصرين للایض ولم يدخلوا الایض الا بعد الحريق الذي أتى على المعسكر ، وهذا شبيه بما فعله المحاربون العرب عندما انشأوا مدينة الكوفة على مبعدة من مدينة الحيرة • ويجب ان نذكر ان الخليفة نغم في هذه الفترة على مدينة اخرى قاومت الانصار مقاومة عنيفة وهي سنار وأمر بتخريبها تخريبا تاما •

جديدة او ان يجعل من المكان الذي اختاره عاصمة وانما كان غرضه ان يعسكر في مكان فسيح ريثما يوزع انصاره للجهاد في الجهات المختلفة •

وقد قيل في مناسبة اختيار الموضع ، ان الامام المهدي خرج في جماعة من اصحابه وهو على جمل أطلق له العنان فصار الجمل من ابي سعد شمالا حتى برك في الموضع الذي به القبة الان • وقد وقع اختيار المهدي على الموضع وبني حجرة من الطين في المكان الذي برك فيه الجمل ، ولما توفي الامام دفنه أصحابه في حجراته أسوة بما فعله الصحابة عندما دفنوا الرسول في حجرة السيدة عائشة التي مات فيها • وقد أقام الخليفة عبدالله القبة فوق هذا الموضع • وقد أقام اصحاب المهدي الكبار منازلهم حول منزل المهدي فبنى الخليفة عبدالله وكبار أمراء رايته الى الجنوب من منزل المهدي وبني الخليفة شريف والخليفة على الحلو وكبار أمراء رايتهما بالناحية الشمالية • أما الجانب الغربي فقد خصص ليكون المسجد • وقد تسابق الانصار فوفدوا الى المكان وأقاموا فيه المنازل بالقش والجلد والشكاب وما اتفق لهم من المواد حتى تحول المكان بسرعة الى معسكر كبير •

اطلق المهدي على هذا المعسكر اسم البقعة وهو اسم درج المهدي على اطلاقه على الاماكن التي يعسكر فيها • وبروح التفاؤل والاعتزاز والتبرك كان يقال البقعة المباركة والبقعة الطاهرة • وعرف الموضع أيضا بدار الهجرة ، وهذا هو الاسم الذي نقشه المهدي على العملة التي ضربت في عهده ، وقد طوى النسيان هذا الاسم فيما طوى بعد ان تحول المعسكر الى مدينة كبيرة • وبدافع الاعتزاز واليمن وصف الانصار مدينتهم بقولهم: بقعة ام درمان أمان الخايف ما ياباها غير الخايف ، وقالوا ايضا « ام درمان » ويعنون بذلك مكان الدر المأمون • وقد أشاروا اليها في مكتوباتهم بأسماء اخرى كمدينة المهدي ودار الفلاح ومركز الارشاد وما الى ذلك من الاسماء الدالة على الاعتزاز والتفاؤل •

وقد توفي الامام المهدي بعد انتقاله الى ام درمان بقليل • وتولى



تلقائيا في هذه المرحلة التي اضحت فيها عاصمة بدلا من مدينة الخرطوم •

واسم ام درمان اسم قديم ، وقد وقفت عليه في وثائق ترجع الى العهد السنارى ، وقد ذكره ود ضيف الله المتوفى ١٢٢٤ هـ في معرض كلامه عن الشيخ حمد ولد ام مريوم ، وفي اماكن اخرى مما يعني ان الاسم كان معروفا في زمنه ، بل هناك من الروايات عن اصل الاسم ما يفيد انه يرجع الى عصر العنج ، اي العصر السابق لعصر الفونج • وقد ذهب الناس في تفسير أصل هذا الاسم مذاهب شتى • وأكثر هذه المذاهب رواجاً هو القول بأنه راجع الى امرأة كانت تسكن الجهة ولها ولد يدعى درمان • وقد ذهب قوم الى ان هذه المرأة كانت بنت أحد ملوك العنج وانها كانت تسكن منزلا مبنيا بالحجر ومحاطا بسور متين وذكروا ان آثار هذا المنزل كانت ظاهرة بحي بيت المال الى وقت قريب •

### نشأة المدينة:

عندما سقطت مدينة الخرطوم كان معسكر المهدي في ابي سعد ، الى الجنوب من ام درمان ، وقد زار الامام المهدي مدينة الخرطوم عدة مرات كان ينزل فيها في قصر ابي بكر الجاركوك الذي خصص له غير انه لم يقيم بالمدينة اقامة دائمة • ويقال انه ختم احدى خطبه الاخيرة بمسجد الخرطوم بقوله تعالى : « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان مكروا لتزول منه الجبال الى قوله هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر اولو الالباب » • سورة ابراهيم الايات ٤٥ - ٥٢ •

وقد اشار المهدي بذلك الى انه لا يعتزم أن يتخذ عاصمة الترك مقرا له ، وقد سبق له ان رفض الانتقال الى مدينة الالباب عندما سلمت له ، وبقي معسكرا باتباعه في بقعة الجزيرة التي أسسها عندما كان محاصرا للالباب حتى اتى حريق هائل على المعسكر واضطر الى الانتقال الى المدينة • ومن المحقق ان المهدي لم يكن يرمي الى انشاء مدينة

جديدة او ان يجعل من المكان الذي اختاره عاصمة وانما كان غرضه ان يعسكر في مكان فسيح ريثما يوزع انصاره للجهاد في الجهات المختلفة •

وقد قيل في مناسبة اختيار الموضع ، ان الامام المهدي خرج في جماعة من اصحابه وهو على جمل أطلق له العنان فصار الجمل من ابي سعد شمالا حتى برك في الموضع الذي به القبة الان • وقد وقع اختيار المهدي على الموضع وبنى حجرة من الطين في المكان الذي برك فيه الجمل ، ولما توفى الامام دفنه أصحابه في حجرته أسوة بما فعله الصحابة عندما دفنوا الرسول في حجرة السيدة عائشة التي مات فيها • وقد أقام الخليفة عبدالله القبة فوق هذا الموضع • وقد أقام اصحاب المهدي الكبار منازلهم حول منزل المهدي فبنى الخليفة عبدالله وكبار أمراء رايته الى الجنوب من منزل المهدي وبنى الخليفة شريف والخليفة على الحلو وكبار أمراء رايتهما بالناحية الشمالية • أما الجانب الغربي فقد خصص ليكون المسجد • وقد تسابق الانصار فوفدوا الى المكان وأقاموا فيه المنازل بالقش والجلد والشكاب وما اتفق لهم من المواد حتى تحول المكان بسرعة الى معسكر كبير •

اطلق المهدي على هذا المعسكر اسم البقعة وهو اسم درج المهدي على اطلاقه على الاماكن التي يعسكر فيها • وبروح التفاؤل والاعتزاز والتبرك كان يقال البقعة المباركة والبقعة الطاهرة • وعرف الموضع أيضا بدار الهجرة ، وهذا هو الاسم الذي نقشه المهدي على العملة التي ضربت في عهده ، وقد طوى النسيان هذا الاسم فيما طوى بعد ان تحول المعسكر الى مدينة كبيرة • وبدافع الاعتزاز واليمن وصف الانصار مدينتهم بقولهم: بقعة ام درمان أمان الخايف ما ياباها غير الخايف ، وقالوا ايضا « ام درمان » ويعنون بذلك مكان الدر المأمون • وقد أشاروا اليها في مكتوباتهم بأسماء اخرى كمدينة المهدي ودار الفلاح ومركز الارشاد وما الى ذلك من الاسماء الدالة على الاعتزاز والتفاؤل •

وقد توفى الامام المهدي بعد انتقاله الى ام درمان بقليل • وتولى

الخليفة عبد الله الامر وصار يعرف بلقب خليفة المهدي . وفي عهد  
الخليفة استمر توسع المدينة بينما بدأت المنازل المبنية بالطين والطوب  
الاحمر والحجر تحل مكان منازل القش والجلد . وصار المكان يتحول  
الى مدينة دائمة بعد ان كان معسكرا للهجرة . ففي سنة ١٨٨٥ ، وهي  
السنة التي توفي فيها الامام المهدي ، بنى الخليفة عبدالله بيت المال  
والسجن المعروف بالساير . وفي سنة ١٨٨٧ شيد الخليفة الدور الارضي  
من منزله بسواد أحضرها من مدنة الخرطوم ، وقد بنى عليه الدور الثاني  
في سنة ١٨٩١ . وفي سنة ١٨٨٨ شيد بيت الامانة . وهو مخزن كبير  
للسلاح ومعدات الحرب ، وقبة الامام المهدي . وبدأ بناء سور المدينة  
الذي أحاط بقلب المدينة حيث قبة المهدي ومنازل الخلفاء وحرس الخليفة  
وعصبيته والمصالح العامة وفي سنة ١٨٨٩ احاط المسجد الجامع بسور  
عظيم .

وقد بلغ امتداد المدينة ما بين طابية ام درمان وشمبات ، وقد قدر  
لحوله جنوبا وشمالا بنحو ستة أميال وقدر عرضه شرقا وغربا بميلين .  
وقد أخذت المدينة هذا القدر من الاتساع طولا لان الناس كانوا يفضلون  
قرب النيل لسهولة جلب الماء . وقد قدر سكان المدينة قبل مجيء أهل  
الغرب بما بين ١٥ الف و ٢٠ الف ، وقد قدر في سنة ١٨٩٥ بأربعمائة الف  
نسمة .

وفي قلب المدينة تقع قبة المهدي ، وبغربي القبة المسجد الكبير وبين  
المسجد الكبير والقبة كان جامع الصفيح . وتكاد هذه البقعة تقطع  
المدينة الى قسمين او جناحين ، الجناح الجنوبي وهو جناح الخليفة  
عبد الله وأقربائه وحرسه وأهل الغرب عامة ، والجناح الشمالي وهو  
جناح الخليفة علي والخليفة شريف وأهل البحر عامة . وكان السوق  
الكبير يقع في الحي الاخير ، وقد نصبت المشانق في هذا السوق . وكانت  
المصالح العامة كالسجن وبيت المال وبيت الامانة على مقربة من حي  
القبة . وقد أحاط الخليفة ذلك الجزء الذي فيه المصالح ودور الدولة  
ومنزله ومنطقة حرسه وأهل عصبيته بسور عظيم ظل يبنيه بالحجر من

سنة ١٨٨٨ حتى سنة ١٨٩٥ •

ويبدأ السور من القبة ويسير شمالا نحو ١٥٠٠ ياردة ثم يسير الى الجنوب نحو ٧٠٠ ياردة حتى البوابة الشرقية الكبيرة ثم يستمر الى الجنوب نحو ٩٠٠ ياردة • وكان من المقدر ان يسير السور الى الغرب ثم الى الشمال حتى يبلغ القبة غير ان ظروف الدفاع ومواجهة الجيش الفاتح الذي كان يتقدم نحو أم درمان قد حالت دون اتمامه • ومن الملاحظ ان المسجد الجامع لم يكن ضمن المباني المحاطة بالسور ، وما ينبغي للمسجد ان يكون كذلك لانه لكل المسلمين •

وفي الطرف الجنوبي من المدينة كانت الطابية التي بناها الجنرال غردون ، وقد حولها الانصار الى معسكر للجهادية وسموها الكارة وكان للجهادية مسجد خاص لبعد المسافة بين الكارة وبين مسجد المدينة • وكان هناك شارع طويل يصل بين الطابية وبين القبة ، وكان هنا شارع آخر من القبة حتى العرضه يسير فيه الخليفة في موكب عظيم الى مكان العرضة لاستعراض جيشه ثم يعود منه وكان السكان يدفنون موتاهم داخل المدينة ثم انقلبوا يدفنون موتاهم في الخلاء الواقع شمال العرضة • وعلى العموم فقد قامت المدينة على عجل ودون تخطيط وبنى الناس دورهم حيثما اتفق لهم ، وقد وصفت شوارع المدينة بالضيق والفوضى • وقد أمر الخليفة ففتحت شوارع واسعة طويلة تقطع المدينة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا •

تمتد مدينة ام درمان شمالا وجنوبا في محازاة النيل ، وهناك شوارع رئيسية تقطع المدينة • كما ان في وسطها ميدانا فسيحا يبدأ من النيل ويسير غربا ثم يتجه شمالا الى المسجد الكبير وجنوبا الى القطاع الجنوبي من المدينة • ويمكننا ان نقسم المدينة الى قطاعات اربعة : القطاع الجنوبي والقطاع الشمالي الغربي والقطاع الاوسط ثم القطاع الشمالي •

## ١ - القطاع الجنوبي :

في أقصى امتداد المدينة تقع حلة الفتيحاب ، وأهل هذه الحلة من مواطني الجهة وهم فرع من قبيلة الجموعية الكبيرة . وإلى الشمال من هذه الحلة فضاء واسع ووراء الفضاء إلى الشمال أول المدينة حيث ديم يونس ، وهو المكان الذي عسكر فيه الأمير يونس الدكيم بقواته . وفي هذا الحي يقع أحد منازل الخليفة ، وللخليفة منزل آخر على النيل قصاد كارة الجهادية ، وإلى الغرب من هذه الكارة منزل قائد الجهادية ثم حوش الجهادية السود . وإلى الشمال من هذه البقعة يقع مشرع الموردة وهو الميناء الرئيسي للمدينة وأكبر مشرع على النيل الأبيض . ويقع في هذه البقعة أيضا مجموعة كبيرة من أهل الغرب ، وعلى امتداد هذا القطاع من الجانب الغربي تسكن مجموعات القبائل الغربية كالهبانية والرزيقات والحرر ، وتقع في نهاية القطاع من الجانب الشمالي وفي مواجهة الفضاء الواسع مصنع الذخيرة وبيت الأمانة ومخزن صغير تودع فيه الرايات والطبول .

ويسيطر هذا القطاع على المشرع الرئيسي في المدينة ويقع فيه مخزن الذخيرة وآلات الحرب وبعض منازل الخليفة ومنزل يعقوب . ويخيل إلي أن الخليفة قد خطط هذا القطاع على هذا الوجه ليلجأ إليه إذا اندلعت حرب داخل المدينة واضطر إلى الانسحاب من حي المسجد ، ذلك لأنه سيجد نفسه في هذا القطاع وسط الجهادية وقبائل الغرب الموالين له وتحت يده مخزن السلاح ورايات الجيوش وطبوله . وربما كان القصد من الفضاء الواقع شمالي هذا القطاع هو إيجاد فاصل طبيعي بينه وبين القطاعات الأخرى ليسهل الدفاع عنه عند الضرورة .

## ٢ - القطاع الشمالي الغربي :

يفصل بين هذا القطاع والقطاع الجنوبي الفضاء الواقع بينهما

والمتد من النيل الى الغرب ثم يدور الى الشمال حتى نهاية المسجد من الجانب الغربي والشمالى ، ويصير الفاصل بعد ذلك الشارع الذي يسير شرقا وغربا من شمال المسجد ثم الشارع الذي يتجه شمالا بعد المسجد محازيا للسور الغربي • وينقسم هذا القسم الى أحياء • هناك حسي قبيلة كذانة في مواجهة المسجد من الغرب وحي قبيلة دغيم الى الشمال من المسجد • ويقع بين هذين الحيين حي عرب النيل الابيض • اي ان القبائل المنضوية تحت راية الخليفة علي الحو كانت تحتل المنطقة الواقعة شمال المسجد وغريه • وهم بالتالي يفصلون بين أهل الغرب الذين يسندون الخليفة وبين القبائل النيلية التي يخشى منها على نظام الخليفة عبدالله • ومن الطريف أن نلاحظ ان موقف الخليفة علي من المنازعات الدائرة بين اهل النيل وبين الخليفة عبد الله حول الحكم كان مطابقا لموضعه وموضع قومه هذا من المدينة ، فهو ليس مناصرا للاشراف كل المناصرة لان قضيتهم تقوم على ان الخلافة لهم دون غيرهم بينما كان الخليفة علي يأمل ان تكون الخلافة له بعد عبد الله نظرا الى انه خليفة عمر بن الخطاب الذي ولى الامر بعد ابي بكر الصديق ، وهو لا يناصر الخليفة كل المناصرة لان الخليفة كان يهدف الى السير بالخلافة الى بيته لتكون لاخته يعقوب او ابنه عثمان شيخ الدين ، وهذا يخالف مقصد الخليفة علي • وكان الخليفة علي يضطر الى الوقوف بجانب الخليفة عبد الله لانه لا يأمن من جانب الاشراف وكان لا يجار بعداوة الاشراف لانه لا يضمن نصيبه عند الخليفة عبد الله ، وكان موقفه عندما تبلغ الامور مبلغها وتوشك الفتنة ان تهز كيان النظام كله هو القيام بدور الوسيط المحافظ على الولاء الكامل للنظام الديني الذي اقامه المهدي ، وانه لما يذكر له انه وقف بجانب الخليفة حتى لقي مصرعه معه شهيدا •

والى الشمال من حي قبيلة دغيم ، والى الغرب منه يقع حي المسلمين ، ثم المقابر ثم حي الدناقلة فحي الكنوز والنوبيين ومنازل احمد شرفي وعائلة الخليفة شريف • كما ترى فان هذه الاحياء تقع على مبعدة من حي المسجد والسلطان ولكنها تمتاز بقربها من السوق • وبين

حي الدناقلة وحي كنانة يقع السوق الكبير وهو مقسم حسب الصناعات كما هو العهد الآن بسوق ام درمان ، وكان اكبر اجزائه منطقة الجزارين ومنطقة الحدادين ومنطقة النجارين ومنطقة الحلاقين ومنطقة التريزية وسوق الخضار وسوق القش وسوق العيش وسوق الحطب وسوق الحرير . وكانت الاحكام التي تصدرها المحكمة تنفذ في السوق على مشهد من الناس ، وقد نصبت فيه المشانق ، وكان العهد بمن حكم عليهم بالاعدام قطع الرأس ثم صار الاعدام شنقا ، وكان يتولى ذلك ، وقطع الايدي والارجل جزاران احدهما يدعى بخيت والثاني سعدالله ، وما ابعد هذين الاسمين عن مهمة صاحبيهما !

### ٣ - القطاع الاوسط :

يعتبر هذا القطاع قلب المدينة ومكان السلطة وهو محاط بسور عظيم من جهاته الشمالية والشرقية وطرف من الجنوبية ، ومن الشرق النيل الكبير . وكان اهم مواضعه هو المسجد الكبير وقبة الامام المهدي وجامع الصفيح ومنزل الخليفة علي ومنزل عائلة المهدي وبعض اقربائه ومدرسة المهدي وبيت الخليفة عبد الله ومنزل يعقوب ومنازل القضاة وكتبة ديوان المهدي وحي الملازمين .

### ٤ - القطاع الشمالي :

ويعد هذا القطاع امتدادا للقطاع الشمالي الغربي والقطاع الاوسط . ففي هذا القطاع كان ما يعرف بدار الهجرة وهو يتكون من بيت المال ومنازل كتبة بيت المال ومساكن المصريين وأهل مدينة الخرطوم القديمة . وفي الجانب الشرقي الشمالي من هذا القطاع كان ما يعرف بدار الهجرة وهو يتكون من مسجد ودار للخليفة عبد الله ودار أخرى للخليفة علي الحلو ، وقد سميت دار الهجرة لان الخليفة كان يقيم فيها عندما يقوم بتوديع القوات المتجهة الى الشمال ، وكانت العادة ان يسير معها حتى كررى ، وقد صار هذا الامر سنة منذ ان سار المهدي مع قوات النجومى المتجهة للشمال حتى كررى وودعهم فيه . ولعلنا نذكر هنا كيف كان

النبي يخرج خارج المدينة مودعا قواته ، ولعلنا نذكر ايضا ان منشأ مدينة أم درمان يعود الى الرغبة في ايجاد دار للهجرة لتبدأ منه القوات مسيرها الى جبهات القتال . وكان للقوات القادمة الى المدينة والخارجة منها موضعان آخران للهجرة تعسكر فيهما ريشما تدخل المدينة او ريشما تكتمل استعداداتها للمسير ، وهما شجرة الهدية لقوات الجنوب والغرب وقبة الشيخ فوجلي لقوات الشرق وكانت البواخر القادمة من الجنوب تقف في الشجرة حتى يؤذن لها بالدخول . واليك وصفا للمواضع المهمة في المدينة :

### المسجد الكبير :

كان المسجد حتى وفاة الامام المهدي عبارة عن فضاء محاط بالشوك ، وقد كانت بيوت أم درمان كلها بالقش حتى ذلك الوقت وكان البناء الوحيد هو منزل المهدي المبني من الطين والذي صار مدفنه . وبعد وفاة المهدي بقليل شرع الخليفة عبد الله في بناء سور من الطين حوله ، وقد أشار الخليفة في خطاب منه الى حمدان في ٤ ذي الحجة سنة ١٣٠٢ هـ الى انه يبني سورا حول المسجد ، ومن المحقق ان هذه الاشارة تذهب الى سور الطين . وفي سنة ١٨٨٩ اقام سورا من الطوب الاحمر مكان سور الطين وطلاه بالجير الابيض . وقد وصف الشيخ اسماعيل عبد القادر الكردفاني هذه الواقعة في كتابه المستهدى فقال ان وضع اساسه كان في يوم الاربعاء ٤ ربيع الاول سنة ١٣٠٥ هـ ، وذكر ان الفراغ منه كان في يوم الاربعاء ١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٥ هـ ، وذكر ان الخليفة عبد الله تولى وضع حجر الاساس في محفل عظيم وأنه باشر ذلك وهو يقرأ سورة الاخلاص ، وبعد ان وضع الخليفة عشرين طوبة احتذى حذوه الخلفاء والامراء وعلية القوم ثم عامة الانصار ، وقد كان البناء بالتطوع تبركا به ورغبة في الثواب ، اما طوب البناء فقد جلب من الخرطوم .

وقد اختلف الناس في ابعاده ، فذكر ونجت في تقرير أعده في سنة



١٨٩٠ ، ان طوله يبلغ الف ياردة وان عرضه ٨٠٠ ياردة بينما ذكر سلاطين في كتابه ان طوله يبلغ ٤٦٠ ياردة وان عرضه ٣٥٠ ياردة . واحسب ان ابعاده الصحيحة هي ما ذكره اسماعيل عبد القادر في المستهدى ، قال ان طوله من الجانب الغربي يبلغ ٤٧٠ ذراعا وان طوله من الشرق ٤٦١ ذراعا ، وان عرضه من الجهة الجنوبية يبلغ ٢٩٨ ذراعا ومن الجهة الشمالية ٢٩٥ ذراعا . وعلى هذا فان مساحته ، بخلاف الاساسات تبلغ ١٥٢٥ ذراعا . اما اساس البناء فكان يبلغ ذراعا ونصف ذراع عرضا وذراعين وربعا في العمق . وقد ذكر ان المسجد كان يسع نحو عشرة آلاف شخص .

وكان للمسجد ثمانية ابواب ، وقد علق الكردفاني على ذلك فقال : انه قال حسن لان ابواب الجنة ثمانية ايضا ، ولكننا لا نحسب ان هذه الفكرة قد اعتبرت عند اعداد الخطة ، بل كان القصد هو توفير مخارج ومداخل كافية للمصلين ، وقد جعل في كل اتجاه بابان . وكان اهم الابواب هو ذلك الذي يقابل منزل الخليفة ، وكان فيه باب كبير من الخشب بينما كانت الابواب الاخرى مجرد فتحات لا باب لها .

وفي الجانب الشرقي من المسجد كان المحراب وكان الخليفة يقف فيه ويصلي بالناس في الاوقات الخمسة ما عدا الجمعة . وكان بالجانب الغربي من المسجد جناح خاص بالنساء . والى الشرق من المسجد في الشارع الذي يفصل بين المسجد والقبة كان جامع الصفيح وهو مسجد صغير ، بل قل جناح خاص من المسجد او مقصورة خاصة به . وقد أنشئ هذا المسجد للمحافظة على المهدي من ذاء الجدرى الذي كان منتشرا آنذاك لان المهدي لم يكن مجدرا ، وكانوا يفصلون بينه وبين الناس في الوابور الذي يقطع بين الخرطوم وام درمان بمسافة بعيدة حتى لا تنقل اليه العدوى . ولا يختلف هذا الاسلوب عن الاجراءات الوقائية التي تتخذ هذه الايام عند انتشار الاوبئة الفتاكة كالسحائي والكوليرا .

وكانت ابعاد هذا الجامع تبلغ ٢٥ مترا طولاً و ١٥ مترا عرضاً وكان

يسع نحو ٢٠٠ نفسا • وكانت جوانبه محاطة بالخشب بينما كان سقفه بالزنك محمولا على ١٢ عمودا من الحديد ، وقد سمي بجامع الصفيح بمناسبة هذا الزنك • وكان يصلي في هذا الموضع المهدي والخلفاء والقضاة والاعيان ، وبعد وفاة الامام المهدي كان يصلي فيه الخليفة صلاة الجمعة بينما كان يصلي الاوقات الخمسة في المسجد الكبير •

ان اُمامة الصلاة وامامة الحكم مقرونتان معا في النظام الاسلامي وقد سميت امامة الصلاة بالامامة الصغرى بينما سميت امامة الحكم بالامامة الكبرى • وكان الخليفة يعطي أهمية خاصة لهذا الجانب من جوانب وظيفته ولهذا كان يقوم بنفسه بامامة الصلاة في الاوقات الخمسة والاعياد • وكما سبق القول فانه كان يصلي الجمعة في جامع الصفيح بينما كان يؤدي الاوقات الخمسة في محراب المسجد الكبير • وقد عد التغيب عن الصلاة جريمة كبرى اذا كانت وراءه دواعي سياسية ، وقد وصف الخليفة هذا الموقف وصفا رائعا مفصلا في خطاب منه الى الامير محمد خالد زقل واتباعه في دارفور ، وكان محور ما ذهب اليه هو ان المتغيب عن الصلاة كمن ينكر خلافته وان الواقفين خلفه في الصلاة هم المشمولون بالعناية وبركات المهدية •

وكان يقف عن يمين الخليفة أخوه الامير يعقوب وكبار أهل الراية والى يساره الخليفة علي الحلو وكبار أهل رايته • ويقف في هذا الصف ايضا ابناء الخليفة وابناء المهدي والقضاة والعلماء • ويقف خلف هؤلاء الملازمون والجهادية في نحو ١٢ صفا ثم يأتي خلفهم بقية الانصار • وكان الخليفة ينيب عنه في امامة الصلاة سليمان الحجاز او سعد الجعلي واحيانا عبد الكريم التكروري ، وكان هؤلاء لا يقفون في داخل المحراب وانما يؤمون من خارجه فالمحراب خاص للخليفة عبد الله وحده • ويلاحظ ان الانابة في الصلاة لم تجر حسب المراتب الدينية والترتيب السلمي ، ولو ان الخليفة اتبع هذا النظام لاناوب عنه الخليفة علي الحلو وهو الذي يليه في المرتبة ، غير ان ذلك قد يعني مكانة سياسية معينة وقد يحتج به الحلو

على غيره ، فقد سبق ان احتج بعض المسلمين في معرض احتجاجهم بأحقية  
ابى بكر بالخلافة بإثابة الرسول له في امامة الصلاة أثناء مرضه كما سبق  
للمهدى ايضا ان اوكل الخليفة عبدالله ليؤم المسلمين في الجمعة السالفة  
لوفاته ، ولكن الخليفة تفادى كل ذلك بأن أناب عنه هؤلاء العلماء الذين  
لم يكن لهم لون سياسي •

وبجانب المسجد الكبير وجامع الصفيح كانت هناك مساجد اخرى  
صغيرة كمسجد الجهادية في الكارة ( طابية ام درمان القديمة ) ومسجد  
الهجرة في شمال المدينة ومسجد الحرم الذي انشئ لحريم المهدي • ان  
هذا المسجد ، او جامع الخليفة كما يسمى الان ، ما زال يحتل مكانا  
عظيما ، اذ ما زالت تقام فيه الاحتفالات الكبيرة كاحتفال المولد النبوي •  
وقد احتفل السودانيون باتفاقية الاستقلال شعبيا في هذا الموضع كما ان  
ضباط العهد الماضي قد احتفلوا فيه بالعيد الاول لانقلابهم •

وكان بغربي جامع الصفيح كر القضاة اي حازر القضاة ، وهو مقر  
محكمة الاسلام، ولما بنى المسجد انتقلت المحكمة الى شمال غرب المحراب،  
ولهذا جاز لبعضهم ان يشير الى قضاة هذه المحكمة بعلماء المحراب  
الصادقين في المهديّة • وكانت محكمة الاسلام مكونة من عشرة قضاة  
يرأسهم قاضي الاسلام وتصدر احكامها بالتداول بين الاعضاء ، وكانت  
المحكمة تعقد جلساتها علنا في الصباح وبعد صلاة العصر من كل يوم  
ويقوم قاضي الاسلام بعرض القضايا التي نظرت فيها المحكمة والاحكام  
التي اصدرتها على الخليفة عبدالله • وكانت هذه المحكمة تنظر في كل  
القضايا ما عدا قضايا السوق ، فان لها محكمة خاصة • وكان من اشهر  
قضاة الاسلام احمد علي والحسين ابراهيم زهرا • وفي اواخر ايام  
الخليفة انخفضت مكانة قاضي الاسلام ولم يعد له ذلك البريق اللامع  
الذي كان له في الايام الاولى • اما محكمة السوق فكانت تنظر في  
منازعات السوق ومشاكلها كالموازين والمكايل ومشاكل العملة وأنظمة  
السوق وما الى ذلك •

## القبّة :

والى الشرق من المسجد الكبير وملحقاته كان بيت المهدي ، وكان عبارة عن حجرة مبنية بالطين ، وهو اول بناء في المدينة . ولما توفى المهدي دفنه الانصار في نفس الموضع ثم بنى الخليفة عبد الله فوقه قبة المهدي المشهورة . وقد بدىء في حفر أساس القبّة يوم الاربعاء الثاني من ربيع الاول سنة ١٣٠٦ وكان ذلك بحضور الخليفة عبد الله والخلفاء والقضاة والامراء وجمهرة الانصار . وقد بدأ الخليفة عبد الله الحفر بنفسه ، ويذكر صاحب المستهدى ان الحفر استمر الى التاسع من نفس الشهر ، وفي هذا اليوم أي الاربعاء ٩ ربيع الثاني ، وضع الخليفة الحجر الاول الى التاسع ثم تبعه الخلفاء والامراء والعلماء وعامة الانصار . وكان اساسه يبلغ خمسة أذرع عرضا وأربعة أذرع عمقا . وبعد بروز الاساس فوق الارض كان عرضه  $3\frac{1}{4}$  ذراعا ، وقد صعد البناء على هذا المقدار . وكان أساسه حتى فوق سطح الارض بالحجر ثم بنى فوقه بالطوب الاحمر . وبدأ البناء مربع الزوايا ، وكان مقدار كل جانب منه ١٧ ذراعا . وبعد ان بلغ ارتفاعه ١٤ ذراعا ، صار البناء مثنى اي ثمانية جوانب وقد ارتفع البناء على هذا الشكل خمسة أذرع ، ثم بدأ بعدها التدوير . وقد بلغ ارتفاعه حتى العقد والتمام ١٤ ذراعا ، وهكذا استوفى ارتفاع القبّة خمسين ذراعا . وكان في علوها هلال ومن وسط الهلال يرتفع رأس حربة كبيرة . وكان للقبّة بابان بنيا بالحجر المنحوت ، احدهما بجهة الجنوب والاخر بجهة الشمال ، ولها ثمانية شبايك ، في كل جهة من الجهات الاربعة شباكان ، ولها ثمانية مناوور يضاوية في محلات التثمين ، اي في كل واجهة من الواجهات الثمانية منور واحد . وفي داخل القبّة يقع ضريح الامام المهدي وهو على بعد اربعة أذرع من الجدار الغربي وثمانية أذرع من الجدار الشرقي وخمسة أذرع من الجدار الجنوبي واربعة أذرع من الجدار الشمالي . وقد طليت القبّة بالجير الابيض اللامع ليكون له بريق في النهار والليالي المقمرة بينما لا يطويه ظلام الليالي . وحول القبّة شيد سور عظيم ، وكان للسور بابان يفتحان ايام

الجمعة للزيارة. وقد كان للقبة مقام عظيم في نفوس الانصار اذ كانوا -  
وما زالوا ينظرون اليها بالاجلال والاحترام ويشدون الرحال للتبرك  
بها . وقد قال شاعر الانصار في قصيدة طويلة معتزا بالقبة :

سمت قبة المهدي مجدا وسؤددا  
ونيطت بها الجوزاء عقدا منضدا  
وصيغ من الاكليل تاج لها  
وسال بها نهر المجرة مزبدا

ولكن ليس صوابا ذلك الذي يقال بأن زيارة القبة قد أصبحت  
بديلا للحج وزيارة قبر الرسول ، وانما الصواب ان الامام قدم فريضة  
الجهاد على فريضة الحج لاسباب وقتية ، بل ان لقب الحاج كان لقباً  
يعتز به في فترة المهديّة . وقد ظل أمير مهم كأبي قرجة يحمل هذا اللقب  
حتى في المكاتبات الرسمية .

وبالقرب من القبة كان الحرم وهو بناء شيده الخليفة عبدالله لنساء  
الامام المهدي واولاده . وكان لهم كما سبق أن قلنا مسجد خاص للصلاة  
ويتلى فيه الراتب على الدوام . وقد اوقف الخليفة على الحرم مرتبا قدره  
الف ريال في الشهر . والى الشمال الغربي من الحرم كانت مساكن بعض  
الاشراف غير انهم رحلوا من هذا الموضع الى ود نوباوى بعد الخلاف  
الذي نشب بينهم وبين الخليفة ، وقد صارت منطقة ود نوباوى مركز ثقل  
بالنسبة للاشراف ، وهي كذلك الى هذا اليوم . والى الشمال الشرقي  
من الحرم كان منزل الخليفة شريف والى الجنوب من القبة كان المقر  
الرسمي للخليفة عبدالله ، وهو بناء يتكون من طابقين وقد حول الان  
الى متحف . وقد أنشأ الخليفة دوره الارضي في سنة ١٨٨٧ ثم بنى فوقه  
الدور الثاني في سنة ١٨٩١ . ويتكون البيت من عدة حيشان أو أجزاء  
محاطة بسور من الطوب الاحمر ومتصلة ببعضها البعض ، ويقع جناح  
الخليفة الى جوار المسجد ويشرف الدور الثاني منه على المصلين والى  
الاحياء الشمالية التي كانت تطلق باب الخليفة . وبشرقي جناح الخليفة

كان جناح الحريم ، وهناك اجزاء اخرى كالمخزن وغيره . وقد وصف سلاطين منزل الخليفة وصفا مفصلا في كتابه السيف والنار كما أن المنزل نفسه باق اليوم كما كان العهد به . والى الشرق من بيت الخليفة كان منزل ابنه الكبير شيخ الدين الذي كان يقود فرق الملازمين ومرشحا للخلافة من بعده . وبجنوب الجامع كانت منازل القضاة وكتبه الخليفة عبد الله . أما منزل الامير يعقوب فكان الى جنوبي هذه المنازل ثم أنشأ منزلا جديدا الى الغرب من هذه البقعة . وكانت التكية التي أنشأها المهدي للمكفوفين والمقعدين ملحقة بهذا المنزل . وكان بجوار منزل يعقوب ايضا المدرسة الوحيدة التي انشأتها دولة المهدي . اذ كان التعليم في المجتمع السوداني التقليدي عملا يقوم به الفقهاء تطوعا وخدمة للدين والعلم . أما مدرسة المهدي هذه فكانت فوق مستوى الخلاوي واشترط لدخولها حفظ القرآن . وكان يدرس فيها الحساب بجانب العلوم الدينية . ومن أوائل الذين درسوا فيها عثمان فريد جد اللواء بالمعاش طلعت فريد . وكان يلتحق بها اولاد الخليفة واولاد المهدي وعلية القوم وأيتام الامراء ، وضمن هؤلاء الامير اسماعيل احمد وهارون ابن محمد . وقد التحق بها ايضا بعض صبيان الحبشة الذين أسروا في واقعة القلابات . وقد اشتهر منهم اثنان هما عبد الحميد ابو أصبع ورابع أبو داكابا الذي استشهد في كررى .

وبجانب هذه المواضع كانت هناك مصالح عامة كثيرة ، اولها بيت المال العمومي وهو يرازي في الوقت الحاضر وزارة المالية ومخازن الدولة . وكان موضعه بالقرب من النهر وهو من الدور المهمة التي تقع خارج المنطقة المسورة، وقد صار بناؤه بالقرب من النيل ليسهل نقل البضائع الواردة بالطريق النهري . وكان البناء عبارة عن حوش كبير من الطوب الاحمر ومقسم من الداخل الى عدة حيشان . وكان من اهم اقسام بيت المال مصنع العملة . والى الجنوب من بيت المال العمومي كان سوق الرقيق وهو عبارة عن بناء شيد بالطوب الاحمر ، وقد حظر الخليفة بيع الذكور من الرقيق الا للدولة بينما حظر الاقتناص حظرا باتا . وكان

بالقرب من بيت المال العمومي بيت مال الملازمين ومنازل كتبة بيت المال وأمنائه .

وكان بالجانب الشمالي من المنطقة المسورة حي الملازمين وهم حرس الخليفة الخاص وقد ارتفع عدد الملازمين ارتفاعا ضخما وصاروا قسوة ضارية يعتمد عليهم الخليفة اعتمادا كبيرا . وقد جعل قيادتهم لابنه عثمان شيخ الدين ليكون ولاؤهم له ولاءا مباشرا وكان للملازمين بيت مال خاص ومخزن خاص للسلاح ويفصل بين حي الملازمين والجزء الباقي من المنطقة المسورة سور من الطين يسير من الشرق الى الغرب وقد بلغ طول حي الملازمين نحو ١٥٠٠ ياردة وعرضه نحو ٩٠٠ ياردة .

وكان من المواضع المهمة بيت الامانة وهو مخزن كبير للسلاح والذخيرة . ولم يكن مسموحا لغير ملازمي الخليفة بحمل السلاح الا في العرضة او التوجه للجهاد . وقد صار بيت الامانة الان دارا لرياضة كرة القدم . والى الشمال من بيت الامانة كان هناك مبنى صغير ذو شكل دائري وارتفاعه يبلغ نحو ٢٠ قدما وقد حفظ فيه الخليفة رايات الجيش وطبوله . والى الشرق من ذلك كان مصنع الذخيرة والاسلحة الخفيفة . ولا يفوت على فطنة القارئ موضع هذه المصالح الحساسة فهي في القطاع الجنوبي الذي تركز فيه عصبية الخليفة عبدالله والذي قد يلجأ اليه الخليفة عند الضرورة فيجد فيه السلاح والبيارق والطبول فضلا عن الرجال المواليين له .

وكان من المصالح المهمة السجن ، وهو يعرف بالسائر نسبة الى ادريس السائر الذي كان أمير السجن . وكان السجن عبارة عن حوش كبير يقع قرب النهر في القطاع الشمالي من المدينة وقد أقيمت بداخله عدة حجرات صغيرة . وكان يؤذن لنزلاء السجن بالاقامة في الحوش أثناء النهار اما في الليل فكان عليهم ان يكونوا في الحجرات . وكان على أهل المسجون ان يدبروا مأكله ومشربه لان الدولة لم تكن تقدم لهم الطعام . وقد وصف ابراهيم فوزي في كتابه السودان بين يدي غردون

وكتشتر الحياة في داخل السجن وصفا مستفيضا ونقل الينا بعض الصور الحية • وبالرغم من ان المهدي كان يرمي الى ان يكون السجن كفارة للخطايا وطريقا للخلاص منها ودلالة الى الله ومنع استغلال السجناء أو الاساءة اليهم ووجه السائر الى قيادتهم الى الاستقامة • فان الصور التي بلغتنا عن هذا السجن تجعله أبعد ما يكون عن الانسانية ، ويكفي ان رجالا مهسين من امثال احمد على قاضي الاسلام والزاكي طمل الذي قاد الانصار في واقعة القلابات واتصر على الحبشة قد ماتوا في هذا السجن جوعا وعطشا •

ان المصلحة الوحيدة التي بقيت في مدينة الخرطوم بالرغم مما بلغها من الخراب هي الترسانة وقد نقلها الانصار من موضعها القديم الى الكنيسة الكاثوليكية • وكان هناك خط تلغرافي يربط بينها وبين بيت الخليفة • ونذكر بهذه المناسبة ان شبكة التلغراف كانت تربط منزل الخليفة بالترسانة هذه وبكارة الجهادية بجنوب المدينة وبيت المال العمومي والنقطة المقامة في منطقة الخرطوم بحري •

لا تفيدنا المصادر التي وقفنا عليها باحصائيات دقيقة او بيانات تفصيلية عن التكوين البشري لمدينة ام درمان في فترة المهدي ، وأحسب اننا نفتقر الى ذلك الى ما قبل يومنا هذا بسنوات ، وكل ما نعرفه عن طوائف الناس وتحركاتهم وتجمعاتهم وما كان لهم من النفوذ والسلطان والتقسيمات البشرية وعدد سكان المدينة لا يتعدى ما نحصل عليه بالاستنتاج من تحركات الجيش من والي المدينة وبعض التحركات الكبيرة كمجيء القبائل الغربية وبعض تقديرات عن السكان يرويها الرواة وتنقلها عنهم تقارير المخابرات المصرية التي كانت ترصد أحوال السودان وهي تقديرات مصدرها التخمين ويشوبها الاضطراب والتناقض الشديد •

ومن المحقق ان كل الذين اشتركوا في حصار مدينة الخرطوم لم ينتقلوا الى مدينة ام درمان ، او بالاحرى معسكر الهجرة في ام درمان ، بل عادت الجماعات القبلية التي استقرت للاشتراك في الحصار الى بلادها



بعد ان تم الفتح مباشرة ، وهكذا قدر لمدينة ام درمان ان تبدأ عهدھا الزاهر كمعسكر للقوات المسلحة او ما يسمى بالجيش العامل ، وبعد قليل من بدء المعسكر خرجت قوات كبيرة الى الاقاليم المختلفة وبالتالي انخفض عدد سكان المدينة . وقد توجه أمير الامراء عبد الرحمن النجومي بقوات كبيرة الى الجبهة الشمالية ثم تبعه من خلفه اعوانه الكبار بفرق كثيرة ، وتوجهت قوة كبيرة بقيادة الامير حمدان ابو عنجة الى جبال النوبة بينما خرجت قوة اخرى كبيرة بقيادة محمد عبد الكريم لمحاصرة سنار . وقد قام المعسكر على من تبقى من قوات الجيش وعدد قليل من المدنيين من اصحاب الحرف والصناعات والفنون . وكانت الغلبة فيما تبقى للراية الزرقاء التي يقودھا الخليفة عبد الله ، اذ بينما خرج من اهل النيل القوات التي توجهت للشمال والقوات التي تولت حصار سنار . لم يخرج من اهل الراية الزرقاء وهم الكثرة الغالبة في الجيش اصلا ، الاقوات حمدان وجماعات من قوات سنار ، وكان هناك جزء كبير من قوات اهل النيل الموالية للاشراف في دار فور بقيادة محمد خالد زقل ، وهي القوات التي فشل الاشراف في الاستعانة بها عندما بدأ النزاع . لان الخليفة قطع عليها الطريق وصفى قيادتها . وقوات اخرى في الابيض يقودھا الشريف محمود عبد القادر . ونتيجة لهذا الوضع لم يتمكن الاشراف في نزاعهم الاول مع الخليفة من خلق تهديد حربي ذا أثر او اعداد قوة ضاربة تساند قضيتهم وتقارع قوة الخليفة عبد الله بينما قدر للخليفة عبد الله ان يستعين بقوته العسكرية وان يلوح بها ويتظاهـر بمظهر الرجل القادر الذي يملك ان يضرب . ومن الانصاف ان نضيف ان الخليفة كان يتولى الحكم بسند شرعي أقره عليه الاشراف وكان من العسير ان يحتج الاشراف بالطعن في ولايته كما ان الخليفة بحكم منصبه القيادي السابق يمتلك مقدرات حرية وادارية يستطيع تحريكھا لصالحه . وعلى أي حال فان محاولات الاجاويد ومناورات الاطراف التي هدفت الى تسوية النزاع قد نجحت قبل ان تستفحل الفتنة وتكون الكلمة للسلاح ، وقد عاد القوم الى الصلح والاتفاق وعاد الهدوء والطمأنينة لمدينة الامان والسلام .

على ان نزاع الاشراف هذا وتأيد قطاعات كبيرة من أهل النيل لقضيتهم او العطف عليها قد نبه الخليفة الى اهمية الاعتماد على عصبية توازنه وتتعصب له ، وقد ادى ذلك الى مجيء آلاف كبيرة من اهل الغرب الى المدينة واستيطانهم القطاع الجنوبي منها بينما اخرج الدناقلة واهل النيل بصفة عامة من هذا القطاع ورحلوا الى الجانب الشمالي من المدينة ، وهكذا ظهر امتداد جديد للمدينة وصار للمدينة تكوين بشري جديد تتحكم فيه السياسة ودواعي السلطان . ولقد أصبح أهل الغرب من بعد القوة الاساسية التي يعتمد عليها الخليفة وصار عليهم المدار في أمور السياسة والسلطان . بينما تضاعف نفوذ اهل البحر وقد اصبحوا العنصر الغالب وذا النفوذ الواسع في المدينة . وهذا طابع جديد تكتسبه المدينة بفضل مجيء البقارة . ولما اطمأن الخليفة بهم الى ظهوره بدأ سياسة الوفاق مع القبائل النيلية وأهل الشمال الذين شدد معهم من قبل وقضى على نوازع الفتنة فيه ومن ثم اخذ الصراع السياسي يأخذ طابع التصفية لذوي النفوذ والحول من المقربين الى الخليفة ويحتلون المناصب الكبيرة كالقاضي احمد علي والامير الزاكي طمل وابراهيم عدلان والحسين ابراهيم زهرا بعد ان كان طابع الحوادث فيما مضى يأخذ طابعا قريبا واقليميا .

وكان مجيء اهل الغرب سببا من اسباب المجاعة الكبرى التي حصدت الناس حصدا ، فهم قد أتوا على مخزون الغلال في المدينة والجزيرة واضحوا عالة على الزراع بينما فقدت البلاد اياديهم القوية المنتجة . وكان من أسباب المجاعة العامة ان أمطار ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م كانت شحيحة وكان النيل منخفضا فانخفض الانتاج انخفاضاً عظيماً ولما جاء العام التالي وأخضرت الارض وعمرت القلوب بالاماني أصاب الله عباده بالجراد فأثى على الاخضر واليابس وأصيبت البلاد بقحط عام وانتشرت المجاعة تفتك بالناس فتكا وصار ما لاقاه الناس من أهوال مثلاً يضرب في البلاء .

وكانت مدينة ام درمان وحدة ادارية قائمة بذاتها ، وكانت تبدأ من

حدودها الشمالية ... أعني خورشمبات ، ولاية غرب النيل الكبير وهي تمتد شمالا حتى حجر العسل ، وحدود المدينة الجنوبية كانت تبدأ ولاية البحر الابيض وهي تمتد في محازاة النيل جنوبا حتى التربة الخضراء . ومن الشرق كانت ولاية الخرطوم ، وهي تبدأ من المقرن وتسير بين النيلين حتى مدني . ثم ولاية شرق النيل الكبير وهي تمتد من النيل الازرق حتى حجر العسل . هذا تقسيم يختلف عن التقسيم الاداري للمنطقة في الوقت الحالي ، فان لكل من الخرطوم وام درمان والخرطوم بحري ادارة خاصة ، وان كانت مشتركة معا في المواصلات العامة ، اما الاقاليم المجاورة لها فهي تتبع لمركز ضواحي الخرطوم . ترى اي التقسيمين أفضل !

وكانت لمدينة ام درمان محكمة خاصة وهي محكمة السوق التي تخصصت في مسائل البيع والشراء ومشاكل الاسواق وكل ما هو واقع تحت سلطات ما يعرف بالمحتسب في النظم الاسلامية أما ما عدا ذلك من القضايا فكانت تنظر في محكمة المسجد . وكان أمن المدينة منوطا بالامير محمد حسين وهبي الذي كان يتركز عمله في السوق والاماكن العامة وكان قوام قوته ٢٥ جهاديا . وبجانب هذه القوة كان هناك المبشرون وهم يكونون ما يعرف الان بأمن الدولة ، وكانت مهمتهم هي البحث عن المشتبه فيهم ورفع التقارير عنهم سواء كانوا سياسيين او ذوي خطورة او كانوا ممن يرتكبون المحظورات العامة كالخمر والتباك . اما الامن في الاحياء السكنية فكان على مسؤولية اهل الحي الذين كانوا يتولون الحراسة ليلا . وكان العهد بالمحلات التجارية في السوق انها تقفل عند الغروب فيغدو السرق مهجورا الا من الجهادية الذين يتولون حراستها وبذلك تسهل حراسة الموضع وتقل هجمات اللصوص . وكان محظورا على الناس أن يوقدوا النار في السوق او ان يحملوا المشاعل ، وما ذلك الا للخوف من اندلاع الحرائق ولعلمهم كانوا يعلمون ان مستعظم النار من مستصغر الشرر . وفي الايام الاولى من عمر المدينة كان على التجار ان يقفوا محلاتهم في ايام الجمع ولكن سمح لهم فيما بعد باستئناف المعاملات بعد صلاة الجمعة .

وكما سبق ان ذكرنا في موضع سابق فان الامام المهدي كان قد أمم بعض ما ينتج مصالح المسلمين كالعصاير والوكالات والغابات وحدائق الميرى وأطيان الاجانب . وقد شمل التأمين فيما شمل المشاريع ، فانها قد اصبحت مصلحة عامة يدخل ريعها بيت المال ويصرف منه في المصالح ، وانما فعل الامام المهدي ذلك لان المشرع سبيل يرتاده كل الناس ولانه اداة هامة عند نقل الجيوش والمؤن ، وهذا من قبيل سبل المواصلات العامة التي تملكها الدولة الان كالسكك الحديدية والخطوط الجوية والبواخر النيلية والاسطول التجاري ومواصلات العاصمة . ترى هل بعدنا كثيرا ؟ وكان لعهد بالمشاريع انها تؤجر للناس مقابل ربط سنوي يدفعه المستأجر لبيت المال ، وقد بلغ ايجار مشرع المقرن في سنة ١٨٩٠ نحو الف ريال بينما بلغ ايراد مشرع الشرق ، وهو يمتد من توتى الى حجر العسل ، نحو ١٠ آلاف ريال ، اما مشرع البحر الابيض ، وهو يمتد من ام درمان حتى الدويم فكان يدر نحو خمسة آلاف ريال ، وقد قدر مجموع ما درته المشاريع لبيت المال في هذه السنة نحو ٨٤ الف ريال .

ومن المصالح العامة التي احتكرتها الدولة صناعة الصابون والاسلحة وسك العملة والصناعات الخفيفة المتصلة بالمجهود الحربي كالسيوف والحراب والصناعات الجلدية كالزوامل وما اليها . وقد راجت تجارة هذه الاصناف رواجاً عظيماً . وقد شيد الخليفة مصنعا للصابون وأوكل دارته للتجار مقابل ٥٠٠ ريال في الشهر ثم شيد مصنعا آخر . اما البارود فكان يصنع في مصنع شيد بالحلفاية ، وكان يدير هذا المصنع حسن شركس الذي كان يتولى هذه الصناعة لسلطين الفور . اما مصنع الخرطوش فكان في ام درمان وكان هناك مخزن كبير للبارود في جزيرة توتى ، وقد اجتهد الخليفة في الحصول على الاسلحة والمحافظة عليها اجتهدا عظيما فقلل من الاستهلاك وناظره مناظرة شديدة بينما اجتهد في تهريبه من مصر والحجاز عن طريق البحر الاحمر . وفي الداخل جرت محاولات كثيرة لصناعة البارود والرصاص ، وكان الصنف الاخير يستورد من منطقة كتم ، اما البارود فقد وفقوا اليه وإن كان النوع الذي اتجهوا

نوعا رديئا • ويقال ان انتاج البارود في سنة ١٨٩٠ قد بلغ ١٠ قناطير في الشهر وان انتاج الخرطوش بلغ مائة صندوق • ومن طريف ما يذكر ان الامير الحسن سعد العبادي الذي كان مكلفا من قبل الخليفة بنشر دعوة المهدي في الحجاز وبتهريب السلاح الى الداخل أرسل الى الخليفة كمية من ملح الطعام الذي تنتجه ملاحات البحر الاحمر ليستعين به في صنع البارود لما بلغه ان السفن الانجليزية تحمله الى اوربا ليصنع منه البارود • وكان من الصناعات التي لها رواج عظيم صناعة السيوف والحراب والصناعات الجلدية المتصلة بالحرب ، ولا بد لرجل يحترف التوثيق من ان يشير الى صناعة الدفاتر وتجليد الكتب واغمد السيوف والكبك ، وهو كيس يحفظ فيه الكتاب كما يحفظ السيف في الغمد ، قد بلغت درجة عالية من الاتقان وان كان يؤخذ عليها استعمال دقيق القمح بكثرة لان ذلك يغري الحشرات بالهجوم ويقدم لها طعاما شهيا فتفتك بالكتاب فتكا ذريعا •

وقد اجتمع في المدينة كل فنون المعمار التقليدي ، وكانت السمة البارزة في انماطه المختلفة التمسك بالحوش سواء كان المبنى منزلا خاصا او مصلحة من المصالح العامة ، وحتى المسجد الكبير فانه كان عبارة عن حوش كبير بل ان منزل الخليفة نفسه كان يتكون من عدة احواش • اما الانماط فهي الكرنك وهو بناء من القش وسقفه مصنوع على شكل ظهر ثور كبير ، ثم الدانقه وهي الحجرة المشيدة بالجالوص ولها طاقات مقفولة وفتحة كبيرة عالية لا باب لها ، وكانت هناك القطية وهي بناء اسطواني صغير ثم كانت الراكوبة وهي تشيد بأعمدة من خشب وعليها شكاب او جلد او قش ولها فتحات بالجوانب • على انه كانت هناك بالمدينة اعمال هندسية عظيمة كقبة الامام المهدي وبيت الخليفة وبعض اجزاء المسجد ، وقد تولى تخطيطها وبناءها مهندسون محترفون نذكر منهم اسماعيل حسن الذي اشرف على تخطيط القبة وبنائها وعلى بناء معسكر القلابات ومحمد حمد حسن وحامد النور وبترو ، والمهندسان الاخيران توليا بناء منزل الخليفة ويبدو ان اعمال المهندسين قد توسعت

واكتسبت أهمية كبيرة بفضل العمل في سور المدينة وبناء الطوابي المنبثة حول المدينة وقد وجدت في وثائق مخزن الورق اشارة الى ما يسمى بمصلحة العمارة ، وتدل كميات الورق التي كانت تصرف لها على أن اعمالها كانت واسعة كما ان انجازاتها الباقية تدل على اجتهد القائمين بأمرها .

كانت مدينة ام درمان المدينة التجارية الاولى في عصر المهديّة كما كانت الخرطوم اولى مدن السودان التجارية في العصر التركي ، غير ان التجارة لم تكن مزدهرة في المهديّة ولم يكن للتجار ورجال المال ذلك النفوذ العظيم الذي تمتعوا به في العصر الغابر ، فقد كان مجتمع المهديّة متصرفا بكلياته للجهاد والتكشف في الحياة ، وقد تدخلت الدولة في التجارة فاحتكرت انواعا من البضائع كالصمغ وحددت تجارة انواع معينة كالرقيق الذي منع اقتناصه في الداخل وحظر تصديره للخارج بينما صار على التجار ان يبيعوا الذكور من الرقيق لبيت المال وحده . وبتقلص تجارة الرقيق انتهى طغيان تجار الرقيق سواء كانوا من الاجانب او الوطنيين وبالنسبة الى تدهور الحياة المدنية واضطراب المعاش لم يكن للسلع المستوردة طلب كبير كما ان المعروض من السلع المحلية لم يكن وافرا لانشغال الناس بالجهاد . وكانت الاهواء السياسية تلعب دورا كبيرا في الركود التجاري لالتجاء الخليفة والحكومة المصرية الى قفل ابواب التجارة من وقت لآخر لاسباب سياسية او حرية ، وقد تضرر التجار كثيرا من الغلو في تقدير ما يفرض على سلعهم من العشور كما تضرروا احيانا من فرضها عليهم في كل اقليم يحلون به . ثم كان هناك اضطراب الامن والخطر الذي يحيق بالتجار اذا هبت عاصفة من عواصف السياسة وعصفت بهم وبأموالهم .

وقد ارتبطت التجارة مع الخارج بمسائل اخرى ربما كانت اهم شأنًا في نظر الخليفة وامرائه وهي التجسس على الاعداء والوقوف على احوالهم اما بارسال الجواسيس تحت ستار التجارة واما بما يرويه

التجار العائدون ، ثم كان هناك تهريب المهمات الحربية كالبنادق والرصاص والكبريت والنحاس ، وقد اهتم الانصار بهذا النوع من النشاط وتولى أمراء أطراف البلاد تنظيم العملاء وتهريب المعدات الحربية الى الداخل وقد أعلن الامير مساعد قيدها كان يتولى قيادة كسلا انه حصل عن طريق أحد التجار المتعاونين معه في التهريب على كمية كبيرة من الكبريت وانه على وشك الحصول على كميات من الرصاص ، وكان من اهم مهام الامير حسن سعد العبادي في اقليم حلايب تهريب السلاح والمعدات الحربية من مصر والحجاز ، وكذلك فعل امراء الشمال •

وكانت مدينة أم درمان تزدان بأبهى حللها في المواسم الدينية فترفع الرايات ويستعرض الجيش وتندق الطبول ويخرج الخليفة في موكب العظم ، وكانت الاعياد التي يحتفل بها الانصار اربعة هي المولد النبوي وعيد الرجبية وهو يوافق ٢٧ رجب ثم العيدان ، عيد الفطر وعيد الاضحى وكان العيد الاخير هو اهم الاعياد لان المدينة كانت تستقبل اعدادا هائلة من القادمين اليها للزيارة او تلبية لطلب الخليفة ، وكان الخليفة عادة يطلب أمراء الاقاليم وقادتها في هذا العيد لتجديد الولاء ولاستعراض المشاكل ووضع الحلول لها كما انه كان يستنفر القبائل التي يشك في ولائها ويجبرها على القدوم الى المدينة واعلان الطاعة له • وقد ردد البعض ان الخليفة جعل زيارة القبة في هذا الموسم عوضا عن الحج وزيارة قبر الرسول وهذا محض افتراء وقد سبق ان بينا موضع ذلك في مكان سابق •

وكان من المواسم المهمة العرضة اي العرض الاسبوعي للجيش ، وكانت العرضة تقام يوم الجمعة في موضع بغرب المدينة يقال له العرضة وكانت العادة في عهد الامام المهدي ان تتجمع الرايات خلف الامام المهدي فيسير بها الى مكان العرضة ويقبل الجيش على الاستعراض وعلى التدريب وكان محظورا على المجاهدين اطلاق السلاح الناري داخل المدينة اثناء المسير او ركوب الخيل حيث يكون الزحام ، وفي عهد

ال خليفة عبد الله تغير نظام العرضة بعض الشيء ، اذ أن الخليفة كان يذهب لاستعراض الجيش بعد ان تنتظم راياته في العرضة ، وقد عدل الخليفة عن حضور العرض الاسبوعي وصار يتولى ذلك بالنيابة عنه أخوه الامير يعقوب بن محمد كبير امراء الراية الزرقاء وساعده الايمن او أخوه السنوسي أحمد . أما العرضات السنوية فكان يحضرها الخليفة بنفسه وقد سبق ان ذكرنا في موضع سابق أن الخليفة كان ينيب عنه في أمانة الصلاة بعض رجال الدين ممن لم يكن لهم لون سياسي متفاديا بذلك مشكلات الخلافة واحتمالات ولاية العهد ، أما هنا فانه ينيب عنه أمير امراء أكبر الرايات والذي هو في نفس الوقت أخوه ويده اليمنى وأمير رايته أو أخاه الثاني السنوسي أحمد ، وليس في ذلك حرج لان استعراض الجيش أمر تنظيمي بحث ولا يتصل بولاية العهد بسبب .

وكان الخليفة في اول عهده يستعمل في مواكبه مركبات الحكمدارية الثلاث التي غنمها الانصار عند سقوط الخرطوم ولكنه ابطل هذه العادة وصار يركب جملا أو حصانا ، والغرض من ذلك لا يخفي ، فان ركوب الحصان أو الجمل يجعل صاحبه في موضع أعلى علاوة على ما في ذلك من رونق وأبهة ، وذلك بعكس المركبة فان الخليفة يكون فيها قاعدا لا راكبا كما في حالة الجمل أو الحصان ، ويكون في موضع أدنى من الراكب على دابة ، ولربما لهذا السبب نفسه يستعمل الحكام الان العربات المكشوفة ذات الارتفاع ليطلوا منها على الجماهير ويلهبوها حماسا بعد ان كانوا يسيرون في عربات مقفولة ويلوحون منها بالايدي فلا يراهم الراكب أو الواقف الا اذا انخفض ، وانما كان الخليفة يركب الحصان أو الجمل في المواكب الرسمية أما في روحاته وغدواته العادية فكان يركب حمارا .

وكان اذا خرج الخليفة في موكب رسمي تبعه كبار القوم من الخلفاء والامراء والاقرباء والمقرئين ثم يسير خلفه الملازمون في أعداد كبيرة ويسير امامه محمد ود بشير كرار قائد هجانة البريد وهو يمسك



بيده اليمنى حربة كبيرة بينما يمسك يسراه سيفاً ضخماً يتدلى من شماله .  
ويبدأ الموكب مسيره من بيت الخليفة ويسير في ببطء شديد مخترقاً سكة  
العرضة وعندما يبلغ الموكب الموضع المعد له يكون الانصار قد فرغوا من  
تدريباتهم ثم اصطفوا في صفوف منتظمة رافعين الاعلام ذات الالوان  
المختلفة ، فيأخذ موضعه وهو راكب على دابته ويمر الانصار أمامه في  
اتجاه المدينة آيين، وتأتي في المقدمة الراية الزرقاء تتقدمها الطبول محمولة  
على الجمال وهي تدق بعنف شديد ثم تليها الراية الخضراء راية  
الخليفة علي الحلو ، ثم الراية الصفراء راية الخليفة شريف ، والرايتان  
الاخيرتان لا تتقدمهما الطبول .

وبعد أن يسر الجيش ينزل الخليفة من دابته ويدخل زريبة الهجرة  
التي أعدت لراحته ويقعد فيها بعض الوقت ثم يعود بموكبه ذاك آيباً  
الى بيته .

وكان من المواقب المهمة ذلك الذي يقام عند خروج جيش كبير  
الى اقليم من الاقاليم فعندما يشير الخليفة على أمير بالتحرك تصرف  
الرايات والسلاح من بيت الامانة وتوزع على الجيش ويقوم كاتب الامير  
بصرف أدوات الكتابة بينما يقوم وكيل الجيش بترتيب الزوامل والمؤن،  
وعندما تكمل الاستعدادات ويستعد الجيش للسفر يتحرك الى أماكن  
الهجرة المعلومة وتضرب أعلامها فيها ، فاذا كانت للشرق عسكرت في  
القبة ، اي قبة الشيخ خوجلي ، واذا كانت للشمال عسكرت في الهجرة في  
الطرف الشمالي من المدينة واذا كانت للجنوب او الغرب عسكرت في  
شجرة المهدية ، ثم يخرج الخليفة في موكبه الذي وصفناه ومعه قائد  
الجيش حتى المعسكر فيودع الجيش وقائده وبيارك مسعاه في الجهاد ،  
واذا قدم جيش كبير أو أمير مهم كان يستقبله الخليفة بعرض كبير خارج  
المدينة ثم يدخل المدينة بموكبه وهو يصحب معه قائد الجيش .

ولقد قدر عدد القوات المرابطة في أم درمان في سنة ١٨٩٠ بشمانية

آلاف رجل منهم ثلاثة آلاف جهادي أسود والباقون من أولاد العرب، وكان عند الخليفة من السلاح نحو ٢١ ألف بندقية منها ١٢ ألف رمنجتون ٣٦ مدفع منها ٣٢ مدفع جبلي وأربعة صواريخ ، وكان عنده ألفان من الجمال وألفان من الخيول . أما في سنة ١٨٩٥ فان وضع الجيش قد تغير بشكل ظاهر لان فرقة الملازمين قد ارتفعت الى ٩ آلاف مجاهد بعد ان كانت قوة صغيرة ، وقد بلغ السود في هذه الفرقة نحو أربعة آلاف بينما بلغ أولاد العرب خمسة آلاف وكان فيهم نحو ٤٠٠ فارس . وبعكس ما اتبع في رايات الجيش الرئيسية التي روعيت فيها الاعتبارات القبلية والاقليمية فان فرقة الملازمين قد جاءت خالية من النعرة القبلية او التحزب الاقليمي وخالصة الولاء للخليفة عبدالله وقد أعطى الخليفة قيادتها لابنه البكر عثمان شيخ الدين واختط لها مكانا معيناً داخل السور الكبير ، أما جهادية الكارة فان عددهم قد بلغ ثلاثة آلاف وكان منهم ستون فارساً يركبون الخيل .

وقد بلغ الخيالة العرب في نفس السنة ٢٩٥٠ فارساً كان منهم ٤٠٠ يتبعون راية الخليفة على الحلو ، وقد اشتهر فرسان هذه الراية شهرة عظيمة وبرز منهم الامير . جار النبي الذي اعدم لتجاهره بمخالفة الخليفة على وتحديه ، وقد ارسل عدد كبير من خيالة هذه الراية الى شرق السودان وبذلك ضعفت قوة الراية في العاصمة وصار ميزانها في السياسة قليلاً . وكان يقيم في المدينة نحو ٥٥٠ من فرسان الراية الزرقاء اقامة دائمة ولا يسمح لهم بالابتعاد عنها بقدر يزيد عن المسافة التي يقطعها الخيل في يوم واحد وبالطبع فان الغرض من ذلك هو الابقاء على قوة من الفرسان في مقر الخلافة لدرء الاخطار المفاجئة ، أما الخيول الباقية فكانت ترسل الى الجزيرة لترعى .

أما الجمال فقد بلغ عددها في هذه السنة نحو ٦٣٥٠ جملاً منها نحو ٦٠٥٠ جملاً يملكها الاهالي ولكنها تحت تصرف الخليفة ونحو ٢٥٠ جملاً يتبع الامير يعقوب بن محمد وخمسون جملاً يتبع الامير

محمد ود كرار بشير قائد البريد ، وكان يخصص للبريد أجود الجمال واسرعها كما أنهم كانوا يختارون للبريد أزكى الرجال لان رجال البريد كانوا بالإضافة الى حمل البريد يقومون بمراقبة أحوال الاقاليم ويرفعون التقارير عن الامراء والعمال ، أما الحراة وهم عامة المشاة الذين يحاربون بالحراة فقد قدر عددهم بأربعين ألفا منهم ٨ آلاف في الراية الخضراء والباقيون في الراية الزرقاء •

أما الراية الصفراء فقد ضعفت الى حد بعيد • وفي موسم الزراعة كان الخليفة يكتفي بنحو عشرة آلاف من الحراة ليقيموا في المدينة بينما يخرج الباقيون الى الاقاليم للزراعة •

أما في معركة كررى فقد قدر عدد الانصار الذين اشتركوا في الواقعة بنحو ٥١٥٠٠ مجاهد كما قدر الامراء بنحو ٨٦ أميرا كبيرا و ٣٧٦ أميرا صغيرا ، ويقال أن الخيول التي اشتركت في الواقعة بلغت نحو ٥٥٠٠ وان السلاح بلغ نحو ١٤ ألف بندقية بخلاف المدافع والسيوف والحراة وقد استشهد من الانصار في تلك الواقعة نحو عشرة آلاف منهم ٦٨ من الامراء وكان على رأسهم الامير يعقوب بن محمد •

وقد تقدم في مكان سابق أمر السور العظيم الذي أحاط به الخليفة مقر السلطة والحكم ، وقد كان ذلك السور بمثابة استحكام قصد به الوقاية من الاضطرابات الداخلية والمخاطر الخارجية على السواء • ولما تقدمت القوات المصرية والانجليزية المشتركة الى الداخل بعد أن انتصرت على قوات الخليفة في فرقة ودنقلا اهتم الخليفة بامكانيات الدفاع عن المدينة وقوى استحكاماتها • وكان قوام هذه الاستحكامات نقطة للمراقبة في قرية كررى و ١٧ طابية في أم درمان والخرطوم والبحري وسبع طواب في السبلوقة وقد شيدت طوابي السبلوقة لمنع عبور البواخر الحربية جنوبا الى المدينة ولكنها اخلت فيما بعد ولم يقدر لها ان تلعب دورا في مسير معركة أم درمان •

أما الطوابي الاخرى فكانت هناك طابيتان في الخرطوم أحدهما

بالقرب من السراي والاخرى في المقرن ، وكانت الطاييتان تحت قيادة الرشيد كرومة ، وكانت هناك طاييتان بالشرق احدهما في شمبات والاخرى في الصبابى وقد تولى قيادتهما محمد علي فايت والغالى جودة ثم طاييتان في توتى تحت قيادة عبد الجبار برتى ، أما طوابى مدينة أم درمان نفسها فكانت احدى عشرة وهي : طاية الساير ويقودها ادريس الساير السجان وطاية قصاد بيت المال بقيادة محمد عبدالله وطاية باب عبد القيوم ويقودها عبد القيوم الصغير والطاية العلوية وطاية الباب الكبير وطاية ثالثة قرب سوق الصمغ ويقودها كلها العريفي الربيع وطاية الموالي وطاية ثانية يقودها الشريف حميدان وطاية في خورشمبات يقودها شخص يدعى عبدالرازق وطاية يقودها حاج علي ثم طايية حاج عثمان . لقد شيد الخليفة هذه الطوابى للدفاع عن أم درمان ولكنها لم تكن ذات فائدة كبيرة لان مدافع بواخر الجيش الغازي قد اسكتتها بفضل التفوق ولان واقعة أم درمان نفسها وقعت خارج المدينة ومن الطريف ان الامير محمود أحمد قائد الانصار في واقعة عطبرة قد أوصى الخليفة بالا يشيد طوابيه بالحجر أو الطوب لان مقذوف المدافع يهدم ما يبني بهما ويدكه دكا واقتراح عليه أن يكون الاستحكام بالتراب لان المقذوف لا يندفع في داخله .

بهزيمة القوات التي أرسلها الخليفة عبدالله بقيادة الامير محمود ود احمد لصد حملة الفتحة القادمة في ابريل ١٨٩٨ في واقعة عطبرة أصبح طريق الحملة الى العاصمة أم درمان ممهدا ، وقد بدأ كتشنر باشا سردار الجيش المصري وقائد الحملة يعد العدة للخطوة القادمة واللقاء الحاسم بينه وبين الخليفة عبدالله وأبدت الدولتان المصرية والانجليزية عظفا عظيما لكل ما طلبه . لقد حصل كتشنر على قوات اضافية عززت جيشه وبلغ رجاله عندما بدأ التحرك جنوبا نحو ٢٥٨٠٠ رجلا منهم نحو الثلث من الانجليز كما حصل على عدد من البواخر الحربية وكميات عظيمة من الاسلحة والعتاد ومن جانب آخر تقدم خط السكة الحديد من أبى محمد الى عطبرة وزاد عدد عمال السكة الحديد كما ربط بخط

التلغراف ما بين عطبرة وأبى حمد وما بين بربر وسواكن وما بين سواكن وكسلا التي سلمتها مؤخرا السلطات الايطالية الى الفاتحين وقد ازداد عدد المتطوعين من ابناء البلاد التي فتحت ومن المعادين للخليفة عبدالله لاسباب سياسية وصاروا يكونون الجيش الذي عرف بجيش العرب المتحابة والذي تولى أمر الجانب الشرقي للنيل وصار على يده احتلال اقليم الخرطوم بحري ومدينة الخرطوم نفسها في اليوم السابق لواقعة أم درمان •

وفي الجانب الآخر بدأ الخليفة عبدالله يستعد للمعركة الحاسمة وصمم على أن يكون اللقاء في أم درمان بعد أن ردد البعض اقتراحا بالانسحاب والتقهقر الى الغرب وجر الجيش الفاتح الى صحارى كردفان على أمل أن يذيقوه ما أذاقه الشلالي وهكس من قبل عطشا واندحارا • شرع الخليفة وحشد جيوشه في المدينة وتدفق الانصار من الاقاليم واتخذت المدينة استعداداتها للدفاع معتمدة على الطواحي المنبثة حول المدينة وما جاورها من المواضع الاستراتيجية ، ولما كانت بواخر العدو تشكل خطرا عظيما اذ تستطيع أن تلقى حممها على المدينة وأهلها وهي بعيدة عن منال سيوف الانصار وحرابهم ولا تقوى بواخر الانصار على صدهم أعد الخليفة عدته وجعل مرمى الطواحي في اتجاه النيل ونصبت الالغام في المياه لتفتك بالبواخر القادمة وتقضي عليها اذا ما مستها على نحو ما يفعل الان في الحروب ، الا أن الخبرة الفنية والمواد اللازمة لم تكن متاحة بالقدر الذي يهدد طريق البواخر •

وفي نفس الوقت كانت هناك تيارات مختلفة يتأثر بها مجتمع المدينة ومن ثم الاستعداد لمواجهة الجيش كالخلاف بين الامير يعقوب بن محمد أمير الراية الزرقاء وبد الخليفة اليمنى وبين عثمان شيخ الدين أكبر أبناء الخليفة وقائد الملازمين ، ذلك الخلاف الذي خلق انشقاقا في القاعدة وأدى الى الثنائية في التفكير والارادة • وكان هناك من يدعون الى الانسحاب الى الغرب ويسكتون عن ذلك خوفا ورهبة ،

وظهرت في هذه الاثناء لعبة صغيرة كان من المقدر لها ان تكبر وتنذر بالخطر لو اتاحت لها الظروف المؤاتية وهي مسعى امبراطور الحبشة ليرفع الخليفة أمامه علم فرنسا ويلوح به رمزا للتبعية لفرنسا وتهديدا للقيادة البريطانية . وكان هناك من يرون أن الهزيمة واقعة لا محالة وان الاشتراك في الواقعة لا يعدو أن يكون انتحارا ، وكان بجانب هؤلاء أولئك الذين يعادون النظام ويرجون له نهاية ساحقة على مشارف المدينة ، الا أن الاغلبية الساحقة كانت على ايمانها العميق ، ذلك الايمان الذي قضى على جحافل الشلاي وهكس ، لم تؤثر فيهم الهزائم المتلاحقة ولا أصابهم ما يصيب القلوب الضعيفة عندما تقوى البلايا وتشتد الكروب ، وقد منوا أنفسهم برواية شاعت عندهم بأن المهدي تنبأ بقدوم الكفار والقضاء عليهم خارج مدينة أم درمان ، وقد بات الكثيرون على هذا الاعتقاد وذهب قوم الى أن كتشنر هو الدجال وأن جنده جند الدجال ، ولا بد أن يلقوا مصيرهم على يد أنصار المهدي بالقرب من عاصمتهم المحروسة المحمية .

وفي أواخر أغسطس سنة ١٨٩٨ تحرك الجيش من قرية ودحامد القريبة من عطبرة الى جبل الرويان جنوبي شلال السبلوقة التي أخليت طوايها بينما سار الجنرال رندل بالمتطوعين تجاهه بالشرق ثم تحرك الجيش جنوبا حتى تجاوز جبل كررى واستقر في مكان يدعى العجيبة على بعد ثمانية أميال من أم درمان .

أما القوات المتحابة فقد تقدمت الى الامام ودخلت في سلسلة من المعارك الصغيرة مع الانصار المعسكرين في إقليم الخرطوم بحرى وانتصرت عليها واحتلت طوابي شمبات والصبابي وقضوا على كل مقاومة في المنطقة .

وقد تقدمت البواخر فعاونت القوات المتحابة بضرب طوابي شمبات والصبابي ثم انقلبت على طوابي توتى والخرطوم واسكتتها . ثم نزلت

قوة صغيرة في الخرطوم وأخذتها • وقد انزلت البواخر بطارياتها الى البر وبدأت تقذف الحمم على أم درمان من الشرق ومن توتى والخرطوم فخربت طوايبها واسوارها واصابت قبة الامام المهدي وفتحت في قمتها ثغرة كبيرة •

وكان الخليفة قد خرج الى ساحة العرضة بغربي المدينة ثم سار منها شمالا نحو كررى بجيش قوامه ٥١٥٠٠ رجلا ، تملأ الافق راياته الخفاقة ذات الالوان ويتصاعد مثار يملأ الجو كأنه الغمام وبسات الجيشان متقابلين كل منهما يخشى أن يبدأ الآخر هجومه ليلا ويجره الى القتال وهو يحسب لنفسه حساب النصر على ضوء النهار •

وفي صباح الجمعة ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وقعت الواقعة الحاسمة واقعة أم درمان المشهورة التي وضعت نهاية دولة المهدي وأعظم تحد أعدته القارة الافريقية لمقاومة التوغل الاوربي • لقد بدأ الانصار هجومهم بعد صلاة الصبح وتقدموا نحو العدو صفوفًا وهم يكبرون ، موجًا وراء موج فحصدتهم الرصاص حصدا وفشلوا في الوصول الى الجيش ليعملوا بسلاحهم الابيض ، وقد استبسل الانصار استبسالًا عظيمًا وقدموا ارواحهم فداء لعقيدتهم ودفاعًا عن دولتهم ولكن الغلبة آخر الامر كانت للسلاح الفاتك • ولما أيقن الخليفة أن المعركة خاسرة عاد الى المدينة ثم خرج منها بعد أن جمع أخلص أعوانه واتباعه وهو ينوي العودة بعزم جديد وجيش مكين يرد الكفار ويقضي عليهم • وعاد بعده الانصار مقهورين وقد خلفوا وراءهم أكثر من عشرة آلاف قتيل وعددا أكبر من ذلك من المجروحين ، عادوا وقد تحطمت المعنويات • لقد عاد شاعر المهدي العظيم ود سعد في من عاد وذهب يسأل عن الخليفة فلما ادرك أنه ترك المدينة وقف يرثى المهدي والدموع تتساقط من عينيه • لقد عبر ود سعد عن أعظم حيرة انسانية ، حيرة المؤمن العظيم • كان يؤمن أن جيش المهدي لا يرد وأن النصر حليفهم في كل واقعة لانهم جند المهدي ولأن القادمين كفار وقد ذهبت أيامهم وزالت دولتهم وحق عليهم العذاب ، فإذا

بالمؤمنين يخسرون ، واذا بالكفار ينتصرون ، واذا بالقائد الملهم الذي  
تغنى بأمجاده يترك قصبته ويخرج •

السادة الخيرة فاتوني وخلوني في حيرة

ودخل الجيش الفاتح مدينة أم درمان بعد أن صده قليلا عثمان  
دقنه وقواته في خور شمبات واستبيحت المدينة ورأى الناس أهوال  
الاحتلال ووطأة الجيوش الغازية •

وكان كتشنر قد بيت النية على القضاء على مدينة أم درمان لكونها  
قصة نظام المهدي وتمثل روحها وتكمن في وسطها قبة المهدي والمسجد  
الكبير فإذا بقيت المدينة بقيت روح المهدي مشتعلة في النفوس ، واذا  
ظلت القبة شامخة ظل ايمان الانصار شامخا ، واذا بقى المسجد تذكر  
الناس دولتهم الغابرة كلما وقفوا أمام الله • لقد اعتدى كتشنر على  
القبة فحطمها ثم أحال المسجد العظيم الى ساحة يستعرض فيها جيشه ثم  
أعد كتشنر عدته لاخلاء المدينة من أهلها وتعمير مدينة الخرطوم من جديد  
لكون الخرطوم تمثل العهد التركي القديم وفيه معنى الانتصار لغردون  
ذبيح القصر ، ولا بد لذلك من صلاة تذكارية تقام لروح غردون في  
خرائب القصر ولا بد من إعادة الحياة للمدينة الخربة ورفع العلمين  
المصري والبريطاني في موضع السراي اعلانا بالحكم المشترك الجديد  
وعودا به الى العهد القديم •

ولكن كيف السبيل الى اقناع أهل أم درمان ؟ لقد تركت مجموعات  
كبيرة من الناس المدينة وعادت الى قراها ، أما رهبة وخوفا ، وأما لأنها  
جاءت أصلا للقتال ثم عادت بعد أن انتهى القتال ، وبقي في المدينة أهل  
المدينة المرتبطون بترابها • ولم يكن من اليسير اقناع هؤلاء بالرحيل الى  
الخرطوم • كانت هناك مصاعب الرحيل عبر النهر بالمراكب الشراعية  
وكان أمامهم انشاء منازل جديدة في الخرطوم ، ولا بد أن تكون هذه



المنازل ، منازل جميلة تليق بالعاصمة الجديدة ، فلماذا يتركون منازلهم المشيدة ويشيدون أخرى غيرها ويكلفون أنفسهم المشقة ؟ وكانت هناك التجارة القائمة على الحرف المحلية ، فهل يجد أهل الحرف مكانا في المدينة العصرية وهل تجد بضاعتهم رواجاً ؟ وكان هناك العامل النفسي والتعلق بالوطن والقلق الذي يساور نفس الانسان عندما يبدأ حياة جديدة أو يعزم على الرحيل •

وكان هناك من يعارض سياسة كتشنر هذه ويقف ضدها وكان من هؤلاء القوم اللورد كرومر الذي كان يرى الابقاء على أم درمان وابقاء العاصمة بها تخفيفا للنفقات وتوفيرا للجهود • ولقد زار المدينة مراسل جريدة التايمز في سنة ١٩٠١ وأخذ على كتشنر تحطيم القبة وتحويل المسجد الى ملعب وانتقد سياسة الرحيل الى العاصمة المصرية انتقاداً مرّاً واتهمه بأنه يحاول القضاء على ملامح القومية السودانية التي ظهرت في الثورة المهدية ثم انتهى بأن ذلك كله يفتح مجالا للنفوذ المصري ويهيئ لسيطرته على السودان •

وعلى أي حال فقد اتخذ كتشنر مدينة الخرطوم عاصمة للحكم الجديد ورفع العلمين على انقاض السراي وعادت الحياة من جديد الى هذه المدينة •

## (٦) الحياة في أم درمان

تمشيا مع خطتنا أزاء الحياة في الخرطوم في العهد التركي نعرض هنا بعض أقوال المشاهدين عن الحياة في أم درمان في العهد المهدوي • ولعل خير من كتب عنها ونجت وكوزي Cuzzi ونيوفيلد Neufeld وروز نيولي وسلاطين • وقد نشر كتاب ونجت باللغة الانجليزية وترجمت كتب سلاطين ونيوفيلد وكوزي الى الانجليزية منذ عهد بعيد كما ترجم كتاب سلاطين الى العربية ونشرته جريدة البلاغ • وقد اعادت مكتبة الحرية بأم درمان نشر هذه الترجمة كما هي • وهذه الترجمة تشوبها الاغلاط وخاصة في أسماء الاعلام • وقد تولت شعبة أبحاث السودان نشر ترجمة انجليزية لكتاب كوزي بينما تولى الأستاذ رفيس F.Rehfi och ترجمة بعض أجزاء كتاب روزنيولي من الايطالية الى الانجليزية ونشرها في مجلة السودان في أبحاث ومدونات •

ولعل أهمية كتاب روزنيولي تنبع من عدم أهمية الرجل نفسه في نظر المهدويين أو الى قلة بريقه التي جعلته يعيش على غير حال سلاطين ونيوفيلد بعيدا عن الرقابة السياسية ولذلك عاش روزنيولي لصيق رجل الشارع ومارس الحياة الدقيقة التي يعيشها الفرد العادي في مدينة أم درمان ، وقد ترك لنا روزنيولي صورة حية دقيقة عن الحياة العادية التي يعيشها الفرد العادي • ولقد بدأ وصفه لها منذ أن شاهد المدينة لأول مرة وهو قادم اليها من الغرب مع جموع من الانصار • يقول :

لقد تحولت طابية أم درمان القديمة الى معسكر ضخم قد يبلغ

طوله أكثر من ستة كيلومترات • وقد لاحظنا عددا ضخما من القطاطي والتي شيدت بغير عناية و اقيمت كيفما اتفق بما أنها بنيت بغير تخطيط • ولما جاءت سنة ١٨٨٨ كانت أم درمان قد توسعت بمقدار كيلومترين نحو الشمال وبلغت جبال كررى وضمت نحو ١٢٠ الى ١٣٠ ألف نفس جاءوا من كل أنحاء السودان وتشملت فيهم أنماط مختلفة من البشر • وفي الوقت الحاضر فإن المدينة تتميز بطابع عربي • وقد شيد معظم مبانيها بالطين وسقف بسقف من سيقان الذرة • وكانت دور الاغنياء وعلية القوم محاطة بأسوار من الطين بينما أحيطت منازل الآخرين بزرايب من الشوك • وكانت مداخلها الخارجية توصد بطرق غريبة وبدائية • وبما أن كل اشجار السودان أشجار شوكية فإن وضع رأس شجرة أو فرع في فتحة الدار يكفي لصد الغريب • وبما أن جزعه يبقى بالداخل في حين يكون شوكه في مواجهة الغريب بالخارج فإن صاحب المنزل يستطيع أن يحركه من مكانه ممسكا من الجزع دون أن يصيبه أذى • وشوارع المدينة ضيقة وقذرة ومتعرجة وملئية بالحفر • ويكاد المرء يجد في كل مكان رمم الحيوانات التي تملأ رائحتها الكريهة الجو • ومن الصعب على المرء أن يهتدى الى منزل يقصده طالما أن الشوارع غير محددة وغير مخططة •

وفي مبدأ الامر عوملنا في أم درمان كأسرى حرب ، وكان مسموحا لنا أن نذرع في المدينة كما نشاء ولكن مغادرة المدينة كانت ممنوعة منعا باتا ومستحيلة • وقد اغتنمنا فرصة هذه الحرية للبحث عن اصدقائنا القدامى •

وكان المعسكر القديم محاطا بسور من الطين ، وكانت محاصرة المدينة قد شددت من وراء هذا السور • وقد تركت الجثث حولها فظلت بعضها ظاهرة بينما غطى التراب بعضها ، وقد امتلأ المكان كله ببقايا آدمية • وتمكنا من موضعنا هذا أن ننظر اى النيل الابيض عند المقرن وأن نرى النيل الازرق من الطرف الآخر ، وقد ظهرت الخرطوم بخرائبها

الموحشة خلف طبقة كثيفة من النباتات • وعند رؤيتنا لهذا المنظر الكئيب  
تداعت الى اذهاننا ذكريات وأفكار محزنة •

وقد مررنا بجوار المسجد والذي شيد بالطين ، وكان هذا في حد  
ذاته تقدما لأن مكان الصلاة كان في حياة المهدي عبارة عن مجرد فضاء  
تغطيه الخرق والروايب • ولأجل المشاهدة ذهبنا الى السوق ، فإذا بها  
مجموعة من الازقة والحواري • وبما أن الامن كان مفقودا فإن التجار  
كانوا يحملون بضائعهم الى منازلهم ليلا • وكان عدد المتسكعين  
والمشترين والمتفرجين والمتلصصين كثيرا حتى أضحي من الصعب أن يعبر  
الانسان في سبيله من شدة الزحام كما أن الصخب الصاعد من هذا  
الزحام كان يقرع الآذان ويصيبها بالوقر • وكان بالسوق بضائع كثيرة  
استجلبت من مصر ، لان الخليفة لم يكن الى ذلك التاريخ قد فرض  
العشور العالية على الواردات • ويبدو أن الناس كانوا في رغد وهناء ،  
فقد كان تداولهم بالنقود بتلك الصورة يوحي بذلك • وكان بيت المال  
الى ذلك الوقت كميات كبيرة من الذهب والفضة التي غنمت من المدن  
المفتوحة •

وقد سألنا تاجرا يهوديا عن المكان الذي به الراهبات فقام لعجبنا  
بتقديم القهوة لنا وبالإجابة على كل اسئلتنا • وبمجرد معرفتنا لمكانهم  
وتخلصنا من مجاملات توديعه اتجهنا صوب الفريق الذي ينزل به كل  
المسيحيين الذين لم يكن يسمح لهم بمغادرة المدينة • وقد وجدنا  
الراهبين بوليناري ولوكاتيلي والراهبات اللائي كن قد زوجن بأغاريق •  
وكان هناك الكثير مما نقوله لبعضنا بعد أن تفارقنا لمدة طويلة ، وقد  
مضت ساعاتنا سراعا • وقد نزلنا في ضيافتهم • نزل ريوتتى عند لوكاتيلي،  
والاب أهرولدر عند كوكو ريباس والذي كان قيما على الاختين • أما  
أنا فقد ساقوني الى منزل رجل سوري يدعى نعيم كان يقوم بمهمة  
دكتور •••••

ولم تمض على اقامتنا بأمر درمان أيام حتى شاهدنا لأول مرة عرضة

كبرى للجيش بقيادة حمدان أبو عنجة والذي كان عائدا لتوه من الایض .  
وقد ترك الخليفة منزله مع شروق الشمس وذهب يستعرض رجاله راكبا  
على جمل بينما كانت الطبول تدق بعنف . ولما كان اليوم يوم جمعة فقد  
دعى الى الصلاة بمجرد انتهاء العرضة . وكانت الصلاة تدعى ذكرا . وقد  
استقبل الجميع الى الشرق صوب مكة ونزل الخليفة من جملة ليقود  
الصلاة وكانت صفوف الرجال طويلة وعميقة ، وكان عددهم يقدر بنحو  
ستين ألفا ان لم يكن أكثر . وبإشارة من الخليفة ركع الجميع ثم قاموا  
ثم سجدوا ثم قاموا ...

وسأحاول فيما يلي أن اعطي فكرة عن تنظيم السوق والذي فرضه  
المسؤولون فرضا ، ذلك لانهم يهدمون المنازل والروايب اذا ما شيدت  
في المنطقة المخصصة للسوق . وكانت المحكمة ، أعني موضع محكمة  
السوق والسجن ، محاطين بزرب وكانت حدودهما محددة على أساس  
مخطط . أما الاجزاء الاخرى فكانت تتفاوت في الوسع وذلك تبعا لعدد  
الاشخاص الذين يعملون في تجارة معينة . وكان كل جزء يتكون من  
عدد من الروايب والقطاطى التي بناها التجار اتقاء من حرارة الشمس .  
ويفصل الدكاكين أو مجموعاتا أزقة ضيقة ومتعرجة وقذرة . ويخيل  
للمرء أن السوق عبارة عن مجموعة من الحوارى . ان معظم نشاط  
المدينة يقع في هذه البقعة .

وكنا مجبرين من وقت لآخر على القيام بأعمال السخرة بالإضافة  
الى متاعبنا الخاصة التي نقاسي منها . لقد أمر الخليفة بإنشاء قبة كبيرة  
فوق قبر المهدي . ولكي يشيد القبة فإنه اضطر لكي يهدم منازل الخرطوم  
المبنية بالطوب الاحمر ويحمل طوبها عبر النهر الى حيث تقوم القبة .  
وكان من المتوقع أن يشترك كل سكان المدينة في عملية البناء ابتغاء  
الدخول في الجنة . وقد قسم العمل على أقسام المدينة ثم افتتح الخليفة  
العمل بأن سار في موكب ضخيم يرافقه الامراء الى النهر وأخذ بنفسه الماء  
والطوب وحملها الى موضع العمل .

وكانت نية الخليفة أن يجعل من القبة مزارا يحج اليه الناس ويجعلها مكة السودان • وكانت المحكمة الكبرى والذي خطط لتكون أمام المسجد تكون جزءا من المسجد • وقد خطط المسجد ليسع أكثر من سبعين ألفا من المصلين كما أنه أعد ليكون أكثر من نصف هؤلاء تحت ظل الروايب المحمولة على عمدان الخشب •

وكان اشتراك الخليفة في العمل بنفسه بالإضافة الى رجاء الدخول في الجنة دافعا لحماس الرجال ليعملوا بهمة • وأغلب ما كان ذلك في الاحياء التي يسكنها البقارة والمتحمسون للدعوة ، اذ شارك هؤلاء في العمل بنسائهم وأولادهم • أما سكان الاحياء الاخرى فكانوا أقل حماسا ، وقد تمكن بعضهم من الزوجان بعد أن نفحوا الامراء برشوة • وهكذا وقع ثقل العمل على المتحمسين للدعوة • وقد حملنا على أن نعمل ثلاثة أو اربعة ايام في الاسبوع ، وكان هذا يعني أن نحمل الطوب والماء تحت وهج الشمس من النهر الى الموضع أي حوالي مسافة كيلومتر أو أن نساعد البنائين • وازدادة على اعبائنا فرضت ضريبة جديدة على الناس بعد الفراغ من القبة لمقابلة تكاليف اكمال المنشآت الاخرى • وقد حدد بيت المال على كل أمير جعلنا معينا وصار كل أمير يفرض على كل من في رايته ما يراه لائقا به • وفي مرة من المرات ارسلت الى السجن لاني لم أكن أملك ما طلب مني •

وتقوم قبة المهدي فوق المكان الذي مات فيه وهو يتكون من بناء مربع الزوايا يبلغ كل طرف منه ٨ أمتار طولا و ٦ أمتار ارتفاعا • وفي الداخل يوجد الضريح ويمكن الدخول اليه بواسطة أحد الابواب الخمسة للقبة وهي مضاعة باثني عشر منورا كل ثلاثة منها بجانب ، وهي كلها فوق قباوي الابواب • وقد شيد تربع الاركان من الحجر الذي أخذ من مبنى الكنيسة الكاثوليكية بالخرطوم • كذلك احضرت الابواب من خرائب تلك المدينة • وقد فتحت النوافذ لتلائم هذه الابواب في الحجم • ويقوم فوق البناء المربع تدوير القبة والذي يقوم على أساس

دائري مرتكزا على حائط المربع • ويبلغ ارتفاعه نحو متر واحد • أما دائرة التدوير فتبلغ نحو ٧ أمتار ارتفاعا ويتخذ شكل رأس سكر • وتأتي في أعلاها حربة ، وقد حلت الحربة محل الهلال الذي كان مثبتا في رأس المبنى القديم والذي أزيل لأنه اعتبر شعار مصر • ويأتي التدوير مباشرة فوق قبر المهدي • وفي كل ركن من الأركان الأربعة قبة صغيرة ينتهي كل منها بحربة • وقد شيدت القبة كلها بالطين والطوب والجير والرمل بعد خلطه وتخميده بالجير والرمل ••••••••

إن وسط القبة كان مخصصا للمهدي بينما كان مقدرا أن يدفن الخلفاء في الأركان الأربعة تحت القبة الصغيرة ••••••••

وبما أننا كنا نفتقر الى رأس المال فأننا لم نكن نملك القدرة لتجارة واسعة • وكان علينا أن نجهد انفسنا الى غايتها لكي نكسب درهيمات قليلة نقابل بها متطلباتنا المتواضعة • وفي مرات كثيرة قدر لي ان أنام ليلا دون أن أتناول شيئا طوال اليوم • وكانت حالتنا في غاية الضنك لأننا بالإضافة الى الحاجة المادية كنا معرضين لصنوف من الإهانات • وعندما كنت أعمل في السوق في بيع العيش والفول حاول الخليفة ابطال العملة المصرية واحلال اسلوب التبادل في بلاده على أساس قطع الدمور • ان كل قطعة دمور تبلغ طول ذراع الرجل من المرفق حتى طرف الوسطى مضاف اليه عرض ثلاثة اصابع ، وتبلغ قيمتها ربع ريال • ولم يكن هناك أحد يريد أن يقبل هذه العملة بالرغم من أن بيت المال كان ملتزما على قبوله بهذا السعر • وكانت النتيجة أن اشتراها البعض بنصف قيمتها ثم ابتاعوا بها من بيت المال والذي كان يتعامل على أساس ثمنه الرسمي • غير أنه سرعان ما الغى هذا الاجراء لانه كان يؤدي الى كثير من المنازعات والمشاجرات •

وكان بعض زبائني قد أكل فولا عندي ثم دفع لي الدمور مقابلته وقد طلب مني أن أنقذه الباقي بالنقود المصرية • ولما كان هذا مستحيلا فقد رجوته أن يأخذ من البضاعة مقدار الباقي على أساس السعر الرسمي للدمور • غير أنه رد بالشتيمة والسب • ولما نفذ صبري

رددت عليه وقلت له يا وسخ ، مع أنني لم اتعود على مثل هذا السب .  
وقد جاء خفراء المحكمة المنوطين بالسوق واقتادوني الى ساحة القضاء .  
وكان هناك أربعة قضاة يجلسون وقد افترشوا برشا ووضعوا مصحفا  
أمامهم . وقد حكم علي بأربعين جلدة بالسوط والذي هو من جلد  
فرس البحر . وكما هو العادة في مثل هذه الحالات فان العقوبة قد  
نفذت في الحال . فقد أخذوني الى الخارج وبطحوني أرضا على بطني  
وتولى احد مساعدي المحكمة ضربي بالسوط على ظهري وكان بجواري  
الجمهور العادي الذي يحضر مثل هذه المناسبات . ولكن لما كنت اصبر  
على الالم دون تلو أو صراخ فاتهم كفوا عني نظرة الاحتقار . وقد اطلق  
سراحي بعد أن تلقيت الاربعين سوطا .♦♦♦♦♦

يتركب سكان أم درمان من كل العناصر والقبائل التي يعرفها  
السودان بالإضافة الى مصريين وهنود وبعض العرب من مكة وسوريين  
وأغاريق وإيطاليين وترك واثيوبيين وأخيرا آكلوا لحوم البشر من النيام  
نيام والمانقبتو . وكانت ألوان البشرة تتدرج من السواد الشديد حتى  
الابيض — لقد كان حقا معرضا لصنوف البشر . ففي داخل هذا المعرض  
يمر الانسان العريان كما ولدته أمه ومن هم في مصاف الطوطم ، والنساء  
المحجبات اللائي لا يكشفن الا أعينهن وأخريات ليس عليهن الا خرق  
حقيرة تستر العورة فقط ، وهناك النموذج السامي بالانف المدب واللحية  
الكثيفة بجوار نموذج الزنجي الوسيم بجسمه القوي العتيد والانف  
الافطس والشفاه الغليظة .

وفي الغالب كان كل جنس يسكن في حي خاص به ، ولم يكن  
الزواج المختلط بين الاجناس عملية سهلة . وكان المرء يسمع لغات  
كثيرة ولكن اللغة الوحيدة التي يتعامل بها الكل هي اللغة العربية ، وهي  
لها ذاتية رسمية ومقدسة معا . وفي اعتبار الانصار أنها اللغة التي تكلم  
بها آدم وحواء وانه ليس في الجنة لغة غيرها .

ويقدر سكان المدينة بنحو ١٥٠ ألفا من البشر ولكن من المحتمل



أنهم أكبر من ذلك بكثير لأن الخليفة قد أمر كل سكان المدن والقري  
والدساكر التي خربت اثناء الحرب بالانتقال الى أم درمان • وهو عندما  
يدرك أن ثورة قد اندلعت في مكان ما يرسل اتباعه لتخريبه •

وقد انخفض السكان من جراء مجاعة سنة ١٨٨٩ المربعة • وحتى  
سنة ١٨٨٧ كان بيت المال يحتفظ بكميات من الذرة التي غنمت في الحروب  
والتي وجدت في شئون الحكومة المصرية • ورويدا رويدا أصبحت  
الكميات تتضاءل تبعا للاستهلاك لأن ما يؤخذ كان لا يعوض نسبة الى  
أن الثورة قد أخذت القادرين على الزراعة من حقولهم ، وكان الكثيرون  
منهم قد قتلوا في الحروب بينما ظل الآخرون في سجلات الجيش العامل •  
والحق أن مشاريع المهدي الحربية قد أعادت الناس الى حياة الكفاف  
وجعلتهم يركنون الى الاعتماد على ما يصرفه بيت المال بدلا من ان ينتجوا  
بأنفسهم • وكان العمل في الزراعة غير مضمون العاقبة نظرا الى توالي  
الحروب والنهب الذي كان يقوم به انصار المهدي • وكانت التجارة مع  
البلاد المجاورة قد وصلت حد الصفر نسبة الى حالة عدم الاستقرار في  
الداخل والضرائب الباهظة على البضائع وكانت النتيجة أن زرعت كمية  
قليلة من الذرة لم تكن كافية لاطعام كل السكان • وبالنسبة لسكان أم  
درمان فانه يتعين على الانسان ان يحصل على اذن من الخليفة قبل أن  
يخرج للزراعة • ولم يكن الخليفة راغبا في أن يخرج سكان المدينة حتى  
ولو لفترات قصيرة • والزراعة هي عمل الارقاء فقط • وهي تبدأ  
باختيار أصلح المواضع للزراعة من مساحات شاسعة من أراض لا يملكها  
أحد • وهم يبدأون بانشاء قطية وتنظيف الارض ثم يقومون بالزراعة  
قبل شهر من موعد الامطار • واذا ما كانت الامطار شحيحة فإن  
المحصول مهدد وفي حالات كثيرة لا يحصد المزارع شيئا •

لقد حلت هذه الكارثة في سنة ١٨٨٨ عندما انخفضت الكميات التي  
يحتفظ بها بيت المال من الذرة ولم يكن هناك من سبيل لتغطية النقص  
على وجه السرعة أو بسعر مناسب من أماكن أخرى • وبسرعة تحولت ام

درمان الى مسرح تقع فيه مآسي تفتق القلب • لقد سخر الانصار من قبل من المصريين الذين حوصروا في الابيض لانهم اكلوا الكلاب والحمير والجلود وكل القذرات • أما الان فإنهم مضوا أبعد من ذلك ، لقد أكلوا اولادهم •

وقد تمكن الاغنياء من ابتياع كميات من الذرة في الوقت المناسب • أما الفقراء فلم يكن من سبيل لانقاذهم • وقد ارتفع ثمن الاردب من ستين ليرة الى مائتين وخمسين ليرة • ولقد قدر لي أن اشاهد الجوعى يتضورون بعيونهم الغائرة في أم درمان كما شاهدتها في شوارع الابيض أيام الحصار ، ولكن الاعداد هنا أكبر • ان جماهير الجوعى قد خرجت بحثا عن أي شيء يسد الرمق بينما امتلأت الشوارع بجثث الموتى التي لم تجد من يدفعها الى النهر أو يحملها الى المقبرة التي خصصها الخليفة • واليوم توجد أكوام من العظام البيضاء وهي بقايا الآلاف التي نفقت من الجوع • ووجدت الضباع مرتعا خصبا وجاءت في أعداد كبيرة السى ضواحي أم درمان ثم تجرأت وسارت في شوارع المدينة وهي تأكل في لحوم البشر • وقد أوشك احد الضباع ان يدخل في راكوبة الاب أهرولدر • وليس من الجديد في شيء أن اذكر اسراب الطيور التي كانت تغطي سماء المدينة والتي كانت ترتفع على جثث البشر •

وكان الاطفال في خطر الخطف • وفي ليلة من الليالي تمكنا من انقاذ صبي كان يطلب الانقاذ من يدي رجل جائع باصدار انين خافت • وفي يوم جرت بنت واحتتمت بالمحكمة من أمها التي كانت قد أتت على ابنها الصغير في يوم سابق ثم اخطرت البنت ان دورها قد أزف • وقد سجنتم المسكينة وماتت مجنونة بعد أيام • وكثيرا ما كنا نستقبل الامهات اللائي يشكين من نضوب صدورهن من اللبن • وفي يوم من الايام جاءت امرأة الى الاب أهرولدر وطلبت أن يشتري منها طفلها وقد أعطاه الاب كمية من الذرة وأرسلها لسيلها مع دعواته الحارة • وفي اليوم التالي ظهرت معها طفلان فقط لان الطفل الثالث قد مات بالجوع • وفي اليوم الثالث كان معها طفل واحد فقط ، ولم نسمع لها خبرا بعد ذلك •

## سلاطين

من كتاب ( السيف والنار ) لرودلف سلاطين :

صرح الخليفة بأن أم درمان هي مدينة المهدي المقدسة ، وقد يكون غريبا على القراء ان يسمعوا عن ام درمان قبل عام ١٨٩٠ بأنها كانت مدينة صغيرة ضئيلة الشأن يسكنها بعض قطاع الطرق وكل ما لها من شأن انها واقعة تجاه الخرطوم غريب عليهم ان يسمعوا ذلك في الوقت الذي علت فيه كلمة هذه الجهة واصبحت اضخم واعظم شأنًا من الخرطوم وقد سبقه اليها المهدي • فبعد ان كانت الارض حقيرة غير منتظمة مدت اليها الاشجار الوارفة الظلال وأسس الجامع الكبير وبيوت الخليفة عبدالله والخليفتين محمد شريف وعلي ود الحلو • أما عبدالله فقد وضع يده على جميع الاراضي الواقعة جنوبي المسجد • وأما القسم الشمالي فاقسمه الخليفتان محمد شريف وعلي ود حلو •

ما يذكر عن المهدي في حياته أنه صرح علنا في المسجد الكبير بأن أم درمان معسكر وقتي لان رؤيا النبي التي ظهرت له في احدى الليالي أمرته بنقل الخلافة الى الشام بعد التغلب على مصر وبلاد العرب ولكن موته المبكر قد شتت جميع مشاريعه وقضى على آماله وآمال أتباعه •

بعد ان نقلت العاصمة الى أم درمان تم تنظيمها وتخطيطها • وقد بلغ طولها السطحي من الشمال الى الجنوب ما يقرب من ستة أميال انجليزية وقد اصبحت نهاية الحد الجنوبي مقابل الطرف الغربي للخرطوم •

اتجهت الرغبة في بادىء الامر الى السكنى على مقربة من شاطئ النيل أملا في تسهيل الحصول على الماء الكافي فنجم عن تلك الرغبة ازدياد في ناحية وقلة في الناحية الاخرى فلم يبق مكان خال واحد في مسافة ثلاثة أميال عرضا مع خلو أميال ممتدة طولاً •

انشئت في بادىء الامر في تلك الناحية آلاف من الاكواخ المصنوعة

من القش فلم يكن ظاهرا منها سوى المسجد الكبير الذي أحاط به حائط من الطين طوله اربعمائة وستون ياردة وعرضه ثلاثمائة وخمسون ياردة • ولكن ذلك لم يرق في عيني الخليفة فاستعاض عنه ببناء من الطوب المحروق الذي تم تبييضه بعد ذلك بمعرفة بنائين من العرب • وبعد ذلك أقام الخليفة لنفسه ولاخيه وأقربائه بيوتا من الطين ثم هذا الامراء حذوهم وتبعهم في ذلك اغنياء ام درمان •

ذكرت في فصل سابق وصفا لضريح المهدي ولكني لم اذكر اني شاهدت قبل مغادرتي الاخيرة لام درمان ضياع لون القشرة البيضاء التي على الضريح • ولا بأس من العودة الى التفصيل فأقول بأن فوق قبة الضريح ثلاث كرات نحاسية فارغة الواحدة فوق الاخرى • وربط هذه الثلاثة رمح مقوس في آخره حلقة رئيسية تزين الضريح • ومن أغرب ما سمعته من السودانيين ان الخليفة وضع هذا الرمح حول الكرات الثلاث ليعلن استعدادده لمحاربة الطبيعة اذا حدث ما يحول دون تحقيق رغباته •

كان عبدالله في كثير من الاحيان يقضي ساعات من النهار منفردا داخل الضريح ( مزار المهدي ) • والمعروف ان غرضه الاساسي من ذلك هو تلقي الوحي الخاص منه ولكن قلت عنايته بهذه الزيارات الدينية بعد أن قتل الكثيرون من أقرباء المهدي وزعماء اتباعه • وبطبيعة الحال كان من العسير بل من المريب ان ينقطع عبدالله هذا الانقطاع الفجائي فاضطر الى اتحال المعاذير • وتبعاً لذلك أوعز الى رجال حرسه الخاص ان يذيعوا بين الناس ان السبب الحقيقي لانقطاع عبدالله عن زيارة سيده المهدي هو خوفه من البقاء بمفرده داخل الضريح • وقد كان منتظرا ان يرد بعضهم على ذلك بأن يستصحب الخليفة معه من يذهب عنه الفرع ولكن عبدالله لم يعجز عن الرد فكان يقول انه من غير المرغوب فيه أو من الامور غير المسموح بها بقاء اي شخص خلاف الخليفة داخل ضريح المهدي • هذا ما كان يعتذر به عبدالله الى الشعب السوداني في حين ان

عبدالله خالف وصايا سيده المهدي لا بالقول فحسب بل بالفعل ايضا •

كان من المتبع فتح جميع الابواب المؤدية الى الضريح يوم الجمعة للسماح للشعب بالحج الى ضريح المهدي وبما ان القانون الديني كان يحتم على كل رجل من اتباع المهدي أن يرد صلوات الترحم على جثمان المهدي وروحه فقد كان من الميسور على المشاهد ان يرى الآلاف من الناس متفقيين في الغرض ومختلفين في طريقة تلاوة الصلوات والادعية ولم يكن قصدهم محصورا في الصلاة للمهدي ولكنه تعداه الى طلب الحماية والرحمة من الله الرحمن بشفاعة الشهيد الذي قد رقد في قبره الاخير ، ولكنني في الحقيقة كثير الريبة في ان الصلوات المذكورة خارجة للترحم فاني اقرر - وفي قولي على ما اعتقد كثير من الحق ان لم يكن الصدق كله - ان أغلب الصلوات الصادرة من قلوب اولئك المتحمسين الى مقام العرش الالهي تتطلب من الله انقاذ الشعب السوداني من ظلم وعسف عبدالله المستبد الذي خلف ساكن الضريح الطيب في نظر السودانيين •

يقع بيت الخليفة الرئيسي في الناحية الجنوبية من الضريح وعلى اتصال بالمسجد الكبير • ويحيط بهذا البناء الرئيسي حائط ضخمة مبنى بالطوب الاحمر ومقسمة نواحيه الى مبان صغيرة متلاصقة • وبطبيعة الحال أقرب المباني الى المسجد هي التي يسكنها هو وأفراد بيته المقربون • وفي الناحية الشرقية من مسكنه بيوت زوجاته وأماكن الخصيان ومخازنه الخاصة • ومما يسترعي الانظار في الجهة الشرقية من مسكنه المجاور للمسجد الكبير قيام باب خشبي ضخمة ( ولا توجد أبواب في داخل المسجد من النواحي الثلاث الاخرى ) يجتازه المسموح لهم بالوصول الى غرف الخليفة الخاصة ومكان الاستقبال الرسمي •

اذا ما رغب انسان في اجتياز الممر الرئيسي كان عليه أن يمر بما يشبه الدهليز ومن ثم يسير الى ردهة صغيرة فيها غرفتان لا يوجد على جانبي ايتهما ما يمنع من ظهور الناس للخليفة الذي يستقبل الناس في هذه البقعة • يوجد في الجهة الجنوبية من غرفة الاستقبال باب خاص يقفل

بين تلك الغرفة وبين غرفة المخدع ولا يسمح باجتيازها لأحد سوى  
الشبان من حرس الخليفة •

أما المساكن التي سبقت الإشارة إليها فمكونة على شكل قاعات  
متصلة بين كل واحدة والاخرى رواق صغير وقد تمكن الخليفة من انشاء  
دور ثان على سقف مجموعة من تلك المساكن ووضع في ذلك الدور المبنى  
على الطراز الجديد ( عام ١٨٩٥ ) منافذ يتمكن الناظر من احداها من  
مشاهدة منظر عام واضح لام درمان •

امتازت غرف استقبال الخليفة بالبساطة الكلية والبعد عن الزخرفة  
وكل ما في الغرف من زينة هو أعمدة العنقريب الممتدة في كل غرفة وعلى  
الواحد منها حصيرة من أوراق النخيل • أما غرف الخليفة فمزخرفة بكل  
ما يستطيع الحصول عليه من زينة وتزويق في السودان • ففي كل الغرف  
الداخلية أسرة نحاسية وحديدية تعلوها ناموسيات ( للوقاية من الناموس  
الذي يعد نكبة السودان وبلاءه ) كما أن أراضي الغرف مفروشة  
بالسجاجيد وفوق المراتب النظيفة أغشية حريرية ووسائد موشاة اطرافها  
بالحرير الخالص وفوق الابواب والنوافذ ستائر من الالوان والانسجة •  
ولا ريب في أن ذلك أقصى ما يطمع اليه الخليفة من زخرف وابهة في  
السودان • أما الاروقة فممتلئة بالحصص المصنوعة من أوراق شجر الدوم  
ثم بمقاعد العنقريب • فاذا قارنا ذلك بما كان عليه الخليفة عبدالله في أول  
سنى حياته الرسمية وجدنا أنه شديد الميل الى الزخرفة ما استطاع الى  
ذلك سبيلا •••••

والى جوارها بيت الامانة المكون من بناء حجري ضخيم جمعت فيه  
المدافع والبنادق والزخيرة وكل ما يختص بالحرب • والى جوارها ( في  
البناء نفسه ) خمس عربات كانت ملك الحكام السابقين والبعثة  
الكاثوليكية • وقد عني عبد الله عناية فائقة بحراسة ذلك البيت فوزع  
على مسافات قصيرة حراسا خصوصيين واعد لكل واحد كشكا صغيرا  
ومهمة أولئك هي منع جميع الخارجين عن هيئة الجيش من الدنو •

وجد في الناحية الشمالية لبيت الأمانة مباشرة بناء لحفظ رايات  
الامراء المقيمين في أم درمان • وإلى جانب ذلك البناء محل نصف دائري  
( يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدما ويصعد اليه الصاعدون بسلاسل مدرجة )  
لحفظ أبواب وطبول الخليفة الحربية • فاذا ما سرنا الى الناحية الشرقية  
قليلا وجدنا مخزن الخراطيش والاسلحة الصغيرة •

ذكرنا في الفصول السابقة شيئا عن بيت المال فنقول الان أنه يقع  
في شمال أم درمان على مقربة من نهر النيل • ويمتاز هذا البناء بضخامته  
وانقسامه الى أجزاء بارزة تكاد تكون أروقة متساوية الحجم • وفي  
تلك الأروقة تجمع البضائع الواردة لام درمان من جميع نواحي السودان  
ومن مصر كما أن في بيت المال مكانا لخزن الحبوب وآخر لجمع الرقيق •  
ويقع على مسافة قليلة جنوبي بيت المال بناء واسع لبيع الرقيق يسمى  
سوق العبيد • وقد انشأ عبدالله في جوار البناء الأخير بيتا سماه بيت  
المال الحربي • بعد ان استقرت خلافة عبدالله وسلفه المهدي في أم درمان  
ثم تنظيم المدينة وهي على العموم قائمة فوق أرض مستوية ولكننا نجد  
في بعض النواحي هنا وهناك تلالا صغيرة تعترض ذلك المستوى • أما  
تربة أم درمان فمجموعة طبقات صلبة حمراء تكاد تكون حجيرية في  
مجموعها وتتخللها في أجزاء متفرقة اراض رملية • ومما يذكر عن تعسف  
عبدالله انه في سبيل راحته والتمتع بما يرضى شخصه أنشأ الطرق  
والشوارع الجديدة وهذا العمل حميد في ذاته الا ان الخليفة في سبيل  
هذا البناء قد هدم بيوتا كثيرة ولم يدفع لاصحابها المنكودي الحظ  
قرشا واحدا فدل بذلك على أنه يرمي من وراء تنظيمه الحميد في ذاته  
منفعة خاصة هي لذة النظر الى شوارع نظيفة بغض النظر عما يصيب  
الناس من هدم منازلهم دون تعويض •

علا شأن أم درمان ونقص قدر الخرطوم في زمن خلافة عبدالله  
فأصبحت الخرطوم عبارة عن انقاض وخرائب ولم يبق فيها من المباني  
الظاهرة سوى المرفأ • وقد ظلت المواصلات بين أم درمان والخرطوم

بواسطة الرسائل التلغرافية التي أحسن أستعمالها موظفو ادارة التلغراف  
في الحكومة السابقة .

أبقى عبدالله قسما كبيرا من السور المحيط بيت المال والمسؤدي  
اليه ( لم يكمل هذا البناء في زمن عبدالله ) ، وعلى طول هذا البناء  
امتدت حوانيت لبيع المواد التجارية المختلفة ، والى جوارها حوانيت  
منفصلة واماكن صغيرة مستقلة للحلاقين والنجارين والقصاين والخياطين  
ومن شابههم . هذا الى ان عبدالله عنى بنظام المحتسبين الذين كانوا  
مسؤولين عن حفظ النظام في المدينة وانه لما يفزعني ان اذكر المشانق  
وآلات الاعدام التي كانت موزعة في جميع نواحي ام درمان . فقد كانت  
اكبر دليل على حال المدينة وموقف السودانيين من حكومتهم .

كان سكان ام درمان موزعين في مساكنهم تبعا لقبائلهم . فكان  
العرب التابعون للقبائل العربية يسكنون غالبا في المحلات الجنوبية .  
اما القسم الشمالي فكان مخصصا لسكان وادي النيل . ورغم وجود  
المحتسبين والمحافظين الرسميين على نظام المدينة كان مفروضا على كل  
قبيلة ان تعين من بين رجالها من يقومون بحفظ الامن والسلام في القبيلة  
ذاتها على ان يبلغ أولئك عن أي اضطراب أو خلل في القبيلة الى رجال  
الحفظ المعينين من قبل الحكومة .

إذا استثنينا الشوارع المنتظمة التي أنشأها وخططها الخليفة عبدالله  
ارضاء لراحته ومزاجه فحسب وجدنا المدينة عبارة عن منحدرات وعطفات  
مماؤة بقاذورات . وبطبيعة الحال اجد شخصي عاجزا عن وصف الاضرار  
الصحية المنبعثة من تلك القاذورات الكريهة الرائحة في الاماكن الوبائية  
التي تجمعت فيها أوساخ أم درمان . ويكفيني القول بأن جثث الخيول  
الميتة ترمى في تلك النواحي وان الجمال والحمير والماعز تزحم الطرق  
الضيقة وتملؤها بأوساخها وقاذوراتها وكل ما يعمل الخليفة هو ان يصدر  
أوامره قبل ايام اعياد مخصوصة في كل سنة باكتساح هذه الأوساخ  
وتنظيف الطرق الضيقة فلا يتعدى التنظيف حد القاء الجيف المنتنة في



زوايا الحارات • فإذا ما جاء فصل الخريف الممطر حمل الهواء المشبع بالروائح الكريهة المنبعثة من تلك الاوساخ والجيف بعض أمراض وبائية تعمل على قتل المئات من السكان المساكين •

كانت المدافن قبل عهد الخليفة عبدالله قائمة وسط المدينة ولكن تبرم الاحياء وتذمرهم من الروائح التي اصيب بها السكان من ذلك النظام اضطر عبدالله الى انشاء مكان فسيح خاص واعداده لدفن الموتى • وقد وقع اختياره على الصحراء الواقعة شمال مكان استعراض الجنود •

## (٧) الخرطوم الجديدة

بدأت مدينة الخرطوم حياتها الجديدة باحتفال صغير جرى على أطلال قصر الحكمدارية المتهدم وصلاة تذكارية اقيمت على روح الجنرال غردون الذي قتل في ذلك الموضع يوم استولى الانصار على المدينة في يناير سنة ١٨٨٥ • ولقد كان منظر القصر وما حوله كئيبا موحشا • فقد اخذ الانصار منه النباييك والابواب والاسقف وكل ما يستفاد منه ولم يبق من بناء القصر الا بعض حائط الدور الارضي • أما حائط الطابق الثاني فقد هدم من أجل طوبه الذي نقل الى أم درمان ، وقد ملأ ترابه داخل القصر وجوانبه • ومع ذلك فقد كانت معالم القصر ظاهرة واهتدى القوم الى حجراته وردهاته ووقفوا على الموضع الذي قتل فيه غردون ، وقد أثبتوا في هذا المكان عند بناء القصر من جديد علامة نحاسية تشير الى هذه الواقعة ، وهي معلقة على الحائط الى هذا اليوم • وعلى جوانب القصر امتدت الخرائب على امتداد المدينة ، وكانت بعض الهياكل البشرية ما زالت ظاهرة هنا وهناك • أما الشارع الذي يقع بين القصر والنيل فقد تهدم وتآكل بفعل الفيضانات ولم يبق من الرصيف الحجري أمام القصر الا جزء يسير • وعلى الحائط الشمالي للقصر رفع العلمان البريطاني والمصري ، وقد تولى كتشنر بنفسه رفع العلم البريطاني بينما أوكل رفع العلم المصري لضابط مصري ، وربما كان ذلك حظ مصر من الامر بعد أن تم الفتح باسمها ، والا فلماذا لا يرفع علمها هذا الذي هو قائد جيشها ويحمل تفويض خديويها • لماذا يترك كتشنر هذه المهمة لمن هو أصغر منه رتبة وخطرا مع أن الموقف يناسبه • ألا أنه يريد ان يخاطر المصريين في شخص هذا الضابط أم لانه يريد للعلم المصري المكان الثاني • احسبني لا أرى في ذلك مجاملة لمصر أو تكريما لضابطها انما هو تأفف من كتشنر

واستعلاء • ولقد ظل العلمان المصري والبريطاني يرفرفان على القصر رمزا للفتح المشترك والحكم المشترك ، ولكن الامر داخل القصر كان لاحد الشريكين دون صاحبه ، فما أكذب هذا الرمز وما أخدع هذا المظهر • وعلى أي فقد صحا صاحب الحق وانزل العلمين في احتفال كبير كان أعظم شأنًا من ذلك الذي أقيم خلسة على خراب ورفع مكانهما علمه الجديد يرمز اليه والى حقيقة الدار ويرفرف عاليا في أجواء الخرطوم الحرة • تلك باختصار قصتنا التي بدأت في الرابع من سبتمبر حين رفع العلمان على أنقاض قصر هدمناه ، وتلك قصة العلمين منذ رفعا واختلف عليهما حتى جاء يوم النزول •

وبعد الاحتفال برفع العلمين بدأت الصلاة التذكارية بقيادة الاب برنديل وأربعة من القسس يمثلون طوائف المسيحية بينما اصطف جنود من فرقة الهايلند وجماعة من الضباط المسيحيين ، وقد وقف على بعد منهم بعض أعيان السودان الذين قادتهم المقادير ليكونوا في هذا الموقف العصيب • وعلى مبعدة منهم جميعا وقف الجنرال كتشنر ساهما متأملا ، ولعله كان يفكر في مأساة الجنرال غردون يوم دخل عليه الانصار في هذا الموضع وذبح على أيديهم ، او لعله كان يفكر في حملة انقاذ غردون التي اشترك فيها والتي فشلت في انقاذه بسبب بطء رجالها • تسرى أكران يحسب نصيبه في مأساة غردون وما جنته يدها أم كان يعيش نصره هذا الذي محاه عار الهزيمة التي ألحقها الافارقة بالرجل الابيض في وقائع الخرطوم وشيكان وعدوة •

وبعد الصلاة أدى جنود فرقة الهايلند وأورطة الجهادية السودانية الحادية عشرة التحية العسكرية بينما اطلقت الباخرة الحربية التي كانت راسية بالقرب طلقاتها تحية • لقد تم للقوم الانتقام لغردون • بهذا الحفل الصغير عادت الحياة الى الخرطوم وبدأت المدينة سيرها الجديد في التاريخ ، وعلى الأفق من بعيد كانت تغيب شمس يوم طويل مثلما كان يغيب قرن مشخن بالدماء لم تشهد بلادنا مثله في القرون ••

فلنبداً قصتنا الجديدة مع تبشير القرن الجديد ، القرن العشرين •

وبالرغم من المشاغل الكثيرة التي كانت تقلق بال كتشنر وتستنفذ جهوده كحادث فاشودا والخليفة عبدالله الذي ما زال طليقا وأمر الادارة الجديدة فان كتشنر قد خص مدينة الخرطوم باهتمامه العظيم وأولاهها بعنايته • لقد وضع كتشنر بمعاونة بعض المهندسين الخطة الاولى لمدينة الخرطوم وهي الخطة الاساسية التي قامت عليها المدينة ولم يدخل عليها من جاءوا من بعد الا تعديلات بسيطة او امتدادات جديدة لم تكن في حسابان كتشنر وأصحابه • وكأني به يضع سابقتين خطيرتين اولاهما أن المدينة صارت منذ عهده مكان اهتمام حكام السودان مع وجود الاجهزة الادارية للمدينة والمصالح الفنية للدراسة والتخطيط • وقد يقال ان حكام عام الاتراك كانوا يشرفون على امور المدينة • وهذا أمر لا خلاف عليه ، ولكن حكام الاتراك لم يعرفوا المصالح المتخصصة في التخطيط وادارة المدن مثلما عرفت الادارة الثنائية • أما السابقة الثانية فهي انشاء المدن على مخطط معد • وأحسب أن ذلك كان أول عهد المدن السودانية بالتخطيط المسبق والنمو حسب حسابان معد ، وهذا مكان اختلاف كبير بين الخرطوم الجديدة وبين الخرطوم القديمة ومدينة أم درمان لان الاخيرتين قامتا عفوا دون تخطيط وأصاب أهل المدينتين من الضرر كثير • وتذكرنا هذه المناسبة بمنشأ عاصمتين اسلاميتين عظيمتين هما بغداد عاصمة الخلافة العباسية والقاهرة عاصمة مصر منذ عهد الفواطم • فقد أعد ابو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس خطة مدينة بغداد ثم صورها على الارض خطوطا ثم شرع يبني بعد ذلك • أما جوهر الصقلي القائد الفاطمي الذي فتح مصر للفاطميين فقد خطط مدينة القاهرة قبل أن يشرع في بنائها وانتظر حتى صعد النجم القاهر في السماء • الا أن مدينة الخرطوم تكاد تنفرد بالصلاة التذكارية التي بدأت بها وطابور الشرف وحفل العلمين •

لقد كان هدف كتشنر هو انشاء مدينة على النمط الاوربي وقد

ردد هو وزملاؤه ان سيكون لهذه المدينة مستقبل عظيم • وأحيانا كان يأخذ بهم غرور الفيكتوريين فيصرح رجل مثل الجنرال استاتن الذي أشرف على انشاء المدينة بانها ستكون أرقى وأعظم مدن القارة الافريقية • ثم يذهب عنه العجب والتيه بعد قليل فيقول أنها ستكون في مصاف القاهرة أو الاسكندرية على الاقل •

لقد قسم كتشنر المدينة الى قطاعات متعددة ، فالقطاع الاول هو ما بين شارع الخديوي ( شارع الجامعة الان ) وما بين النيل الازرق • وقد جعل هذا القطاع خاصا لمصالح الحكومة وبيوت موظفيها • ثم يلي ذلك القطاع التجاري وهو يقع جنوب شارع الخديوي ويمتد غربا الى المسجد الكبير وشرقا الى شارع فيكتوريا ( القصر حاليا ) وجنوبا الى ميدان عباس ( ميدان الامم المتحدة حاليا ) •

ثم يأتي وراء هذا الميدان السوق العربي وهو السوق الوطني • ان هذا القطاع ما زال يمثل مركز التجارة والمال في القطر وقد أمتد في السنوات الاخيرة الى شرق شارع القصر • ويقع الى الغرب من شارع فيكتوريا القطاع الصناعي وهو مكان تجمع الصناعات الخفيفة كالحدادة والتجارة وما اليهما • أما الاحياء السكنية فتقع في القطاع الشرقي والغربي والجنوبي وتحيط بالقطاعات السابقة • وكان امتداد المدينة ينتهي بخط الاستحكام القديم الذي كان يحيط بالمدينة • وقد بلغ طول المدينة شرقا وغربا نحو ميلين وعرضها جنوبا وشمالا نحو ميل واحد • أما امتداد الاستحكام الذي يسير في خط دائري فقد كان يربط ما بين النيل الازرق في نقطة برى والنيل الابيض عند المقرن ، وقد بلغ طول هذا الخط نحو أربعة اميال ونصف ميل ، وكانت المسافة بين نهاية الخط على النيل الابيض وبين النيل الازرق نحو ميل وربع •

ولقد ألحت على كتشنر فكرتان اولهما ربط هذه القطاعات وتنسيق الخدمات فيها وقد ادخل كتشنر نظام الشوارع التي تسير من ركن مربع الى آخر لهذا السبب ، كما أنه جمع المصالح في بقعة واحدة ليسهل

الاتصال بينها ، ثم جعل قطاع المال والعمل في بقعة واحدة وجعله على مقربة من المصالح الحكومية لاهمية العلاقة بين الدولة والنشاط المالي . لقد كانت لاسباب الربط والاتصال أهمية خاصة في ذلك الزمان اذ لم تكن البشرية تعرف وقتذاك التلفونات والعربات ودراجات البخار ، وكانت غاية ما يبلغ المرء حصان سريع .

أما الفكرة الاخرى التي ألحت عليه فهي أن تكون المدينة في طابعها مدينة سكنية . ولقد كان هناك اتجاه قوي حتى سنة ١٩٠٧ لبناء السوق والحي التجاري في البر الثاني للنيل الازرق في الموضع الذي فيه الان مصلحة المخازن والوابورات ، الا أن ظروفًا كثيرة قد تغلبت على هذا الامر وترك الامر على ما عليه الان . وكخطة عامة كان في باله أن يقيم الوطنيون ، الا الاثرياء منهم ، في أم درمان بينما تتجه الطبقات العاملة الى مدينة الخرطوم بحرى التي كانت تنمو حول محطة السكة الحديد .

وقد قسم المدينة الى قسمين كبيرين يفصل بينهما شارع فيكتوريا الذي يبلغ عرضه ١٨٠ قدما . والقسم الشرقي كان في الغالب الاعم قسما للسكنى في حين كان القسم الغربي قسما للنشاط الحكومي والمالي . وقد جعل كتشنر ثكنات الجنود على أطراف المدينة : كان جزء من الجيش البريطاني بجوار بوابة برى خلف موضع كبرى النيل الازرق ويقابله في البر المواجه بالخرطوم بحرى جزء آخر . أما الجيش المصري فقد أنشأ ثكناته عند بوابتي الكلاكلة والمسلمية .

بدأت الحياة تدب في المدينة الخربة منذ أواخر سنة ١٨٩٩ وبدأ القوم التخطيط والبناء بعزم عظيم . وقد جند كتشنر ثلاث كتائب من الجيش المصري وعددا كبيرا من اسرى الانصار لتنظيف الشوارع من الانقاض وردم المواضع المنخفضة من المدينة . وفي نفس الوقت بدأت الخطوط والدوائر التي اختطت على الورق تتحول الى مبان وشوارع وميادين وصار المئات والالاف من الناس يعملون وسط الانقاض للبناء . وفي وسط الانقاض اثبتت الاوتاد لتبين حدود الشوارع والمربعات وكان

المرء يرى هنا وهناك مضارب للطوب الاخضر أو كمائن للطوب الاحمر  
وقد استهلكت هذه العسلية جاننا كبيرا مما كان متهدما .

ولم تكن أمام مخططي المدينة أو منفذي الخطة التي وضعت شيء  
من العقبات التي تعترض مخطط المدن في هذه الايام ، ذلك لان سلطة  
الحكومة كانت نافذة وكان لرغباتها طابع عسكري يصعب التصدي له .  
وكانت المدينة خالية من السكان خلوا تاما ولم يكن هناك ما يدعو الى  
الاعتبارات البشرية عند التخطيط أو عند شق الشوارع . ولهذا فان  
المخططين لم يتعرضوا الى الحرج الذي يتعرض له ضباط المجالس الان  
عندما يعترض تخطيطهم مسجد أو كنيسة أو عمارة تستحق التعويض  
الضخم أو منزل شخص له نفوذ . ولم يكن القوم يعرفون في تلك الايام  
ما نعرفه الان من المواكب والمظاهرات التي تملأ الشوارع هادرة لتبقي  
اعوجاجا أو تثبت أمرا لا يقوم الا على باطل ، ولم تكن لارض البناء ما  
نراه الان من العزة والدلال ولا كان القوم في حاجة الى لجان القرى  
ومكاتب الاراضي والارانيك التي تملأ ، لا اثباتا للحق والواقع وانما رغبة  
في الارض كيفما أتت .

ولكن مشاكل مخطط مدينة الخرطوم ومشاغله كانت من نوع آخر  
لا نعهده في المدينة الحاضرة الان ، ولعل أولئك الذين تولوا تعمير موطن  
أهل حلفا في خشم القرية قد واجهوا شيئا منها لانهم كانوا يقيمون موطنا  
من عدم وكانوا يحتاجون الى السوابق ويفتقرون الى الخبرة عن الارض  
وعن الطقس وعن كل شيء يتصل بالموطن وبث الحياة فيه . وكانت  
الايدي العاملة المدربة قليلة ، وكنت ترى قادما من القرية لتوه يعين حدادا  
أو برادا أو ملاحظا أو عاملا ذا مهنة وهو يفتقر الى أبجديات هذه الصناعة  
او تلك ، وانما الامر الحاجة وقلة الخبرة وبعض من الفوضى يأتي دائما  
مع الارتجال . وهكذا كان الامر عند مولد مدينة الخرطوم فالايدي العاملة  
قليلة وخبرة القوم بالموضع وتجاربهم في انشاء المدن في حكم العدم ،  
والمال الذي في الايدي قليل ، ومع ذلك لا بد أن يسير العمل ولا بد أن

## تقوم المدينة الحديثة عنوانا للحكم الجديد •

وكان من أهم ما شغل البال واقلقه شأن اصحاب البيوت في الخرطوم القديمة والذين كانوا يطالبون بمنزلهم وبالتعويض عما لحق بها • ولما كانت الحكومة تعتبر ثورة المهدي تمردا لا يسقط حق مصر فان التخریب الذي لحق بالمدينة في هذه الفترة لا يبطل دعاويهم فيها • ومن جانب آخر فان المطالب لا بد أن تكثر ولا بد أن يكون بين الطالبين من لا يستحق • ثم كيف السبيل الى التحقق من هذا المنزل أو ذاك ، والمدينة متهمة ، وهل يعطى صاحب المنزل عين منزله وموضعه فيه أم يعطى حسب تخطيط معد ؟ وعلى أي حال فقد كونت الحكومة لجنة من اثنين من البريطانيين واثنين من المصريين واثنين من الوطنيين هما الشيخ كرم الله وابراهيم بك خليل صاحب القصر المواجه لقصر السيد علي • وقد أعطى أصحاب المنازل مهلة سنتين لا يحق بعدها لصاحب طلب حق • وقد قامت اللجنة بالنظر في طلبات الطالبين وبحثت في شأنها واستجوبت من شاءت من الشهود ثم وضعت سجلا كاملا أوضحت فيه أسماء الطالبين وأملأهم وأماكن تلك الاملاك ومساحاتها واعطت لكل صاحب حق صكا يثبت حقه في ذلك وحقه في امتلاك قطعة من الارض في المدينة الجديدة • وقد ترك الخيار لهؤلاء ليختاروا البقعة التي يشيدون فيها منازلهم الجديدة ، ولكن اختيارهم كان بالطبع يتوقف على القدرة على البناء واستيفاء الشروط الموضوعة لاهياء المدينة • ولما بلغت الثالثة من العمر لم يكن حالها يشجع أحدا • فقد تم بناء القصر والسكرتارية وعدد بسيط من منازل موظفي الدولة • وكان عساكر الجيش يبنون الشككات ولكن بقي الجزء الأكبر من المدينة خربا ولم يبدأ البناء الا في مناطق محدودة • أما الشوارع فقد شق نحو الثلث منها فقط • وكان الاهالي ما زالوا يتلكأون في البناء ، وقد بنى أغلبهم بالطين لان نفوسهم لم تستقر على المدينة بعد وما زالت لام درمان بقية في النفس ، فلما جاءت الامطار وصحبتها السيول تساقطت المنازل وانهد ما شيد • وبالجملة فقد بدا ان الامل في بناء العاصمة الجديدة أمل ضعيف •



ولكن عندما حل عام ١٩٠٤ كان كل شيء قد تطور وبدأ ان المدينة تسير في طريق النمو والازدهار . فقد سويت الشوارع كلها وصار في المدينة شارع مرصوف يربط بين قصر الحاكم العام والفندق الكبير . وقد شيد عدد كبير من المصالح والمنازل منها رئاسة المديرية والمستشفى العسكري والبريد والبرق والمخازن والاشغال والفندق الكبير والسوق والمسجد الكبير وقصور يمتلكها من الوطنيين ابراهيم بك خليل والوزير باشا رحمة وسعيد المياوي ومحمد بك حسن سرتجار أم درمان ، وغيرها كثير . ثم كان هناك مصنع للثلج في شرق المدينة وهذا أمر يعد من دلائل النعمة . وكانت هناك كلية غردون التذكارية التي بدأت الدراسة فيها ، وصار في المدينة نحو خمسة آلاف من السكان .

وفي سنة ١٩٠٦ كان هناك نشاط واضح في بناء منازل الموظفين . ولما جاءت السنة التالية شيد عدد من المصالح المهمة كمباني الري ودور ثان للكلية ومبنى الحقانية ومبنى لجنة التجارة والمستشفى الملكي الذي شيد في الطرف الجنوبي من المدينة ، وكان هذا المستشفى منذ أن افتتح قبل أربع سنوات في منزل خاص . وكان من مشاريع هذا العام متحف للآثار ، وقد خصصت له البقعة التي عليها الان السفارة العربية الا أنهم صرفوا النظر عنه بعد أن بنى أساسه ، ومن الطريف أن المتحف قد عاد الى هذا الجانب من المدينة بعد أن استقر في طرفها الشرقي نحو نصف قرن أو يزيد . وفي هذه السنة دخل النور الكهربائي عوضا عن فوانيس الزيت وبات الماء يأتي الى المنازل بمواسير مدت تحت الارض بعد أن كان يحمل اليها على ظهور الدواب .

وشيئا فشيئا امتد العمران الى أطراف المدينة وارتفع عدد السكان وفي نفس الوقت كانت مدينة الخرطوم بحري تبدأ مسيرها في حياتها الجديدة بعد أن انتهى اليها خط السكة الحديد . أما أم درمان فقد توقف تطورها بعض الشيء لان الناس كانوا ينتقلون منها الى المدينتين الجديدتين عبر النهر لان اهلها كانوا في حيرة منذ أن تقرر نقل العاصمة منها . ثم

عادت اليها الحركة بعد أن شيد الكبرى على النيل الابيض وصار الانتقال منها واليها امرا ميسورا ، ولما كان ثمن الارض بها أقل من ثمن الارض في الخرطوم فقد اتجه تيار الهجرة والبناء اليها وبالتالي استوعبت هذه المدينة عددا هائلا من العمال الذين كانوا يقطنون في الخرطوم بحرى او اطراف مدينة الخرطوم •

وكان هناك عدد من الاجانب يمتلكون المنازل والدور في المدينة القديمة فلما تم الفتح صار لهم الحق في التعويض عينا لان الحكومة الجديدة أباحت لهم ذلك ولانها كانت تسمح للاجانب تملك أرض البناء في المدن بينما هي تمنع تملكهم للارض الزراعية • وفي الواقع كان هؤلاء اول من وفد من الاجانب الى المدينة الجديدة • غير ان اغلب الملاك كانوا من المصريين ، وهؤلاء صاروا يعزفون عن الهجرة الى السودان أو العمل فيه مرة أخرى بعد التجارب التي تعرضوا لها في فترة المهدي ولهذا صاروا يبيعون أراضيهم للقبارصة والاغاريق • وحتى عام ١٩٠٦ كانت الحكومة تباع أرض البناء بالمزاد العلني ، وكان المزاد مفتوحا للجميع دون نظر للجنس او الوطن او اللون ، وهذا اعطى فرصة أخرى للاجانب • وكانت الحكومة عند توزيع الارض قد اشترطت على أصحابها أن تكون المباني والدور كامله في ميعاد محدد ، فلما أزم ذلك الميعاد والبيوت لم تكتمل باع أصحاب الاراضي قطعهم للاجانب الذين كانت لهم قدرة على البناء • وعلى العموم فقد كان الاجانب يملكون المال ولم يستطع الوطنيون مقاومة سحر هذا المال ، وبدأت حمى الامتلاك وارتفع سعر الياردة المربعة من الارض من ثلاثة الى عشرة مليمات الى جنيهين وثلاث جنيهات • ومن الحق أن يقال أن هذه الازمة لم تكن ذات أبعاد محلية فقط وانما كانت امتدادا لازمة الارض في مدن مصر ، حيث تكالب تجار القاهرة والاسكندرية على أرض المدينة ، وكان جلهم من الارمن والقبارصة واليونانيين ، وهذا أعطى مجالا للشراء وأضحت الارض تجارة رائجة وصار الناس يحصلون على الارض لا للبناء وانما للمتاجرة بها •

وكان من أثر ذلك أن أبطأ نمو الدرجتين الأولى والثانية لأن أصحابها كانوا دائما يتطلعون الى من يدفع وليست لهم الرغبة في البناء • ونظرا لذلك أوقفت الحكومة مزادات البيع ، غير ان هذا ادى الى ارتفاع سعر الارض لقلّة العرض في وقت تنمو فيه المدينة ويزداد الطلب من الخارج •

ولما جاء عام ١٩٠٧ أحجم الاجانب عن الشراء لان أزمة الارض في مصر تنفست بعض الشيء ولأنهم حازوا على طرف من الخرطوم ليس بالقليل ، وكان هذا كارثة حقيقية للمرايين والمغامرين في الخرطوم الذين كسدت تجارتهم بعد أن وضعوا فيها أموالا جسيمة استدانوها بالارباح • ولما لم يجدوا من يشتري اتجهوا الى الحكومة يشكون الحال ويلحون عليها وقالوا في مطالبهم الا تبني الحكومة المنازل لموظفيها لكي يؤجر هؤلاء الموظفون دورهم وطلبوا الا تباع الحكومة مزيدا من الارض قبل أن تنحسر الازمة ، وكأني اراهم يصنعون ما يصنعه أخوان لهم الآن ملكوا أرضا كثيرة وشيدوا عددا من القصور اودعوا فيه مالا وافرا ، ولما لم يجدوا من يسكن القصر ويرد لهم بعض ما وضعوا ظلوا كما ظل السابقون يلحون على الدولة فيما لا تملك ويتخذون دور الحكومة عوضا عن الحظ الذي لم يأت بعد ، وغدا يلحق بهؤلاء وأولئك أخوان لهم لم ينتظروا الثراء في الارض ويبنون الاستقرار فيها ، وهذا محض سراب لان الارض عادة لا ترد الا بعد طول زمن ، ولان بعض ما شيد لن يجد من يسكن فيه ويدفع الايجار الموعود ، ولان هذا نفسه يؤدي الى البوار ، فما نحن نرى الاف المنازل تشيد والاراضي توزع باليمين واليسار ، لمن لهم القدرة ولمن ليست لهم القدرة ، وتتحول المدخرات وما يستدان من الاموال الى طين وطوب وحجر وتظل جدراننا ساكنا لا دور له في التنمية • ترى لو قدر لنا أن نصرف المال الوافر الذي صرف في امتداد المطار في قطاع الصناعة والزراعة ، وحولنا ما فيه من الطوب والحجر والاسمنت والحديد الى المشاريع وجعلنا ما صرف فيه من العملة الصعبة للالات

والروافع ، كم مصنعا كنا نشيد وكم من المزارع نقيم وكم اسرة كان يكون لها عائد من هذه الثروة •

قسمت مدينة الخرطوم الى احياء متعددة كان أولها حي الدولة والسلطة الذي يقع على الجانب الجنوبي من النيل الازرق • أما الاحياء السكنية فقد جعلت في ثلاث درجات متفاوتة هي الأولى والثانية والثالثة وحددت لكل درجة مواصفات خاصة • فبيوت الدرجة الأولى لا بد أن تكون بالحجر أو الطوب الاحمر وينبغي ألا تقل تكاليف المنزل الواحد عن خمسمائة جنيه • وبيوت الدرجة الثانية لا بد أن يكون سورها بالحجر أو الطوب الاحمر ، أما الحجرات فيجوز بناؤها بالطين ، وينبغي ألا تقل تكاليف المنزل الواحد عن ثلاثمائة جنيه • والدرجة الثالثة يجوز البناء فيها بالطين مطلقا ولم يحدد للمنزل مستوى معين •

وكان الحي الحكومي ممتدا شرقا وغربا كما هو الان على الجانب الجنوبي من النيل الازرق ، وهو يبدأ من بوابة برى القديمة ويستمر غربا حتى حديقة الحيوان ، وإلى الغرب من هذه الحديقة والشرق كانت تقع الجنائن التي اشتهرت بها المدينة القديمة وكانت هذه المنطقة على اتساع عظيم غير أن العمران امتد اليها فانحسرت غربا شيئا فشيئا •

وكانت هناك حلة صغيرة تدعى ديم ابو حشيش ، وقد نست هذه الحلة حول الترسانة الحكومية وسكنها عمالها ، وبجوارها كانت تقع أرض غير معصورة بين النيل الابيض والنيل الازرق وتغطيها مياه الفيضان فتتحول الى برك ومستنقعات تتولد فيها الحشرات وتساعد على انتشار الاوبئة • وكان المستر استاتن الذي كان من أوائل مديري مديرية الخرطوم قد اختط مشروعا كبيرا لتعمير هذه المنطقة وبناء رصيف كبير يحجز مياه النيل الابيض غير أن مشروعه اهمل لضخامة تكاليفه وضخامة الجهد الذي يتطلبه ، وكان اساس المشروع هو تغطية تكاليفه بقيمة أراضي المنطقة التي تقرر بيعها بالمزاد بعد اعدادها ، غير أن انخفاض سعر الارض قد قضى على هذا العمل •

والواقع أن تأجيل تنفيذ هذا المشروع قد أدى أيضا الى استقرار مصلحة الوابورات وجانب من الجيش في الخرطوم بحرى ، الاولى غرب الكبرى والثاني شرقه ، والى بناء الأسكلة بصفة مؤقتة بالقرب من ديسم أبي حشيش • وسنعود الى ذلك كله في مكان تال •

وكان شارع النيل أو بالاحرى الطريق الذي على النيل ، لانه كان في الاصل عبارة عن ممر ضيق بين النيل وبين المنازل التي تطل عليه ، قد ذهب أغلبه بفعل الفيضانات أيام المهدي والتآكل المائي ، وقد ذكر الرواة انه لم يبق من الترسانة الا أساس قديم كان يرى داخل النهر ، وذكروا أن ما تآكل في هذا الموضع يبلغ نحو خمسين أو ستين قدما • ويبدو أن اتجاه تيار الماء الى هذه النقطة كان شديدا لان التآكل أتى على هذا المقدار كله في بضع سنوات ، ولما شيد الرصيف وواجه التيار جبهة صلبة عاد بعنفه الى الشمال وأخذ يأكل من الجانب الجنوبي الغربي من جزيرة توتى ويترك طينا خلفها من جهة الغرب ويبدو أن رصيف الوابورات في الجهة المقابلة يخلق وضعاً مشابهاً إذ أن التيار يأكل من شرق توتى ويخلف طينا جنوب الخرطوم بحرى الى جهة الغرب • وعند القصر تآكل الرصيف ولم يبق منه الا نحو مائتي ياردة شرقا وغربا • وقد أتى النيل أيضا على عدد من السواقي كانت مقامة في الجانب الغربي من المدينة ، وهنا وهناك كان يرى المرء المشارع القديمة المبنية بالحجر وقد نخر الماء فيها بينما ابتلع بعضها ابتلاعا • وقد ردم الانجليز جانبا كبيرا من النيل ليستردوا ما أخذه النيل وليجعلوا بين النيل والدور التي تطل عليه شارعا هو شارع النيل الان ، وقد بلغ ما ردم أمام القصر وأخذ من النيل نحو تسعين قدما ، وفي داخل ذلك ردم الرصيف القديم الذي هو الان تحت الشارع ، وقد وضعت الحكومة مشروعا ضخما لردم المواضع من النيل في منطقة القرن لاستعادة ما سلبه النيل الا أن ضخامة التكاليف قد ألححت حتى أفضت الى تأجيل المشروع ثم الانصراف عنه كليا مع مرور الايام •

وكان موضع المصالح هذا هو موضع مصالح الدولة في أيام الترك •

وكان في الجانب الغربي منه بيوت الاثرياء من الاجانب والاهالي ثم بعض الحدائق • وقد استولت الحكومة على هذه الاراضي ودفعست لاصحابها تعويضا بلغ ١٨ جنيها للفدان الواحد • وكانت قصور الاثرياء ظاهرة عند الفتح ، ولم تمتد اليها يد التخريب أيام المهدي بمقدار ما امتدت الى الاجزاء الاخرى من المدينة لانها كانت محاطة بأسوار عالية قوية ، ولان الانصار كانوا يعنون بهذه الجنائن ويستفيدون من اتناجها • وقد تقدم انهم أمسوا هذه الجنائن وجعلوا لها ادارة خاصة تابعة لبيت المال •

وفصل الحي الحكومي عن الاحياء الاخرى شارع الخديوى ( شارع الجامعة الان ) • وكان بهذا الموضع شارع قديم كان فاصلا بين مصالح الدولة والاحياء السكنية في أيام الترك •

وكان اول بناء يقام في الحي الحكومي بل في المدينة كلها ، منزل مؤقت خصص لسكنى مدير المخازن ، وكان موضعه حديقة السودان كلب الان ، وقد ازيل هذا المنزل في ١٩٠٤ • ثم شرع في بناء قصر الحاكم العام في ١٨٩٩ وقام بناؤه على الاساس الحجري القديم تخفيضا للنفقات ، وكان بناؤه بالطوب الاحمر الا أن اركانه بنيت بالحجر ، وقد اكتمل البناء في أوائل ١٩٠٠ ودخله ساكنا السير جون والليدى ماكسويل وكان ماكسويل هذا يقوم بأعباء الحاكم العام منذ سافر كتشنر الى جنوب أفريقيا ليشترك في حرب البوير ، وكان اول من يسكن فيه بصفته حاكم عام السودان الجنرال ونجت باشا ، وقد أعد القصر نفسه ليكون مسكنا للحاكم العام ومقرا لعمله •

وكان القصر يتكون من ثلاثة أدوار ويرفرف في أعلاه العلمان المصري والبريطاني • وله ثلاثة أجنحة ، جناح رئيسي يقابل النيل ويمتد شرقا وغربا وجناح باليمين وجناح باليسار يمتدان من الجناح الرئيسي الى جهة الجنوب ، والبناء كله يمثل نصف مربع ، وليس فيه من عبقرية العمار شيء ، الا أنه على أي حال قصر جميل يوحى بالهدوء وبعض الشاعرية

إذا نظر اليه المرء من داخل الحديقة ، وأحسب ان ذلك عائد الى جمال  
الفرندات . أما من جهة النيل فان منظره كئيب وربما كانت آثار السلطة  
والتسلط باقية فيه ، حيث كان الحرس الاحمر ذو العين الازرق وحيث  
يسنع الضجيج وضوضاء الشوارع وحيث البوابتان الحديديتان اللتان  
تقفلان ليلا ويشعران الداخل بانه يدخل منطقة محظورة . أما من طرفه  
الجنوبي فان القصر يقبل على المدينة بظهره اذ بين مبناه وبين الشارع  
حديقة واسعة ثم مساكن الحرس وسور عال واشجار تخفى ما وراءها .

وأحسب أن القصر بحاله الان يحتاج الى بعض النظر . فما كان  
يحسن أن تشيد المنازل في طرفه الجنوبي الذي يواجه المدينة . وأحسب  
أنه من الرأي ان تزال الملحقات التي شرقي المدخل الشمالي وان تنقل  
البوابتان شرقا وغربا وان توسع الحديقة الصغيرة التي أمام القصر حتى  
تبلغ نهايتي القصر من الشرق والغرب .

وقد شرع بعد القصر في بناء دور اخرى لاعمال الدولة ولسكنى  
كبار الموظفين . وفي سنة ١٩٠٠ شرع في بناء السردارية وهي وزارة المالية  
الان ، وانشىء منزل السكرتير المالي ومنزل مدير الخرطوم . وفي هذه  
السنة أيضا وضع اللورد كرومر وكثشتر أساس كلية غردون التذكارية  
التي اكتب لها الشعب البريطاني بسخاء إثر نداء اللورد كثشتر تخليدا  
لذكرى الجنرال غردون باشا ، ذلك المسيحي العظيم الذي ذبحه — فيما  
وصفوا — برابرة أفريقيا المتوحشون والمسلمون المتعصبون على أبواب  
قصر الحكمدارية . ولقد ارتبط اسمه بمحاربة الرق .

وكانت لجمعية محاربة الرق سطوة وقوة في الدوائر السياسية ولها  
نفوذ في الصحافة لا يقاوم . كذلك ارتبط اسمه بالمسيحية لانه كان رجلا  
متدينا وذا ميول صوفية . وبسرور الزمن صارت شخصية غردون اسطورة  
شعبية تتجسع حولها الاساطير وتنسج حولها البطولات وتصوره الناس  
شهيدا من أجل المسيح ومن أجل المدينة . ولقد ارتبطت هذه الصورة مع  
نداء التنصير الذي نادى به الجمعيات التبشيرية فنجحت حركة التبرعات

وقامت كلية غردون التذكارية ، تلك المؤسسة العظيمة التي ندين لها جميعا . ولا يحسبن القارىء ان الدروس قد بدأت في هذا المبنى وانهم انتظروا حتى يفرغ من البناء ، فقد بدأت الكلية فصولها في ام درمان ثم انتقلت الى الخرطوم بعد ان اكتمل بناء المباني .

وتلت الكلية منازل اخرى كمصلحة الري والحقانية وامتدادات الكلية والمستشفى والمديرية وكان هناك مجمع للمصالح شيد في الموضع الذي فيه الان وزارة الزراعة ، وكان يتكون من دورين . وحتى تشييد هذه المصالح كانت مصالح الدولة في أم درمان ثم بدأ انتقال المصالح شيئا فشيئا حسب أسبقيات البناء ، وقد اكتمل ذلك بعد وقت ليس باليسير .

وفي نفس الوقت بدأ انشاء الرصيف على النيل والاهتمام بالشارع الذي يسير حذاءه . وكان أول جانب من الرصيف يشيد هو الذي يقع أمام القصر . ثم امتد الرصيف من هنالك شرقا وغربا . وجاء أول امتداد له الى الشرق حتى مباني مصلحة الاشغال . وقد تم ذلك في سنة ١٩٠٤ وفي ١٩٠٦ بلغ الرصيف مشرع الخرطوم بحري ، وكانت به معدية بخارية تربط المدينتين . وفي سنة ١٩٠٧ رصف ما بين القصر وما بين مبنى البريد والبرق ( وزارة الداخلية حاليا ) ، ثم وصل الرصيف امام الفندق الكبير . ولحماية منطقة المقرن من التآكل المائي الذي كان يسير بدرجة خطيرة فقد شيد في سنة ١٩٠٧ رصيف طوله خمسمائة ياردة ، وكان علق الرصيف في هذا الموضع بعيدا والرصيف نفسه متينا لان النية كانت تتجه الى اقامة ميناء للبواخر هنا وتوصيل الخط الحديدي اليه ، ويذكر أحد مخططي هذا الرصيف انه لا بد ان يستد من بوابة برى حتى التقاء النيلين في المقرن وقدر أنه يبلغ كساله في نحو خمسين سنة ، والان وبعد ما يزيد على الستين سنة من هذا القول تتساءل هل بلغ الرصيف مبلغه ذلك ؟ الواقع ان الرصيف قد اهلل في جانبه الشرقي ابتداء من وزارة الصحة .

وان منظر الجروف أمام جامعة الخرطوم لمنظر موحش ، وفي هذا



الموضع اتساع ظاهر في الرقعة بين النيل والشارع ، وربما يكون هناك مجال لإنشاء حديقة صغيرة في هذا الموضع ، او اقامة مباني تابعة للجامعة وحذا لو أقيمت فيه مكتبة الجامعة •

كان قوام خطة الشوارع التي اختطها كتشنر باشا ثلاثة شوارع رئيسية تسير شرقا وغربا في محاذاة النيل وهي شاع الخديو شارع الجامعة حاليا - وشارع عباس وشارع السلطان ثم أربعة شوارع رئيسية تسير شمالا وجنوبا وهي شارع كتشنر وشارع الملك وشارع فيكتوريا وشارع محمد علي • وعندما تتقاطع هذه الشوارع تتكون مربعات كبيرة من الارض تحيط بها هذه الشوارع الرئيسية من كل جهة وقد قسمت هذه المربعات بستة شوارع تقطعها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا في محاذاة الشوارع الرئيسية ، وهكذا يصير لدينا ١٦ مربعا صغيرا في داخل كل مربع كبير يبلغ كل منها نحو ٥٠٠ ياردة مربعة وهناك شارعان كبيران على اتساع الشوارع الرئيسية تقطع المربع الكبير من ركن الى ركن وبما ان المربعات الكبيرة متصلة ببعضها البعض فان هذه الشوارع تربط أطراف المدينة بوسطها في اتجاه مائل يعترض الاتجاه المستقر على اتجاه النيل والاتجاه المتفرع عنه •

وعند التقاء الشوارع الرئيسية والشوارع التي تقطع من ركن الى ركن تتكون مربعات دائرية صغيرة ، واذا تمثل المرء صورة هذه المربعات والشوارع التي تقطعها وتلتقي مع بعضها البعض لتبين له ما على العلم البريطاني من خطوط وادرك الشبه بينها وبين العلم البريطاني ، وهذا ما أراده اللورد كتشنر ، اذ لم يكفه رفع علم أمته على القصر المتهدم فشرع يرسم هذا العلم على أرض المدينة ، وفي ذلك بعض خيلاء جيله من البريطانيين الذين كانوا يرون أنفسهم فوق كل الناس وحضارتهم فوق كل الحضارات وعلمهم هذا رمزا لكل هذه العظمة والامبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس ، وعندي ان تصرف كتشنر هذا كان كنصرف الطفل الذي يود أن يحفر اسمه في كل حائط جميل تقع عليه عينه ، وعندي أيضا ان تصرف كتشنر ازاء البلاد التي فتحها وازاء اعدائه وخصومه العسكريين

لم يكن فيه ما يدل على الحضارة او التحضر ، فقد أتى بقائد واقعة عطبرة محمود ود أحمد وسلمه للعساكر السود ليسيروا به في شوارع بربر وهم يضربونه بالسياط ، مع ان محمودا كان رفيق سلاح واستحق عطف اعدائه الاخرين وتقديرهم ولم يكن يدفع كتشنر الى ذلك الا المقاومة العظيمة التي قادها هذا البطل ثم ان كتشنر أباح لنفسه ان يحطم دور العبادة وصوب مدافعه الى قبة المهدي واستباح المدينة التي سلمت له على اشلأ أبطالها كما كانت تباح المدن في القرون الوسطى وأعاد الى الازهان ما كان يفعله تيمورلنك وهولاكو بأعدائهم والمدن التي تقع في أيديهم . اين هذا المغرور الفظ من أولئك الذين كانوا يحرسون على حياة غردون وهو الخصم الالد ويؤكدون على الاصحاب وهم على أبواب المدينة على الا يتعرضوا لهذا الجنرال وغيره من كبار المدينة .

على أن هدف كتشنر الاكبر من التخطيط الذي وضعه للمدينة كان في المقام الاول عسكريا اذ أن مدفعا واحدا يوضع في ميدان من الميادين الدائرية الصغيرة يمكنه من السيطرة على قطاع كبير من المدينة سيطرة تامة كما أن الشوارع المتقاطعة كانت تسهل الانتقال من طرف الى اخر وتقرب المسافات واثّر هذا كله واضح الان في مقاومة المظاهرات والمواكب اذ أن كثرة الشوارع المتفرعة عن هذه المواضع واتجاهها الى مناطق متفرقة يسهل استيعاب جماهير المظاهرات وبالتالي يقلل من احتمالات الاصطدام بين الجماهير والبوليس ويضمن تشتت المتظاهرين وتفرقهم . وكأني بكتشنر كان يحس في قرارة نفسه ان هذه الامة لا تقاد له ولا تصبر على حكمه ، بل هي ثائرة عليه وآتية اليه كما أتت على رفيقه غردون ، ولهذا فلا بد له من ان يعد نفسه لليوم ويعد مدينته للمقاومة . ولامر ماكان الانجليز يتوقعون كرة أخرى من انصار المهدي يعودون كما كانوا حربا عليهم ومقاومة لهذا الحكم الذي فرض عليهم ، ويعيدون مجدهم الغابر ، ولهذا ظلوا يراقبونهم مراقبة شديدة ويحصون نشاطهم احصاءا ويأخذون عليهم كل كبيرة وصغيرة ويحسبون لكل حركة حسابا .

ومع أن تخطيط شوارع المدينة على هذا المنوال كان يخدم هذه

الاعراض العسكرية ويربط أجزاء المدينة إلا أنه قد أضحى لا يلائم طبيعة  
المواصلات الحديثة لأنه يعرض السيارات الى الاصطدام في نقاط الالتقاء  
كما أنه يخلق لسانا قبيحا عند نهاية الشوارع الركنية • ولولا أن الشوارع  
واسعة بعض الشيء ولولا تربيعات المرور وعلاماتها التي تدعو الى تخفيض  
السرعة والسير دائريا لتعرض الناس الى كوارث لا حد لها من كوارث  
المرور •

وتفاوتت أبعاد الشوارع واتساعها من مكان لآخر • وكان أوسع  
شوارع المدينة هو شارع فيكتوريا الذي بلغ عرضه ١٨٠ قدما والذي كان  
يقسم المدينة الى نصفين ويلى ذلك في الاتساع شارع الخديوي الذي  
بلغ عرضه ١٥٠ قدما • وهو الشارع الذي يفصل بين الحي الحكومي  
والاحياء الاخرى أما الشوارع الرئيسية الاخرى ومن ضمنها الشوارع  
التي تقطع المربعات من ركن الى ركن فقد جعل لها اتساع موحد بلغ حده  
١٢٠ قدما • أما الشوارع الثانوية وهي التي تقع داخل المربعات الكبيرة  
فكان اتساعها ٨٠ قدما •

والشوارع التي اطلق عليها أسماء معينة في أول الامر هي الشوارع  
الرئيسية السبعة التي سلف ذكرها • وكانت القاعدة الرئيسية هي وضع  
ارقام للشوارع • فالشوارع التي تسير مع اتجاه النيل رقت بالارقام  
المفردة ابتداء من شارع النيل ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩ الخ ... بينما أخذت  
الشوارع التي تسير شمالا وجنوبا الارقام الثنائية مبتدئة من الشرق ،  
٢ ، ٤ ، ٦ ، ٨ الخ ... ولما أقبل القوم على اطلاق الاسماء على الشوارع  
جعلوا للشوارع الرئيسية أسماء كبار الانجليز والمصريين كشوارع غردون  
وشارع كتشنر وشارع محمد علي وشارع الخديوي • وجعلوا للشوارع  
الثانوية أسماء بعض المشاهير الذين كان لهم دور في تاريخ السودان ممن  
هم في نظرهم دون أصحاب الشوارع الكبيرة ومن هؤلاء بيكر والزيبر  
باشا واستيوارت وهاشم بك والنجمي وجس • وهناك شارع يحمل  
اسم أسرة هو شارع أبي سن ولما تقرر اطلاق هذه الاسماء اتصل الحاكم  
العام بذويهم يبشرهم بهذا الشرف وقد اتضح في بعض الحالات أن أهل

بعض هؤلاء الاعلام نكرات لا يعرف العالم عنهم ولا يعرف لهم أقارب • وقد أخذ أحدهم من وقته طويلا يبحث عنه في اسكتلندا • فاذا به يعلم بعد زمن من أنه من ويلز • وانما أسوق هذا لاننا متهمون بالغفلة عن أبطالنا واهمال شأنهم • اما الشوارع التي تسير من ركن الى ركن فقد حملت أسماء المواقع التاريخية الكبرى كعطبرة وكررى •

والحق أن القوم كانوا مأخوذين بنصرهم على قومنا معترزين بالمعارك التي خاضوها وهكذا خلدوا ذكراها بهذه الشوارع كما خلدوها ببعض البواخر النيلية التي حملت أسماء بعض المواقع التاريخية بجانب أسماء شلالات النيل •

ولعلنا نتعجب بعض الشيء من هذا الاتساع العظيم الذي تميزت به شوارع الخرطوم مع أن القوم كانوا يعتمدون في الانتقال على الدواب من جمال وحمير وبغال وخيول ولم تكن عندهم السيارات والترامات والعجلات وكل ما يسأ شوارعنا اليوم من صنوف المواصلات • اذن لما كان هذا الاتساع لم يكن للزحام في الطريق ، كان الهدف هو خلق مسارات واسعة للهواء تهئية للجو الصالح لسكنى الاوروبيين الذين كانوا يخشون على انفسهم من الازدحام ومن جو أفريقيا وقد ظهر نفس الاتجاه في تخطيط المنازل في الحي الاوربي ، اذ أحاطوا المنازل بالحدائق والفسحات •

ولكثرة الخرائب ومخاطر الطريق ليلا اضيئت الاجزاء المهمة من المدينة بفوانيس توقد بالزيت اقيمت على عسدان في أطراف الشوارع وقد أدخل نظام الاضاءة العامة في المدينة في عام ١٩٠٠ ولما دخلت الانارة الكهربائية في سنة ١٩٠٧ كان هناك نحو ٣٠٠ فانوس ، وكان مما عجل بدخول الكهرباء ان هذه الفوانيس كانت تكلف الدولة مبلغا جسيما مع أنها محدودة الاثر ، وقد قدر ان الفانوس الواحد كان يكلف ١٢ قرشا في الشهر • وعلى ذلك فان فوانيس الشوارع كانت تكلف الدولة نحو ١٥٠٠ جنيه في السنة وهو مبلغ جسيم بالنسبة لظروف ذلك الزمان ومع

ن الكهرباء تكلف أقل من ذلك وتعطي اضاءة اكثر فان متاعب الانارة لم  
تته لان الوابور الذي استجلب لهذا الغرض كان عتيقا . ولكن القوم على  
في حال كانوا سعداء بهذا الذي أصابوه من بركات الحضارة وآيات  
القدم .

وكان اول عهد شوارع الخرطوم بالاشجار اشجار اللبخ التي  
استجلبت من مدينة حلفا وزرعت في أربعة صفوف على طرفي شارع  
الخدوي - شارع الجامعة حاليا - ، ما بين كلية غردون التذكارية  
ومبنى المديرية . وقد نبتت هذه الاشجار ببطء شديد ومات منها عدد  
كبير . ثم استجلب كتشنر ألف شجرة من الجميز من مصر وزرعها في  
حديقة القصر ولكنها ماتت ولم يبق منها الا شجرة واحدة تركت لتنمو في  
الحديقة تذكارا لغارسها . وقد استجلب القوم بعد ذلك أنواعا أخرى من  
الاشجار من مصر ومن الهند ومن أعالي النيل لتظل بها شوارع الخرطوم  
وعانى القائمون بأمرها صنوفا من العراقيل . فاغنام الاهالي التي ترح في  
المدينة كما ترح الابقار في شوارع الهند كانت تقضي على الاشجار وهي  
صغيرة . ولما لم يكن من السهل ايقافها كما هو الحال الان فان المسؤولين  
أحاطوا الاشجار بسياج من جريد النخل يصنعها ضعاف المساجين اتقاء  
لشر الغنم . وكانت هنالك الاهوية العارمة والاعاصير التي تهب على  
المدينة وتقضي على الاشجار وخاصة الاشجار الناجحة التي اتسع رأسها  
لتسع حمل الهواء ، وكأني بهذه الأهوية تقصد من أشجار الشوارع  
ما تنجو من الغنم وتختار أنجحها وأكبرها . وقد هبت عاصفة هوجاء .  
كتلك التي تهب على اليابان في اغسطس ١٩٠٦ وقضت على اغلب الاشجار  
في المدينة واصابت القوم بخيبة عظيمة وفي نفس السنة وفد الجراد وقضى  
على أشجار اللبخ التي زرعت على اطراف شارع السردار وفيكتوريا .  
وكان هناك النمل الابيض وهو عدو لئيم لا يقل خطورة عن الجراد او  
الغنم . على أن العقبة الكبرى كانت رداءة التربة وقسوة الجو وقلة  
الخبرة وقد تسكن القوم من اجتياز هذه العقبات شيئا فشيئا وعرفوا  
الاشجار التي تصلح لشوارع الخرطوم وتوائمت طقسها . وقد رتب

المسؤولون ثلاث نساء ليقمن بالسقي ثم حصلوا في سنة ١٩٠٧ على عربة تجرها الحيوانات وتحمل الماء للاشجار •

والشارع نفسه مقسم الى اقسام ، ففي الوسط يكون أصل الشارع الذي يمر به الراكبون وهو يبلغ ثلث الشارع •• وهو الذي صار الان للعربات • وقد رصف هذا القسم بالحجر اذا كان الشارع رئيسيا ، ويأتي على طرفي هذا القسم ممران يكون كل منهما ثلث الطريق ، وقد اعدا لغير الراكبين • ثم يأتي وراء ذلك صف من الاشجار واذا كان الشارع مهما كشارع فيكتوريا يكون هناك صفان من الاشجار ويؤخذ على هذا النوع من التخطيط أنه يجعل الظل في طرفي الشارع بينما يتعرض وسطه للشمس وأفضل من ذلك ان نجعل صفا من الاشجار في وسط الشارع ثم نجعل طريقين على جانبي الصف ، لكل اتجاه طريق ، ثم نجعل على طرفي الشارع صفا اخر من الاشجار يسير تحته السائقون • هذا اذا كنا نريد أن نتقي من حرارة الشمس ولكن كثرة الاشجار ووجود صف منها في وسط الشارع قد يكون شاغلا لاصحاب العربات وقد لا يضمن المرء غفلة المارة الذين يفاجئون السائقين من خلف الاشجار ويكونوا ضحية الطريق •

## (٨) امتدادات الخرطوم

بينما كانت مدينة الخرطوم تنمو وتتسع على هدي الخطة التي وضعها اللورد كتشنر والتي وصفنا تفصيلها في الفصول السابقة كانت تلوح في الافق منذ أيامها الباكرة رياح التغيير والتعديل وتتجمع الرغبات والدواعي التي تدعو الى اعادة النظر في هذا التخطيط وكانت أولى هذه الدواعي ان المدينة الجديدة قد انشئت في مكان المدينة القديمة دون نظر أو اعتبار لوجود مدينة أم درمان كمدينة متصلة بالعاصمة الجديدة ، وكان من أثر ذلك أن تركت منطقة القرن الممتدة من النيل الأبيض حتى حديقة الحيوان خالية من العمران • ولو أنهم نظروا إلى العلاقة بين المدينتين وحسبوا حسابها لادخلوا هذه المنطقة في التخطيط ولما تركوها خرابا يقطعه المرء وهو ينتقل من هذه المدينة لاختها ، وكان من أثر ذلك أيضا ان مدينتي أم درمان والخرطوم بحري لم تقترنا مع مدينة الخرطوم في مجال التخطيط حتى ١٩٠٧ وان ادارات هذه المدن ظلت منفصلة عن بعضها البعض حتى انشئ مجلس بلدي موحد لها في ١٩٢١ ويخيل للمرء ان مرد هذا النقص راجع الى أمرين أولهما ان يقوم القصر الجديد مقام القصر القديم تخليدا لذكرى غردون وردا لاعتباره وان تقوم عاصمة الادارة الجديدة حيث كانت عاصمة الادارة القديمة تأكيدا لامتداد النظام القديم وبعثا له واهمالا لنظام المهدي ومؤثراتها السياسية والاجتماعية •

أما الامر الثاني فهو ان الفاتحين كانوا يحسبون ان عاصمة الانصار ستسوت لا محالة بقيام العاصمة الجديدة •

وكان من الدواعي الداعية للمراجعة أن مخططي المدينة كانوا في أول أمرهم على خلاف كبير حول مستقبل المدينة وعلى أي صفة تكون • فقد

ذهب قوم الى ان تكون المدينة مدينة سكنية للعناصر الاوربية والقطاع المتقدم من الوطنيين الاجانب وبأن تكون الاعمال التجارية وسائر ضروب النشاط في مكان غير الخرطوم . وكان هناك آخرون ينادون بأن تكون المدينة كاملة التكوين وأن تتسع لضروب الاعمال وسائر جوانب الحياة . وقد أطل هذا الخلاف وظهر بسداه الواسع عندما نظر في أمر الامتداد الغربي للمدينة وموضع الميناء النهري .

وكان هناك التقدم الحضاري والنمو التجاري والتوسع الاقتصادي الذي بدأ ينتظم القطر بعد استقرار الاحوال ومد السكة الحديد وانتعاش التجارة مع الخارج وكان هناك الزحف من اجل الارض بعد ان امتدت أزمة أرض المدن في مصر الى الخرطوم مما دعا الحكومة الى توزيع مزيد من الارض وتوسيع رقعة المدينة . ولما أقيم الكبرى على النيل الازرق ومدت السكة الحديد الى الخرطوم زاد ارتباط المدينة بالخارج كما أصبح واضحاً ان خريطة المدينة تحتاج الى مراجعة ونظر لرسم مكان الخط الحديدي واختيار مكان محطة السكة الحديد وتحديد ارتباط هذا الخط بالرصيف النهري والترام البخاري ومعديات النيل الازرق والنيل الابيض . ولما جاء كبرى النيل الابيض زاد ارتباط المدينة بمدينة أم درمان . وقد صاحب انشاء الكبيرين تحول بشري كان له أثر كبير في مجتمع المدينة . ففي أول الامر كان اغلب العمال وصغار الموظفين الذين يعملون في الخرطوم يسكنون في الخرطوم بحري هرباً من الايجارات الكبيرة في الخرطوم بينما كان يسكن بعضهم في أطراف مدينة الخرطوم . فلما أنشئ الكبرى على النيل الازرق وصار الاتصال سهلاً وميسوراً بين الخرطوم والخرطوم بحري زحفت الطبقات الفقيرة الى المدينة الاخيرة هرباً من الايجارات المرتفعة في الخرطوم ولما أنشئ الكبرى الثاني على النيل الابيض كان هناك تحول بشري هائل نحو مدينة أم درمان لان أرض أم درمان كانت أرخص من الارض في الخرطوم والخرطوم بحري ولان ايجاراتها كانت منخفضة ولان أغلب العمال كانوا في الاصل من سكان أم درمان الذين انتقلوا الى المدينتين الجديدتين ليكونوا على مقربة من أماكن العمل .



وتتطور الحياة ونمو المدينة ظهرت الصناعات الصغيرة كالنجارة والحدادة وما إليها وصار لها رواج عظيم وإذا أهمل التخطيط الأول هذا الجانب فقد صار لازما أن يعد له مكان مناسب في المدينة ولما جاءت السيارات والدراجات ظهر أن شوارع الخرطوم المتقاطعة تعرض السيارات والمارة الى مخاطر الحركة ، وقد استلزم ذلك أن يعاد النظر في تخطيط الشوارع وان يحسب حساب السيارات وسائر ضروب المواصلات السريعة .

وعلى العموم فان التقدم الحضاري والمادي الذي شمل القطر بعد الفتح والوعي الذي صاحب ذلك كان من شأنه ان يؤثر في حياة المدينة وان يغير في خريطتها وأن يحدد أهداف تطورها ويشكل نموها .

وقد جاءت المحاولة الاولى للتعديل في خطط كتشنر والتوسع في المدينة على يد استاتن الذي تولى ادارة مديرية الخرطوم في الفترة ما بين أول ١٩٠١ ومارس ١٩٠٩ والذي ترأس عدة لجان للتخطيط تحت اشراف ونجت باشا حاكم عام السودان. وأشرف اشرافا فعليا على بناء المدينة . وقد كان استاتن من كبار الضباط الانجليز الذين صاحبوا كتشنر في حملة الفتح ، وقد شهد واقعة كررى التاريخية واشترك في الصلاة التذكارية على روح غردون . ولما انتهت الحرب تسلم منصب مدير الخرطوم ، وكان ثاني مدير للمديرية في العهد الجديد وقد ترك استاتن وراءه مذكرات مكتوبة بخط يده دون فيها تفاصيل كثيرة عن حياة المدينة وعن حركة العمران ووصف خرائب الخرطوم عند الفتح وصفا دقيقا وتعد هذه المذكرات من أوفى ما كتب عن الخرطوم في أيامها الاولى .

كانت خطة استاتن الاولى تهدف الى تعمير المنطقة الغربية من المدينة وهي التي تمتد من النيل الازرق حتى حديقة الحيوان وكانت هذه المنطقة فضاء منخفضا تغمره مياه الفيضان وتتجمع عنده مياه الامطار فاذا انحسر الفيضان وتحولت المنطقة الى برك ومستنقعات وكانت الخطة تقضي بدم هذا المنخفض وتحويله إلى منطقة سكنية ذات درجة عالية ثم بناء رصيف على طول النيل الابيض وانشاء ميناء نهري قرب المقرن ليكون نقطة البداية للمواصلات النهرية بين الخرطوم وجنوب السودان .

وقد كونت لجنة خاصة برئاسة استاتن للنظر في هذا المشروع وصدر قرار عن هذه اللجنة في فبراير ١٩٠٧ باعتماد هذا المشروع والشروع في تنفيذه . ويقضي هذا القرار بإنشاء المرفأ النهرى على النيل الأبيض وتقسيم أرض المنطقة الى قطع سكنية وبيعها في المزاد وقد قدر ان ثمن الارض سيغني بتكاليف المشروع والتي قدرت بنحو ٢٠٠ ألف جنيه . وتوفيرا للزمن والتكاليف رأت اللجنة أن تستفيد من رصيف النيل الأزرق الذي بلغ نقطة القرن في ١٩٠٦ وان تقام الاسكلة في ديم أبي حشيش بصفة مؤقتة على ان تنقل الاسكلة عند نهاية المشروع الى مكانها المقرر على النيل الأبيض .

وكان هذا المشروع يقوم أساسا على أنه يمكن رد المبالغ التي تصرف اذا بيعت الارض بأسعارها المرتفعة آنذاك غير ان سعر الارض قد انخفض في ١٩٠٧ انخفاضاً مفاجئاً وبلغ سعر المتر أقل من ٧٠ قرشا وهو أدنى ما يمكن اعتماده واضحى من الواضح ان المشروع لا يمكن أن يغني بتكاليفه وبالنظر الى ذلك فقد جمد المشروع وكون الحاكم العام لجنة أخرى برئاسة استاتن نفسه وهي لجنة تطوير مدينة الخرطوم وقد حددت مهمة اللجنة بإنهاء النظر في تطوير التجارة في المـدن الثلاث وتحديد الاراضي اللازمة للقطاع التجاري والتقدم بتوصيات محددة لتطوير سبل المواصلات وقد تقدمت هذه اللجنة بتوصياتها في أبريل سنة ١٩٠٨ .

وقد تطرقت اللجنة أولا الى مكان الميناء النهرى . هل يكون في الخرطوم بحري أم في الخرطوم أم في أم درمان . لقد نظرت اللجنة في كل الاحتمالات ووقفت على مذكرات فنية وبالرغم من أن رأيا قويا كان ينادي بأن يكون الميناء في الخرطوم بحري فان اللجنة قد قررت أن يكون الميناء في ديم أبي حشيش جنوبي حديقة الحيوان وكان هناك رأي ينادي بأن يكون القطاع التجاري والصناعي في منطقة الخرطوم بحري وأن تكون الخرطوم مدينة سكنية خالصة بينما كان هناك رأي آخر يرى أن الخرطوم ينبغي ان تكون مدينة كاملة . وقد اعترضت السلطات العسكرية على هذه الفكرة لانها كانت تعني نقل معسكر الجيش من الخرطوم بحري الى مكان آخر وأخيرا تغلب الرأي القائل بان توفر الاماكن اللازمة

للتجارة والصناعة في مدينة الخرطوم وان يبقى الجيش والمخازن في  
الخرطوم بحري •

وعندما انشئ الكبرى على النيل الازرق في سنة ١٩٠٩ استدعى  
ذلك تعديلات في خريطة المدينة وبعد مناقشات طويلة انتهى الرأي بأن  
تكون محطة السكة الحديد في الطرف الجنوبي من المدينة في نهاية  
شارع فيكتوريا الذي يبدأ من القصر وأن يسير الخط الحديدي على  
استحکامات الخرطوم القديمة وان يسير خط آخر في شكل دائري من  
المحطة الى الاسكلة بديم أبى حشيش • وقد استتبع ذلك توسيع شارع  
فيكتوريا ( شارع القصر حاليا ) وتجميله •

وفي سنة ١٩١٢ تقدم المستر ماكلين مهندس بلدية الخرطوم بتعديل  
آخر يهدف الى التوسع الى ناحية الجنوب والشرق والغرب وتوفير  
مساكن للطبقات الفقيرة في أطراف المدينة •

وجاء التعديل الثالث على يد المستر سار سيفيلد هول الذي تولى  
ادارة مديرية الخرطوم من ١٩٢٩ الى ١٩٣٦ وكان مشروعه يهدف الى  
توفير منطقة للصناعات البلدية غرب شارع فيكتوريا واجراء تعديلات في  
الشوارع المتقاطعة لكي تلائم حركة السيارات وتعمير المناطق التي تقع  
داخل دائرية خط السكة الحديد وتوفير مكان للطبقات الفقيرة واعداد  
أماكن للساحات والميادين والحدائق العامة •

وكانت هناك منطقة سكنية خارج دائرة السكة الحديد يسكنها  
فقراء المدينة وهي المنطقة التي تعرف بالديوم ، وقد نشأت هذه الديوم  
دون تخطيط معد من قبل سلطات المدينة الا أن أهلها خططوها على وجه  
سليم • وقد بلغ عددها ١٢ ديما وقد قسم كل ديم الى مربعات وبلغت  
مساحة كل مربع نحو مائة متر مربع ، وبلغ اتساع الشوارع الرئيسية •  
مترا في حين بلغ عرض الازقة في داخل المربع خمسة أمتار وقد جاءت الازقة  
ضيقة لان الدولة لم توفر وقاية ضد اللصوص •

وفي ١٩٤٧ وضعت خطة جديدة للتوسع وعلى هدى هذه الخطة  
ظهرت أحياء جديدة في الخرطوم جنوب وهي ١ و ٢ و ٣ •

وتعتبر ضاحية البراري أقدم امتدادات الخرطوم الواقعة خارج  
الخرطوم الام المحاطة بدائرة خط السكة الحديد ، وكانت البراري  
القديمة نفسها امتدادا لمستعمرة المحس بجزيرة توتي ، وكانت مستدة على  
الشاطئ الايسر من النيل الازرق شرقا وغربا الا ان بعض البراري قد  
انشأت كمنطقة سكنية لفقراء مدينة الخرطوم وأصل اللفظ فيما نحسب  
هو البر نسبة الى أن المنطقة تعتبر البر الجنوبي لسكان جزيرة توتي ثم  
اضيف اليه حرف الياء لسهولة النطق وقد لاحظنا ان نفس اللفظ كان يطلق  
على المناطق المجاورة لمدينة سواكن ، والمناسبة هنا هي أن جزءاً كبيراً من  
المدينة يقع في جزيرة ، وعندما كتب الامام المهدي بتأثير الامير عثمان دقنه  
على شرق السودان وجه خطابه الى أهالي سواكن وبرورها وهو يقصد  
أهل المدينة والعربان الذين يقطنون حولها •

وتعتبر برى المحس أقدم البراري وأشهرها وكان موضعها قبل أن  
تنقل الى مكانها الحالي شرق رصيف كبرى النيل الازرق ، وقد انشأها  
الشيخ قسومة حوالي سنة ١٥٧٥ م ، ولما انشأ المصريون مدينة الخرطوم  
ازدادت أهمية الحلة ووفد اليها كثير من المحس الذين يعملون بالمدينة  
فاتسعت الحلة ونمت نموا كبيرا وعند قيام المهدي انشأت الحكومة  
استحكاما قويا حول المدينة وقد جعلوا في هذا الموضع طابية وبوابة ،  
وكانت بوابة برى أصغر بوابات الخرطوم الثلاثة وقد أوصدت عند بداية  
الحضارة أما البوابتان الاخريتان فكانتا بوابة الكلاكلة وبوابة المسلمية  
وعندما وفد أبو قرجة على رأس قوات المهدي لمحاصرة الخرطوم أنشأ  
طابية الانصار على مرمى الرصاص من طابية الحكومة ، وقد تسكن غردون  
من طرده منها ومن تخريب الطابية في يوليو سنة ١٨٨٤ • وبعد ذلك بقليل  
جاء النجومي بسزيد من القوات وشد الحصار ، وقد تولى قيادة جبهة برى  
الامير عبدالله النور الذي استشهد في احدى وقائعها قبل سقوط المدينة  
بقليل •

وبعد أن استولى الجيش الفاتح على الخرطوم بقيادة كتنسر تقرر إقامة معسكر الجيش المصري في هذا الموضع ليكون في مواجهة المعسكر الآخر الذي اقيم على الضفة الثانية من النيل الازرق وبالتالي نقلت الحلة في سنة ١٩٠٠ الى موضعها الحالي بعد أن دفعت التعويضات لاهلها • وقد خططت الحلة الجديدة لتكون مسكناً لطبقة الموظفين وصغار التجار بالإضافة الى أهل برى المحس ولذلك اعتبرت من مناطق الدرجة الثالثة • أما حلة برى الدرايسة والتي نقلت الى شرق برى المحس فقد أنشأها في الاصل أولاد شمام في القرن السادس عشر وكان أغلب سكانها من الجموعية وقد نقلت الى موضعها الحالي نسبة الى أن المدينة الجديدة قد استوعبت مكانها القديم •

أما برى أبو حشيش والتي تقع الان شمال شرق برى الدرايسة فكان موضعها بين حلة المنجرة وبين حديقة الحيوان ، وقد نشأت في الاصل كمناطق سكنية لعمال الترسانة القديمة والجنود المسرحين وفي أيام المهدية أخذ تيار الماء جزءا كبيرا من موضع هذه الحلة ، وكان من المقدر أن تنقل الحلة عند تنفيذ خطة استاتن لتعمير الجانب الغربي من مدينة الخرطوم الا أن عسرها قد امتد حتى اقيمت الاسكلة ومخازن السكر في المنطقة ، وقد نقلت الحلة الى موضعها الحالي على أثر ذلك • وهناك برى الشريف والتي تقع في أقصى شرق البراري وهي تعرف أيضا ببرى اللاماب ، وهناك كتاب بالانجليزية عن التكوين الاجتماعي لهذه الحلة •

ونود أن نشير الى أن ضاحية البراري محاطة بفضاء واسع من الجانب الشمالي وبفضاء أوسع من الجانب الجنوبي ، وبما أن الجانب الشمالي محجوز ويعتبر امتدادا لمباني الجامعة والمصالح العامة التي تقوم بغربه في حين يعتبر الجانب الجنوبي ضمن منطقة مطار الخرطوم الدولي فإن امتداد البراري يتجه تلقائيا الى الشرق •

وفي أقصى غرب المدينة بجوار حديقة المقرن كانت حلة صغيرة تدعى حلة المنجرة وقد عرفت بهذا الاسم لانها كانت مرسى للسفن الشراعية

وقد كانت في أيامها الاولى منطقة لصناعة المراكب أيضا ويقال أن جماعات من المحس والجموعية قد أنشأوها في القرن السادس عشر • وكانت القرية قديما تستد حتى الاسكلة والمتحف ، وكان أهلها يستلكون المنخفضات الجنوبية الغربية ويزرعونها بعد الفيضان الا أن الحلة قد انحسرت شيئا فشيئا ثم أزيلت نهائيا قبل سنوات •

وقد قدر للمنخفضات الغربية التي اهتم بشأنها الكولونيل استاتن وأعد لها الخطة التي أشرنا اليها من قبل ، أن يستد اليها العمران وأن تصير منطقة ذات مكانة مرموقة • ففي هذا الموضع انشأت الدولة بعض المنازل لكبار موظفيها كما أنشأت المعهد الفني وعددا من المنشآت العامة بالإضافة الى بعض الدور الاهلية ذات المرتبة العالية وفي أقصى امتداد هذه المنطقة تقع حلة صغيرة ما زالت تحل اسم المقرن وهي من مناطق الدرجة الثالثة •

وفي المنطقة الواقعة جنوب الخط الحديدي نشأت الديوم القديمة ، وقد لجأ اليها فقراء المدينة من العمال وقدماء المحاربين ومن اليهم بعد أن أخرجوا من مساكنهم القديمة في موضع مستشفى النهر وجنوب الكاتدرائية الكاثوليكية وجنوب مسجد الخرطوم العتيق ثم اجتمع عليهم وافدون آخرون من قطاعات المدينة الاخرى الذين لفظتهم المدينة الكبرى ، وقد وفدت جماعات من هؤلاء أيضا من الخرطوم بحرى وأنشأوا ديم عطا الله وديم سلك ، وكان عدد هذه الديوم يبلغ نحو ٢٣ ديمًا وقد سمي كل ديم باسم مؤسسه كديم سلمان وديم عبد الكريم أو باسم القبيلة التي أنشأته كديم تقلى وكنجارة والبائدة والتعايشة والزيرية والبرتى •

وكانت الديوم القديمة تشكل مستطيلا يمتد جنوبا وشمالا حول منطقة حديقة القرشى حاليا والى الجنوب منها كانت الفلاتة والتي نقلت الى موضعها الحالي وقد نشأت الديوم في الاصل خارج المنطقة المخططة ولم تكن سلطات مدينة الخرطوم تهتم بأمرها الا أن أهلها كانوا يخططون المربعات والشوارع بشيء من النظام وقد جاءت شوارعها مستقيمة تسير شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وقد تميزت الحلة بوجود أزقة ضيقة داخل

المربعات الكبيرة وكان الهدف من ذلك هو الوقاية من هجمات اللصوص ليلا لان الدولة لم تكن تيسر الحماية البوليسية لسكان الديوم .

على أن الدولة قد تنبعت الى أهلية الديوم في الاربعينيات فقد تكاثر عدد سكانها نتيجة لازدياد الهجرة من الاقاليم الى العاصمة ونتيجة للزحف السكاني من قطاعات المدينة الاخرى بسبب ارتفاع الایجارات . وكان من أثر ذلك أن صارت الديوم منطقة مزدحمة تشكل خطرا صحيا واجتماعيا وعلى الاثر خططت الحكومة منطقة الديوم الجديدة ليستقر فيها أهل الديوم القديمة . وبالفعل بدأت الحكومة في ازالة الديسوم القديمة في سنة ١٩٤٩ واستمرت عملية الازالة عدة سنوات . وقد بنيت الديوم الشرقية الحالية بعد ذلك بنفس ترتيب الديوم القديمة .

أما الديوم الجديدة فقد جاء تخطيطها أوفى من تخطيط الديوم القديمة حيث نجد الشوارع أوسع والميادين أكثر وأرحب غير أن بناءها قد توافق مع بناء الدرجتين الاولى والثانية بالخرطوم جنوب وكان من أثر ذلك أن ازدادت حركة البناء والتعبير وقد أدت هذه الحركة بدورها الى ارتفاع أسعار مواد البناء وارتفاع تكاليف الانشاء وقد وقع ثقل ذلك على اهل الديوم الجديدة لانهم أصلا من القطاعات الفقيرة المرهقة اجتماعيا .

أما الدرجتان الاولى والثانية من امتداد الخرطوم جنوب فقد جاءتا شرق الديوم وشمالها وقد استمر تغييرها لعدة سنوات ومن الملاحظ أن شوارعها ليست مستقيمة كما هي الحال في الديوم بل هي في أشكال دائرة وأحيانا نجد الشوارع المتقاطعة التي تتفرع من الميادين كذلك نجد ميادين ذات شكل مثلث قصد المخططون أن تكون ملاعب لاطفال المنطقة ، ومع أن هذا النوع من التخطيط يبدو جيلا في الخريطة الا أنه لا يلائم حركة المواصلات الحديثة .

وبنسو المدينة أولا ولظروف الحرب العالمية الثانية بدأت تظهر الصناعات الخفيفة كصناعة الزجاج والصابون ومعاصر الزيوت وصناعات

الخدمة كوحدات تصليح السيارات والمخازن • وحيث أن موضع الحرف الصغيرة الواقع غرب شارع القصر لم يكن مناسباً لمثل هذه الصناعات فقد خططت منطقة الصناعات الخفيفة خارج دائرة السكة الحديد ، وهي تقع جنوب غرب محطة السكة الحديد ومتصلة بها بخط حديدي ، ويفصل بينها وبين منطقة الدرجة الثانية السكنية نحو مائة متر بينما يقع خلفها من الجانب الجنوبي فضاء واسع يفصل بينها وبين الديوم الجديدة وقد انشيء في جزء من هذا الفضاء داخلات المعهد الفني ، وقد انشئت منطقة أخرى للصناعات الخفيفة في الخرطوم بحري ومن المقدّر أن يكون الموضع الأخير موضع صناعات المستقبل •

وفي السنوات الأخيرة واجهت مدينة الخرطوم ازدياداً في السكان مع تحسن في مستوى المعيشة وبالتالي ظهرت رغبة عارمة لامتلاك الأرض وبناء الدور لا للمكّن وإنما للإيجار لأن المنازل كانت تعطي عائداً كبيراً ، وفي هذه الظروف ظهرت الضواحي التي انشئت خارج مخطط الدولة وبغير اعترافها كمناطق الشجرة واللاماب والعزوزاب وبعض أطراف الجريف وتحت الحاح الجمهور خططت الدولة المنطقة الواقعة شرق حلة الفلاتة وجنوبها لذوي الدخل المحدود وعلى الأثر ظهرت منطقة الامتداد الجديد بينما ظهر في الطرف الشرقي امتداد الدرجة الأولى والثانية ، وتعد الدولة العدة الآن لتوزيع قطع جديدة لذوي الدخل المحدود جنوب امتداد الدرجة الثالثة •

لقد اتسعت مدينة الخرطوم اتساعاً بعيداً وهناك من الدلائل ما يوحي بأن هذا الاتساع سيسير حتى تبلغ المدينة في اتساعها بعداً بعيداً ، ولعل أهم الدواعي الداعية إلى ذلك الرغبة العارمة في الامتلاك والبناء والتي تنتشر كالحصى في كل الأوساط تحت حلم الثراء والدخل المنتظم من ريع المباني ثم سهولة التوزيع من قبل الدولة بينما يكلف الاتساع الأفقي وبناء الدور ذات الأدوار العالية مبالغ طائلة وتحتاج إلى جهد هندسي قد لا يتوفر في الوقت الحاضر •



ويلاحظ ان المدينة بعد أن بلغت حدود المنطقة المحاطة بالخط الحديدي قد اتخذت في الاتساع الى الجانبين الشرقي والجنوبي ويسكن أن يقال عسوما ان الجانب الشرقي يوشك أن يكون للدرجات العليا ينسأ صار الجانب الجنوبي للقطاعات الشعبية • واذا ما نظرنا الى خريطة المدينة من هذا الجانب فان وضع منطقة برى يبدو غريبا اذ أن منطقة المطار الدولي ، في حالة نقل هذا المطار الى أم درمان ستصير امتدادا للدرجتين الدولي ، في حالة نقل هذا المطار الى أم درمان ستصير امتدادا للدرجتين الظروف اقل من الدرجة الثانية وعلى ذلك فان برى الحالية ستكون بين منطقتين عاليتين وربما يعاد النظر فيها مستقبلا •

وينبغي ايضا أن نلاحظ أن مكان المطار الدولي قد أضحي غير مناسب ، وحيث أن امتداد الدرجة الاولى والثانية يسير في اتجاهه فان من الاسلم نقل المطار الذي قد أضحي في داخل المدينة • كذلك يبدو قصر النظر واضحا في وضع المدبغة الحكومية ومركز مجاري الخرطوم الذي يقع جنوب القوز ويؤدي أهلها كثيرا • وأمر آخر لا بد من دراسته بامعان وهو وضع المقابر التي تملأ عددا من ميادين المدينة واتسعت اتساعا بعيدا •

واذ يخرج هذا في وقت أخذت فيه الدولة توزع الارض على ذوي الدخل المحدود ينبغي ان نشير الى أن المسكن يشكل جانبا مهما من حياة الانسان خاصة في قطر يكاد كل فرد فيه يسلك المنزل الذي يأوى اليه سواء كان من قش أو جلد أو طين ، ان المنزل عامل استقرار نفسي لا بد منه • ولكن هناك مشاكل وراء التوسع في توزيع الارض ولعل أهمها هو أن التوزيع يخلق طبقة من الملاك خاصة والاتجاه العام الان هو الامتلاك للتأجير والاستفادة المادية من ورائه وهذا في الواقع يعني أن كثيرا من مدخرات المدن ستتحول الى منازل قد لا تجد من يؤجرها ويضاف الى ذلك أن كثيرين من لا يسلكون امكانية البناء سيحصلون على الارض وليس من سبيل أمامهم الا الاستدانة سواء كانوا من عمال الدولة أو غيرهم وهذا يعني في الواقع مزيدا من الديون لهذه الطبقة المرهقة وأخشى أيضا

أن يؤدي الامر الى ارتفاع في تكاليف البناء ومواده فيصير ذلك عبئا على  
الفقراء •

ودرنا لهذه المخاطر او تقليلا لها على الدولة الا تصر على أن يتم  
البناء في وقت محدد بل من الافضل أن تعطي فسحة من الوقت أطول  
حتى يتمكن الفقراء من البناء شيئا فشيئا وحتى يحد ذلك من ارتفاع  
الاسعار والتكاليف •

وعليها ايضا أن توفر مواد البناء ، خاصة المواد المحلية ، وأن تجعلها  
في متناول الفقراء •

## (٩) أم درمان

### ما بعد الفتح

قد يخيل للمرء أن الفاتحين قد تركوا أم درمان بعد الفتح مباشرة وانتقلوا بالعاصمة إلى الخرطوم . ولكن الواقع غير ذلك ، لأن هذا لم يكن متاحا ماديا ، ولم يكن عمليا من ناحية الواقع . فالثقل البشري في أم درمان قد استمر والعمل الإداري بها كان أصوب وأقرب إلى الواقع . والخرطوم كانت خرائب وليس هناك ما يقيم فيه الجيش أو الموظفون أو يعملون فيه . ولذلك ظلت أم درمان مركز الإدارة من الناحية العملية وإن أصبحت الخرطوم العاصمة الرسمية . وقد أخذ نقل الإدارات إلى الخرطوم سنوات لأنه كان يتوقف على حركة بناء المصالح في الخرطوم وتوفير المبالغ اللازمة للبناء .

وفي الأيام الأولى من الحكم الثنائي انكمشت المدينة بدرجة محسوسة نتيجة لانتقال القبائل التي فرض عليها الخليفة عبدالله الهجرة والاقامة في العاصمة لتكون عوناً له وعضداً أو لتكون تحت عينه ومراقبته الشديدة اتقاء للفتنة والاضطراب . وقد وجدت هذه القبائل الفرصة عند الفتح . وكان الفاتحون أنفسهم يريدون لهذه القبائل أن تعود إلى دورها وأن تستقر لتعيد دور القبائل وخلق استقرار في الريف ولتفادي الكثافة السكانية في المدن والتي تخلق للدولة مشاكل المدن التي لم تكن مستعدة لها وتحتاج إلى رقابة وإلى خدمات . وقد اعتبر أن عودة القبائل إلى دورها تخلق جواً سياسياً مريحاً إذ أنها تعني أن الظروف التي خلقتها المهدية قد زالت وأن الأمور قد عادت إلى ما كانت عليها قبلها .

وقد واجه المخططون في مدينة أم درمان مشاكل لم يواجهوها في الخرطوم والخرطوم بحري . فالخرطوم بحري كانت مدينة جديدة تخرج الى الحياة بظروفها الجديدة ، وقد وجد المخطط الحرية الكافية ليخطط ويعد ويزيد وينقل ما شاء دون أن تعترضه صعوبة ادارية أو مالية أو انسانية اللهم الا في حلتي حمد وخوجلي اللتين ادمجتا في المدينة وجرى فيهما بعض التعديل . وكانت الخرطوم عند الفتح عبارة عن خرائب وقد صرف النظر نهائيا عن تخطيطها القديم وما تبقى من مبانيها وتقرر وضع خريطة جديدة لها ، وبالتالي بدأت المدينة بدء جديدا وقدمت لاصحاب الاملاك القديمة التعويضات النقدية والعينية .

أما مدينة أم درمان فكانت قائمة ومكتظة بالسكان ولم تكن الخرطوم - حتى بعد بنائها - بديلا لسكانها لانه روعي أن تكون الخرطوم مدينة أوربية يستوطنها الاوريون ومن في مصافهم من المصريين والاسيويين وبعض السودانيين من الطبقة الدنيئة من الفعلة والذين يحتاج اليهم سكان المدينة ، وقد خصص لهؤلاء الديوم في أطراف المدينة . ولذلك أضحي من الضروري المحافظة على أم درمان حتى تكون سكنا للوطنيين وميدانا لنشاطهم التجاري والاجتماعي .

وقد فرضت هذه الحقيقة نفسها في تطور المدينة وذهب الجانب الاكبر من جهد المخططين في اعادة التخطيط بشق الشوارع واستقامتها وانتظامها وتحديد مواضع الاسواق وخلق الميادين والمنافذ . وحتى اليوم فان هذا التخطيط يواجه عقبات ومصاعب لعل أكبرها دفع التعويضات لاصحاب عدد كبير من البيوت التي ينبغي أن تزال أو تعدل أو اقناعهم بالانتقال الى أطراف المدينة بعد أن فقدوا مواقعهم الممتازة في داخل المدينة والتي اعتادوا عليها عبر السنوات الطويلة .

وبعد أن انحصر عدد السكان نتيجة لعودة القبائل الى مناطقها القديمة تركزت الحياة في داخل المدينة بينما تركت الاطراف ، ولذلك تقلصت مساحة المدينة وأصاب أطرافها الخراب . وقد بذل الجهد الاول من

التخطيط والاصلاح في هذا الجزء الداخلي ، وتكاد تكون الصورة العامة لتطور المدينة حتى قيام الحرب العالمية الاولى هي هذا الوضع ، أي العمل على اصلاح داخل المدينة وتركيز الحياة فيه .

وفي سنوات ما بين الحربين حصل توسع محسوس في المدينة وأعيد تخطيط أجزاء كبيرة منها ، ويمكن أن يقال أن ذلك قد شمل أكثر من نصف المدينة الحالية . وفي سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية جاءت سلسلة الامتدادات من الناحية الشمالية والغربية والجنوبية ، ولكن معدل الزيادة هنا لا تبلغ معدلها في هذه الفترة في مدينتي الخرطوم والخرطوم بحري .

وينبغي هنا أن نتذكر ظروف التحويلات السكانية في المدن الثلاثة حسب ظروف العمل وحسب سبل المواصلات الميسرة وبالخصوص انشاء كبري النيل الازرق والايض وحسب معدلات الصعود والهبوط في ايجارات المنازل وأثمان الارض ، وهي امور كان لها التأثير البالغ في اتجاه العمران في أم درمان وسرعته ونوعيته . وقد ذكرنا طرفا من ذلك عند الكلام عن الخرطوم بحري ، فلا نعيد .

وتتميز أم درمان عن جارتها باصالتها السودانية وبالنموذج الاسلامي الذي نعهده في الحي القديم ، وان كانت الاطراف الجديدة التي قامت في الخرطوم والخرطوم بحري تماثل الطابع السوداني في التخطيط وأسلوب البناء .

وتعد أم درمان العاصمة الوطنية الاولى ، وقد كان بها ثقل حركة الخريجين ومن ثم اقيم بها نادي الخريجين ، شيخ اندية السودان ، ورئاسة مؤتمر الخريجين العام . وكان الاجتماع السنوي للمؤتمر يعقد بها . وقد أقامت الاحزاب السياسية رئاستها بهذه المدينة . وحينما كان المشقف السوداني أو الوطني الغيور يشكو من الخرطوم وغربته فيها كانت أم درمان تمثل اصاله السودان وتضم في قلبه وضلوعه — على حد تعبير أحد الشعراء — أبناء الشمال والجنوب ، وتجيش فيها آمال الوطنيين وتحبس

## • فيها الالمهم •

وقد بلغ استقطاب ام درمان للعمل الوطني اوجسه بالاحتفال الجباهيري العظيم الذي اقيم بجامع الخليفة ابتهاجا بعقد اتفاقية السودان بالقاهرة والتي خطا السودان بسقطضاها خطواته الموفقة نحو الاستقلال • وبحق كان ذلك ابتهاجا قوميا شاركت فيه الاحزاب والهيئات بأسرها • على أنه كان آخر عهد المدينة بشل هذا الاستقطاب ، لان المراحل التي تلت كانت مراحل دستورية أو ذات طابع رسمي محدد ليكون مقرها في العاصمة الرسمية كافتتاح البرلمان ورفع العلم وعلان الاستقلال من داخل البرلمان وتكوين الحكومات ، كما أن ممارسة السلطة قد دعت الى انتقال قادة الحركة الوطنية حكومة ومعارضة الى الخرطوم • لقد كانت أم درمان عاصمة الحركة الوطنية عندما كانت السلطة في يد الاجنبي وعندما كانت الخرطوم قاعدة الحكم الثنائي ، ولكن مكاتنها هذه قد تقلصت عندما انتقلت السلطة الى الوطنيين وأضحت الخرطوم عاصمة وطنية مثلما هي عاصمة رسمية •

ومفتاح المدينة ثلاثة شوارع رئيسية تسير جنوبا وشمالا • أولها الشارع الذي يسير حذاء النيل ، وكان يسمى شارع برمبل نسبة الى المستر برمبل وهو أحد المفتشين المشهورين لمدينة أم درمان • ثم سسى في العهد الوطني شارع الشاطئ • ان هذا الشارع متفرع من شارع الموردة بالقرب من حديقة الموردة وأهم معالمه مبنى الاذاعة ومبنى التلفزيون والمسرح القومي وجزء من استحكامات الخليفة عبدالله للوقاية من ضرب البواخر •

والشارع الثاني شارع الموردة وهو يبدأ من كبرى النيل الابيض وينتهي عند المحطة الوسطى • ومن هذا الموضع يسير شارع أبوروف الى الشرق حتى النيل حيث كانت معدية شببات البخارية قبل انشاء كبرى شببات في نهاية شارع اسماعيل الازهري • ومن المحطة الوسطى يسير شارع كررى وشارع الشنقيطي ( دنقلا سابقا ) الى الشمال • ويتفرع شارع الخليفة من شارع الموردة عند جامع الخليفة ويسير شمالا ، وهو

أهم منافذ المدينة الى الشمال ، كما يتفرع شارع العرضة الذي يسير من جامع الخليفة غربا الى نهاية المدينة • ويقع على هذا الشارع مبنى البلدية ومدرسة الاحفاد •

أما الشارع الثالث فهو شارع الاربعين وهو يبدأ أيضا من كبرى النيل الابيض ثم يسير غربا ثم يتجه شمالا حتى يتصل بشارع العرضة •

وفي وسط المدينة سوق أم درمان المشهور ، والذي يعرف بالسوق الكبير ، وهو أكبر سوق في القطر كله • وهو على عادة السوق القديم مقسم الى أقسام يتخصص كل قسم في تسويق او صناعة سلع معينة • ومن ذلك سوق التمر ، وسوق الزنوك ، وسوق الخضار ، والصاغة ، والصيني وسوق العيش ، وسوق العناقريب ، وأماكن صناعة الاحذية ، والخياطين، وصناع العاج ، وباعة الخردوات ، والسمكرية ، ومحلات العطارة ، وسوق الدهن ، ومحلات الحدادة ، وسوق الخيش •

ويكاد يكون في هذا السوق أقدر المهنيين السودانيين في أعمال العاج والصياغة والجلد والتجارة •

وتكاد تكون منطقة السوق ثم المنطقة التي تقع فيها قبة المهدي وما جاورها وما بين هاتين المنطقتين قلب المدينة ، أي إن المنطقة القديسة هي التي عليها ثقل الحياة وحركتها الى اليوم •

والمدينة مقسمة الى أربعة أرباع وكل ربع الى أربع حارات ما عدا الحارة الثانية والحارة الرابعة فإن كل منهما ينقسم الى خمس حارات • وكل حارة تضم حيا او حيين وأحيانا تضم ثلاثة أحياء صغيرة •

وأهم أحياء المدينة هي أبوروف ، الحي التجاري ، ودنوبساوي الملازمين ، المسالمة ، العباسية ، الموردة ، العرب ، بانت ، العرضة ، وددرو



## • وبيت المال •

ومن المواضع المهمة بالمدينة كلية الدراسات العربية والاسلامية ( الجامعة الاسلامية سابقا ) ودار الرياضة وكبرى ابو عنجة وكبرى شمبات والمعهد العالي للمعلمين وكلية الاحفاد ودار الاذاعة ودار التلفزيون ومعهد تدريب المعلمات وعدة مدارس بمستويات مختلفة • وهناك عدد كبير من المساجد والكنائس •



## (١٠) الخرطوم بحري

تعتبر مدينة الخرطوم بحري أحدث وأصغر مدن عاصمة السودان الكبرى أو ما يسمى بالعاصمة المثلثة وقد أدى الى ظهورها عوامل مختلفة ليس منها العامل السياسي الذي أدى الى انشاء مدينتي الخرطوم وأم درمان • وبالرغم من أن المدينة تعتبر من عدة نواح امتدادا لمدينة الخرطوم ومكملا لها فإن لها طابعها الخاص ومقوماتها الخاصة التي تجعلها في مصاف المدن الكاملة القائمة بذاتها ، وهي تمثل قطاعا له ذاتية خاصة داخل اطار العاصمة الكبرى • فهي من جهة أخرى مركز الصناعات النامية في القطر •

وعند بداية هذا القرن لم يكن في الوجود ما يسمى بالخرطوم بحري، وكان يطلق على الموضع والمناطق المجاورة له لفظ الحلفاية ، والحق أن الحلفاية الاصلية ، حلفاية الملوك ، تقع الى الشمال على بعد بضعة كيلومترات وقد صارت عاصمة لمشيخة العبدلاب في أواخر العهد الفونجي • وعلى هذا فإن لفظ الحلفاية كان ينصرف الى اقليم واسع ولم يكن اسم موضع بعينه في هذه الجهة •

أما حلفاية الملوك نفسها فقد ظلت عاصمة للمناطق التي تقع شمال النيل الازرق ، أي المناطق التي كانت خاضعة لسلطان مشيخة العبدلات • وكما ذكرنا من قبل فإن العبدلاب نقلوا عاصمتهم اليها وشيئا فشيئا أخذت المدينة أهمية قرى • ثم إن هذا التحول قد توافق مع ضغط الشايقية على مشيخة العبدلاب من الشمال ونزوح مجموعات كبيرة منهم ، رعاة وفرسانا، الى هذا الاقليم واقليم شندي : وقد ظهر أثر ذلك في الحلفاية نفسها اذ صار للشايقية نفوذ فيها • ولما جاء العهد المصري ، والذي كان الشايقية

أكبر حلفائه» واخضع العبدلاب زادت قوة الشايقية في المدينة . وقد اكتمل ذلك بصورة حاسمة بعد اخضاع الاقليم وتسليم المدينة لهم أثر الثورات التي اندلعت بعد مقتل اسماعيل باشا . وبذلك صار الشايقية هم العنصر الغالب في المدينة .

ومع أن المصريين قد أنشأوا عاصمتهم في الخرطوم فإن الحلفاية ظلت عاصمة الاقليم واحتفظ بأهميتها لفترة - ولدينا من الوثائق ما يؤكد انها ظلت عاصمة للاقليم مثلها مثل بربر ومدمن حتى بعد انشاء الخرطوم - ثم غلبت عليها مدينة الخرطوم فتضعضت ، ثم جاءت مدينة الخرطوم بحري وأخذت أهميتها ليست كمدينة شمالي الخرطوم فحسب بل كعاصمة إدارية وتجارية للاقليم بأسره . وبذلك انخفضت أهمية حلفاية الملوك .

وكان ظهور العمران في الطرف الشمالي مقر الشيخ خوجلي الذي أنشأ منزلا ومسجدا وخلق مركزا دينيا مرموقا . ولما توفي الشيخ خوجلي في سنة ١٧٤٣ بنى أولاده وجيرانه قبة فوق قبره . ومع مرور الزمن نشأت حلة كبيرة في المنطقة وسميت حلة خوجلي . وقد أقطع سلاطين الفوننج وشيوخ العبدلاب وشيوخ هذا الاقليم أراضي واسعة لابناء الشيخ خوجلي حول القبة والى الشرق وفي جوار النيل وفي مناطق أخرى ، هذا بدوره أدى الى استقرارهم واستيطانهم . وقد كشفت الوثائق التي اكتشفت حديثا في قبة الشيخ خوجلي عن حقائق كثيرة عن نشأة هذه المستعمرة وعلاقات عقب الشيخ خوجلي وجيرانهم . وقد نست الحلة نموا بطيئا لانها لم تفسح مجالا للغرباء وانما ظلت موطننا لأحفاد الشيخ خوجلي . وفي أوائل العهد التركي تعرضت الحلة الى محنة قاسية عندما هجم عساكر محو بك على الحلة ونهبوها وخربوا القبة . ولولا أن محو عاد مسرعا لاستفحل الأمر وزاد الشر .

والى الشرق من مقر الشيخ خوجلي كان يقيم الشيخ حمد ود مريوم ، جد المريوماب ، وهو ابن خالة الشيخ خوجلي أيضا . وكان مقر الشيخ حمد في أول الامر في أم درمان الا أن نزاعا حادا قد نشب بينه

وبين الشيخ عبد المحمود النوفلابي ، ويقال ان النوفلابي أحرق منزل حمد وخلوته وكاد حمد نفسه فيما يقولون يروح صخية لسر هذا الولي لولا اصرار الشيخ خوجلي على أن يخرج حمد من المنزل ويغادر المكان . وقد انتقل حمد الى منطقة حلة حمد على أثر هذا الحادث ونشأت الحلة حول مقره الجديد .

ويقال أن الشيخ حمد كان على خلاف مع اساتذة أرباب العقائد وأنه لم يكن على معتقد القوم كثيرا لميله الى الظاهر غالبا واحتكامه الى العقل، وقد تابعه في ذلك كثيرون أشار الى بعضهم ضيف الله في معجمه . ويذكر الرواة أن علاقاته بالشيخ خوجلي كانت طيبة ولكن يبدو أنها لم تكن ودية . وللشيخ حمد قبة قائمة الى اليوم ، وما زالت حلته تعرف باسمه وتكون إحدى قطاعات المدينة المهمة .

ويأتي بعد الحلتين ، حلة خوجلي وحلة حمد ، قصر راسخ والذي كان مقاما على بعد أمتار من النيل الازرق في مواجهة قصر الحكمدارية . وكان محمد راسخ مديرا للخرطوم وسنار في الفترة التي الغى فيها منصب الحكمدارية واستعوض به نظام لا مركزي يتكون من مديريات كبيرة تتصل بالقاهرة رأسا ، وكان قبل أن يلي هذا المنصب مديرا على التاكة فيما يقول نعوم شقير أو على كردفان فيما يقول ريتشارد هل . وقد تولى منصبه في يوليو سنة ١٨٦٢ ثم رفع عنه في السنة التالية أثر إلغاء النظام اللامركزي واعادة توحيد القطر تحت الحكمدارية . وقد اتهم محمد راسخ بأنه كان يحب حياة الدعة ويسيل الى التسع وقد اخذ عليه كاتب الشونة وقال عنه : « وحضر بالخرطوم في شهر صفر من السنة المذكورة ( يقصد ١٢٧٨ هـ ) وكان صاحب حظ وانسراح ولم يشتغل بشيء سوى أنه انشأ القصر الكائن على شاطئ بحر النيل بالجانب الشرقي تجاه قصر الحكمدارية وهو آخر المديرين الذين انفردوا بولاية مديرية الخرطوم والجزيرة ولذا لم نطل الكلام في ذكرهم » . ويبدو ان كاتب الشونة كان من أنصار الحكمدارية والحكم المركزي ، وقد ذكر في صراحة أنه يهمل فترة النظام اللامركزي ، ويسكن تعليل ذلك بأنه راوية ، والرواة دائسا

يهتمون بالحوادث المثيرة والشخصيات القوية ، وليس في النظام اللامركزي ما يثير رغبته ، ولو كان كاتب الشونة ممن يهتمون بنظام الحكم وأساليبه ويستعرضون التجارب لاهتم بهذه الظاهرة ونظر نظرة ود الى راسخ بك ، على أنه يشهد لراسخ بك اهتمامه بتعمير مدينة الخرطوم وتنظيمها • وهو أول من فطن الى أهمية بناء رصيف من الحجر على شاطئ النيل ليقى به المدينة من فيضانات النيل كما أنه كان الوالي المصري الوحيد الذي نظر عبر النيل الازرق وحسب امكانية بناء بعض مصالح الدولة على الجانب الاخر من النيل • ولو كان من أتوا بعده قد تابعوا هذه الخطة لظهر على الجانب الشرقي من النيل الازرق امتداد لحي الدولة الحالي ولكان ارتباط المدينتين ارتباطا محكما •

وقد توفي محمد راسخ غرقا في الشلال قرب مركبه في ٢٢ شوال ١٢٨٨ هـ وهو عائد من السودان •

وكان قصر راسخ مبنيا بالطوب الاحمر ويتكون من طابقين اثنين وتحيط به فسحة واسعة وسور • ولما قامت الثورة المهدية تحول القصر الى طابية عسكرية وحفر حوله خندق • وكان يعسكر به عند بداية الحصار ٥٠٠ من الباشيزوق تحت قيادة حسين باشا ابراهيم ثم ارتفع العدد الى ألف عند اشتداد الحصار • وبعد واقعة الحلفاية سيطر الانصار على الاقليم كله الا ان طابية راسخ لم تسقط في يدهم •

وبعد ذلك لا يرد اسم هذا القصر لانه فقد أهميته بعد ان اشتد الحصار على الخرطوم ، وقد أهمل بعد سقوط الخرطوم اهبالا تاما ولم يجد من يهتم به ، ويبدو أنه قد أزيل نهائيا بعد الفتح الثنائي وأنشئ في مكانه محطة السكة الحديد القديمة •

وفي فترة المهدية انشأ الانصار في منطقة الخرطوم بحري مصنعا لصناعة الخرطوش كما أنهم جعلوها محطة لنزول القوات المتوجهة الى شرق السودان والقادمة منها ، وكانوا يشيرون الى المنطقة بلفظ الشرق نسبة الى أنها تقع شرق أم درمان وتفاديا لنسبتها الى قبة الشيخ خوجلي اذ أن الانصار كانوا ضد الاعتقاد في الشيوخ •

وبعد الفتح الثنائي انتهى خط السكة الحديد في أول الامر الى الخرطوم بحري وظلت محطة السكة الحديد بها حتى تم افتتاح كوبري النيل الازرق في سنة ١٩١٠ ومدة خط السكة الحديد حتى الخرطوم ، وقد نشأت مدينة الخرطوم بحري الحالية حول هذه المحطة • ثم وضع الانجليز فيها بعض المصالح الهامة كالمخازن والمهسات والنقل الميكانيكي والوابورات وبعض فرق الجيش الانجليزي • وعلى ذلك امتدت المدينة من موضع هذه المصالح والتي كانت تقوم على النيل الى الشمال ، وبعد فترة يسيرة استوعبت المدينة الحديثة حلتي حمد وخوجلي • وكان أهم معالم تخطيط المدينة الشارع الذي يسير من الكوبري شمالا حتى نهاية المدينة ثم يسير الى اتجاه سمبات •

وكان يسير في هذا الشارع خط ترام يبدأ من الكوبري ويسير حتى المحطة الوسطى ثم يسير الى مشرع شمبات حيث المعديّة الى أم درمان •

وأنت اذا نظرت الى خريطة تطور المدينة ستجد بقعا سوداء هي حلة خوجلي وحلة حمد ومحطة السكة الحديد والوابورات وهذه المواضع تبدو منعزلة عن بعضها حتى قيام الحرب العالمية الاولى ، وفي الفترة ما بين الحربين الاولى والثانية نجد أن المدينة استوعبت هذه البقع وملأت ما كان بينها من فضاء ، وقد أضحت حلة خوجلي تكون الطرف الشمالي الغربي للمدينة • ثم قامت امتدادات شرق محطة السكة الحديد • وفيما بعد الحرب العالمية الثانية توسعت المدينة نحو الشمال حيث قامت حلة الختمية وغيرها • وفي فترة ما بعد الاستقلال استمر التوسع نحو الشمال وقامت أحياء البيوت الشعبية وحي الصافية •

وفي أيام الحرب العالمية الثانية نشأت المنطقة الصناعية بجوار محطة السكة الحديد ، وقد توسعت هذه المنطقة بدرجة محسوسة بعد الاستقلال والاهتمام بقطاع الصناعة ومحاولة تركيزها في الخرطوم بحري •

## ( ١١ ) معالم مهمة

### الميدان الشمالي للقصر :

يقع بين القصر والنيل الازرق ميدان صغير يشقه شارع النيل وهذا الميدان ينتهي ببوابتين كبيرتين من جهتي الشرق والغرب وهو ينتهي من جهة الشمال برصيف أنيق على النيل الازرق وسلم يؤدي الى النهر ، وفي طرفي السلم مدفعان أثريان مصوبان الى الشمال ، وعلى جانب كل مدفع زهور ثم ينعرج الرصيف من الجانبين الى داخل النهر مكونا مستطيلين ووضع في كل منهما مدفع أكبر حجما من المدفعين السالفين •

وكان هذا الميدان ممشى واسعا أو فضاء ينتهي بالرصيف ولما كانت فترة المهدية أتى التآكل المائي على الرصيف ومكان المعدية وجزء كبير من الميدان حتى صار الماء على بعد مائتي ياردة من القصر ، وكان التآكل ممتدا على طول الشاطئ الأيسر للنيل الازرق ، وبلغ أبلغ مبلغه في الجهة الغربية من المدينة وأخذ حيا كاملا • وعندما أعيد تخطيط المدينة ردم جانب من النيل حتى يتسع شارع النيل اتساعه الحالي ، وبلغ ما ردم امام القصر نحو ٩٠ قدما ، وفي داخل ذلك ردم الرصيف •

### ميدان الحرية :

يقع هذا الميدان غرب القصر وشمال وزارة المالية والاقتصاد وهو مكان مباني الحكمدارية في العهد التركي ، وكانت هذه عبارة عن مجموعة مصالح حكومية مسوره بسور كبير • ولما جاءت المهدية ازيلت هذه المباني وشيدت في مكانها طاية ضخمة • وفي بداية العهد الثنائي ازيلت الطاية

وحول المكان الى ميادين للتنس • وفي سنة ١٩٢٢ وضع في جانبها الجنوبي تمثال كتشنر مستطيا صهوة جواد ضخم وموليا يده ووجهه شطر جبال كررى حيث وقعت الموقعة التاريخية الفاصلة • وقد قسم الميدان نفسه بممرات من الاسفلت في شكل العلم البريطاني ، وهو أمر يطابق تقسيم شوارع الخرطوم نفسها في تخطيط كتشنر للمدينة •

وكان هذا الميدان يعرف بميدان السردارية ثم سمي ميدان كتشنر بعد وفاته غرقا في سنة ١٩١٦ ثم صار ميدان الحرية في عهد عبود •

وفي هذا الميدان وقعت مجزرة أول مارس • وبين الميدان والقصر الجمهوري شارع يمتد من النهر جنوبا ، ونحسب أن موضعه يقع الى الغرب من الشارع الذي كان يفصل بين القصر القديم ومجموعة مباني الحكمدارية والذي كان موضعه فيما نحتل في الطرف الذي يقع بين البوابة الغربية للسيدان الذي يقع شمال القصر وبين الحائط الغربي لحوش القصر •

والى الجنوب من ميدان الحرية مبنى وزارة المالية والاقتصاد والتي كانت تعرف سابقا بالسردارية • وكان بهذا المبنى مكاتب السكرتير الاداري والسكرتير المالي • وفي العهد الوطني صار وزارة المالية والاقتصاد ووزارة الداخلية • ثم نقلت الاخيرة الى غرب ميدان الحرية وشغلت وزارة المالية والاقتصاد كل المبنى • والى الجنوب منه وزارة المواصلات وادارة البريد والبرق والتيلفون • ثم تأتي الى شارع الجامعة، والذي كان يعرف بشارع غردون ، وهو الشارع الذي يطل عليه القصر من جهة الجنوب • والى الجنوب منه ميدان فسيح هو ميدان الشهداء ، وكان يسمى في أول الامر ميدان غردون ثم صار في العهد الوطني ميدان القصر الجمهوري • وفي ثورة أكتوبر اصطدم الثوار وحرس القصر هنا في ٢٨ أكتوبر وقتل فيه خلق كثير وجرح عدد أكبر ومن ثم سمي الميدان بميدان الشهداء •

وهناك شارع فسيح يشق هذا الميدان ويقطع شارع غردون ويوصل

بين القصر ومحطة السكك الحديدية في خط مستقيم : انه شارع القصر الجمهوري والذي كان يعرف سابقا بشارع الملكة فكتوريا . واذا وقف المرء في محطة السكك الحديدية ورنا بمنظار مكبر الى الشمال فان نظره سيقطع هذا الشارع في استقامة ثم يعبر البوابة الجنوبية للقصر ثم يعبر البوابة الشمالية شاقا صحن القصر من نصفه وعبر الدهليز الكبير ثم يسير فوق المشرع الى ما وراء النيل الازرق ، وسيرى ان المدافع الاثرية متجهة معه في خط واحد .

وكان أمام القصر من هذه الجهة ومنتصفا شارع الجامعة (فردون سابقا) تمثال غرورن باشا متجها الى الجنوب حيث كانت استحکامات الخرطوم التي دافع بها عن المدينة طيلة ايام الحصار .

### شارع القصر الجمهوري :

عندما وضع كشنر الخطة الاولى لمدينة الخرطوم الجديدة جعل القصر نقطة البدء . فمصالح الحكومة امتدت على يمينه ويساره على امتداد النيل الازرق ، وشارع غردون ، وهو شارع الجامعة حاليا ، صار فاصلا بين الحي الحكومي والاحياء الاهلية . ومن القصر يبدأ أوسع شوارع الخرطوم ويسير الى الجنوب ويفصل بين الحي التجاري وحي الاثرياء من الوطنيين وبين حي الجاليات الاروية . وقدسمى هذا الشارع شارع فيكتوريا ثم صار بعد الاستقلال شارع القصر الجمهوري .

وقد اكتسب هذا الشارع أهمية خاصة بعد مد السكك الحديدية الى الخرطوم ووضع المحطة الرئيسية قصاد القصر ، وكان توسيع هذا الشارع وتحسينه النقطة الرئيسية في خطة الكولونيل استاتن الذي كان مديرا للخرطوم في أوائل العهد الثنائي وهو الذي أوصل الشارع حده الجنوبي الى المحطة والغى المقبرة القديمة في موضع نادي المصري وسينما كولوزيوم وما جاورهما ونقل رفات الشيخ محمد بن الامام المشهور بأبي جنزير من موضعه في وسط الشارع الى مكانه الحالي .

وفي سنة ١٩٢٧ اصدر الحاكم العام الجديد السير جون مفي توجيهها



بصدد تحسين هذا الشارع وتقرر أن يكون هناك طريق مرصوف في الوسط وأن يكون على جانبيه شريطان من النجيلة ثم بين النجيلة والمنازل طريق للمشاة • وقد نفذت هذه الخطة الا أن مشروع النجيلة لم يكن ناجحا لرداءة التربة في بعض الامكنة ولصعوبة جلب الماء اليها •

ولما جاء السير استيوارت سايزر اهتم بالجانب الذي يلي القصر مباشرة فأدخل فيه تحسينات كثيرة •

### تمثالي غردون وكتشنر :

لقد صنع تشال الجنرال غردون المثل الانجليزي انسلوفورد وهو نسخة من الاصل الذي يقوم أمام ميز الضباط برئاسة سلاح المهندسين بمدينة شاتام بانجلترا • وقد أقيم أولا في لندن في يوليو سنة ١٩٠٢ بغرض الاحتفال وأميظ عنه اللثام رسميا بحضور اللورد كتشنر ثم أرسل للسودان بالباخرة الا أنه غرق في نهر التيمس • وبعد فترة يسيرة أمكن اخراجه من النهر وأرسل الى السودان لتوه ووضع في مكانه الذي أشرنا اليه في أواخر ١٩٠٣ أو أوائل ابريل ١٩٠٤ • وقد ظل هذا التمثال في مكانه حتى زيل في ١٩٥٨ وسلم الى مندوب بريطانيا •

أما تشال اللورد كتشنر فقد صنفه المثل الانجليزي مارش من أطرف الرصاص الذي جمع من مواقع الفتح ووضع في مكانه في أواخر سنة ١٩٢٣ • وقد احتفل به رسميا في فبراير سنة ١٩٢٤ • ان التمثال صورة لتشال له في مدينة كلكتا ، ويقال أن كتشنر لم يكن راضيا عن التمثال لأنه كان يريد حيوانا وديعا بدلا من الحصان الجصور الذي يستطيع • ونحسب أنه كان يريد جنلا ، اذ لا نخال هذا الفارس يتوق الى أن يرى نفسه على حصار أو بغل • ولكن كيف له أن يستطي جنلا ويصير صنوا لاسطورة الانجليز الكبرى غردون • كيف له أن يكون وديعا وهو الذي ساق أمراء المهدي في الشوارع وألهب أجسادهم بالسياط بعد أن صاروا في اسره وهم اخوانه في السلاح ولهم حرمة في كل حرب • أو نسي أنه أباح مدينة أم درمان لعساكره وتعدى على مقدسات المدينة

المستسلمة ! ثم ما ذنب هذا الحصان الجسور حتى يتبرم منه وهو الذي صال وجال وتكبر ممتطيا عليه • وكيف لتمثال ان يوائم بين الوداعة وبين عيونه التي تقذف الحمم نحو كررى وشنابه المبرمة وحركاته القاسية •

وللقارئ أن يسأل عن الدافع وراء ذكر تماثيل أزيلا وليس لهما وجود الآن ! فنقول أن السبب هو أن التماثيل كانا هدفا لهجوم الوطنيين حتى أزيلا وبالتالي فانهما يكونان موقعا من مواقع الحركة الوطنية • وكانت جريدة السودان استار الانجليزية تصدر مقالات منتظمة عن سياسة الحكومة تحت عنوان دوائر تمثال غردون مؤكدة بها الصلة بين هذا التمثال والحكم الاجنبي • وفي سنة ١٩٤٩ كتب الاستاذ أحمد مختار ، السفير فيما بعد ، سلسلة من المقالات في مجلة الشباب بعنوان : أما آن لهذا الفارس أن يترجل • ثم أعادت جريدة الهدف نشرها في عددها الصادر في ٨ أكتوبر ١٩٥١ • وكانت المقالات من وحي فلم ظهور الاسلام الذي عرض في الخرطوم آنذاك • وقد خلقت اثاره وطنية بعيدة المدى وأضحت من المقالات السياسية المشهورة •

وقد نبتت فكرة الازالة في عهد حكومة السيدين التي كان يرأسها عبد الله بك خليل وشرع أحد وزراء الدولة في دراسة الموضوع ثم انشغلت الحكومة بمشاغلها الداخلية وصرف النظر عنهما تماما حتى جاءت حكومة عبود وقررت الازالة الفورية • وقد تم ذلك بعد الانقلاب بأيام قلائل • ولست أشك في أن العساكر كانوا يبغون من وراء ذلك عملا مسرحيا يلفت الانظار ويضفي عليهم سمات الوطنية ، غير أنهم اخطأوا خطأ شنيعا اذ سلموها للحكومة البريطانية بدل الاحتفاظ بهما في المتحف أو في مكان آخر • وهذا تفريط ليس أسوأ منه الا أنهم نسوا تمثال سلاطين باشا قابعا في جدران سبيل بالقرب من المجلس البلدي مع أنه كان أخرى بأن يلحق بصاحبيه • وقد أزيل هذا التمثال بعد ذلك بهدوء اثر مقالات كتبت في الصحف المحلية •

وقد جرى الاحتفال بازالة تماثيل غردون وكتشنر في ١١ ديسمبر

١٩٥٨ وسلم الى الحكومة البريطانية بناء على قبولها لعرض حكومة السودان . وقد نصب تمثال غردون في كلية غردون للاولاد بمدينة قليفورد بينما نصب تمثال كتشنر بمدينة شاتام حيث قيادة فرقة المهندسين الملكية . وقد روى لي ضابط بريطاني كبير عند زيارتي لهذه القيادة في سنة ١٩٦٧ ان المثل الذي صنع التمثال كان حيا وأنه تولى صنع قاعدته الجديدة . أما تمثال سلاطين فلا نعرف أين يكون .

### الكاتدرائية :

لقد شيدت الكاتدرائية الانجليزية بجوار القصر مطلة على شارع الجامعة وملاصقة للحائط الجنوبي لحديقة القصر ، وهي متصلة بالقصر بباب صغير يفتح على الحديقة . وكانت الكنيسة الانجليزية في أول الامر في الطابق الاول للجناح الشرقي للقصر في الحجرة التي صارت الآن قاعة للاجتماعات . ومن الطريف أن رئاسة جمعية الماسونية كانت في حجرة مجاورة لها بالقصر ايضا حتى اقيمت مبانيها . ثم جمعت الاموال اللازمة لبناء الكاتدرائية بالاكتتاب العام وتم البناء في سنة ١٩١١ وافتتحت رسميا في يناير ١٩١٢ . أما برجها فقد كان من المقدر أن يصدر نداء تحت رعاية الحاكم العام باسم الجنرال غردون لجمع الاموال اللازمة لبنائه الا أن الفكرة قد أجلت لاسباب غير واضحة . وبالرغم من ان الجاليات الاخرى والتي كانت أقل نفوذا من الانجليز كالاقباط والاغاريق وغيرهم من نحل المسيحيين قد شيدوا كنائسهم وأكملوا بناءها فان الكنيسة الانجليزية قد ظلت غير مكتملة الى وقت طويل . وفي سنة ١٩٢٩ سعى مجلس الكنيسة السودانية للحصول على مساعدة مالية من الحكومة ، وقد نجحت مساعي الشوب قوين وتم بناء البرج من أموال صندوق تعويضات استاك كما فعلوا ببرج الكنيسة بدني . وقد افتتح ذلك رسميا في يوم الاحد ٢٥ يناير ١٩٣١ والذي يوافق ذكرى مقتل غردون ، وقد قاد الحاكم العام صلاة خاصة في الكاتدرائية اعلن بعدها أن البرج شيد ذكرى للسير لي استاك .

## مقبرة الحكام :

تقع هذه المقبرة شرق شارع القصر وغرب شارع البلدية أمام النادي العربي ، وهي تتكون من قبتين وصحن • ويرقد في القبة الشرقية أحمد باشا أبوودان وأحمد باشا المنيكلي • وقد حكم الاول البلاد بين ١٨٣٩ و ١٨٤٤ وهو الذي ضم شرق السودان الى السودان الموحد تحت الادارة المصرية • أما الثاني فقد حكم بين ١٨٤٤ و ١٨٤٥ • ويرقد في القبة الغربية علي باشا جركس ( ١٨٥٥ - ١٨٥٦ ) وموسى حمدي باشا ( ١٨٦٣ - ١٨٦٥ ) • وكان من البارزين الذين دفنوا في الصحن محمد باشا ممتاز ، وكانت ادارته ما بين ١٨٧١ و ١٨٧٣ •

وكانت المقبرة بحالة جيدة ومحتفظة بشواهدا التي تحمل الاسماء وتواريخ الوفيات حتى جاءت المهدية وهدم الانصار وحطموا الشواهد والقبور في ثورتهم العارمة على الترك ولم يبق الا القبتين وبعض العظام • والموقع الان مجرد رمز للمقابر •

وقد دار نقاش حول هذه المقبرة في السنوات الاخيرة عند التفكير في انشاء بعض المباني في المنطقة ، وكان هناك رأي يقول بازالتها واقامة المباني مكانها ورأي آخر يصر على الاحتفاظ بالمقبرة وما حولها كما هي • وأخيرا استقر الرأي على اقامة المباني الجديدة مع الاحتفاظ بالقبتين •

وأذكر أن مشكلة مماثلة وقعت عند بناء مباني مستشفى الثورة والتي قامت في مكان مقبرة الخرطوم القديمة • وكانت بها مقبرة والدة المهدي ومقبرة شيخ يدعى وراق • وقد رجع المسئولون الى مفتي السودان ، وكان اثناءها الشيخ محمد أبو القاسم هاشم ، فأفتى بأن القبور عندما يمر عليها زمن وتكون دارة وأريد مكانها لمصلحة الاحياء فلا مانع من ازالتها • وعلى ذلك ازيلت المقبرة كلها ما عدا مقبرتي الشيخ وراق ووالدة المهدي ، فقد سورتا بسورين وادخلتا داخل سور المستشفى بالطرف الجنوبي الشرقي •

## ميدان أبو جنزير :

يعد هذا الميدان من أشهر ميادين الخرطوم مع أن العادة لم تجر على إقامة أي احتفال فيه بوجه رسمي سواء كان دينيا أو سياسيا أو اجتماعيا • ولكنه اكتسب شهرة عندما صار مكان التقاء المتظاهرين في أيام الفوضى السياسية لاتساع الميدان وقربه من القصر الجمهوري الذي كانت الجماهير تتجه اليه محتجة •

وإذا رجع المرء الى خريطة مدينة الخرطوم التي رسمها المهندس الحربي عباس رسي والمحفوفة الان في دار الوثائق العربية القومية ضمن أوراق أحمد حمدي فسيجد ميدانا فسيحا ممتدا شرقا وغربا ، ويكاد هذا الامتداد يوازي في خريطة الخرطوم الحالية ما بين مبنى البنك العربي وبين نهاية مباني النادي العربي • وعلى الطرف الجنوبي منه يستدحي سلامة الباشا في شكل لسان حتى النصف ، ثم يتصل الميدان بالخلاء الواقع جنوب المدينة • ويمتد العمران من طرفه الشرقي الى الجنوب الى مسافة بعيدة •

وفي وسط هذا الميدان يقع مسجد عباس باشا • وكان الميدان الذي الى غربه يسمى الى وقت قريب ميدان عباس ثم صار ميدان الامم المتحدة، وكان بوسطه شجرة زيتون • وقد امتدت يد الاصلاح الى هذا الميدان فزرع بالنجيلة وأحيط بأسوار من حديد ، الا أن ارجل المارة قد قضت على النجيلة • وقد أخذ الباعة المسر الاوسط منه حتى كاد لا يجد المرء سبيلا للسرور بينما أخذت السيارات تجانبه الغربي والشرقي •

ثم وجد الموضع اهتماما كبيرا في برنامج « ابن وعمر » الذي نادت به الثورة لتنثف به روح الجدية وتبدأ به برنامج البناء وعمل فيه الجنود عملا متواصلا ثم سلم المشروع الى نقابات العمال للاكمال •

أما ما يقع شرق الجامع فهو ما يسمى ميدان أبو جنزير • وفي هذا الميدان كانت مقبرة الخرطوم الكبرى • وكان في طرفها الشمالي الشرقي مقبرة الحكام • وكان طرفها الغربي يقع الى الغرب من شارع القصر •

وكان امتدادها شرقا يسع النادي العربي وسينما كليزيوم .

وكانت بهذه المقبرة مقبرة الشيخ امام بن محمد محاطة بسور من الطين . وأمام هذا محسى ، وليس صوابا ما نشر في الجرائد المحلية وعلى رأسها جريدة الرأي العام عن أصله وذريته . وكان موضع مقبرته في منتصف شارع القصر . فلما شق استانتن شارع القصر ووسعه حمل رفات الشيخ من مرقده ودفنه على طرف الشارع وأحاط قبره الجديد بالجنائز ، ومن ثم سمي الرجل بأبي جتيز ، ونسي الناس اسمه الاصيل وموضعه القديم وأحاطوا موضعه ونقله بكثير من الاساطير .

### كبري الحرية وكبري المسلمية :

يقع الكبريان في وسط المدينة فوق شريط السكة الحديد ، أولهما على الخط الذي يسير الى المحطة الجديدة والاخر على الخط الذي يسير الى الخرطوم بحري وكان بموضع الكبريين بوابتان كبيرتان لصد العربات والمشاة من عبور شريط السكة الحديد عند مرور القطارات . وفي نفس الموضعين كانت بوابة الكلاكلة وبوابة المسلمية وهما الفتحتان الرئيسيتان في استحكامات غردون واهم موضعين للدفاع عن المدينة من هجمات الانصار . وقد ظل الكبري الثاني يحمل اسمه القديم بينما أخذ الكبري الاول اسم الشارع الذي يقع فيه وهو شارع الحرية . وكان شارع الحرية في الاول يسمى شارع نيوبولد ثم صار عند الاستقلال شارع الحرية . وقد أقيم الكبري في عهد عبود وبالتالي أخذ الاسم الذي يعرف به الشارع وهو شارع الحرية . ثم عدل اسم الشارع الى شارع السيد على بعد وفاة هذا الزعيم الديني الكبير ، ولكن الناس ما زالوا يطلقون على الكبري اسمه الذي ظهر به أي كبري الحرية .

### قبة الشيخ خوجلي بالخرطوم بحري :

ولد الشيخ خوجلي عبد الرحمن بجزيرة توتي في ١٦٥٣ . وهو محسي من أهل هذه الجزيرة . وقد درس في خلوة الشيخ أرباب

العقائد • وكان مشهورا في زمنه وذا نفوذ ديني واسع • وكان قادريا طريقة  
الا انه يقرأ أوراد الشاذلية • وقد حاز الشيخ وذريته من بعده على  
أراضي واسعة في الخرطوم بحري لانهم كانوا يتمتعون بسكان عظيم لدى  
سلاطين الفونج وشيوخ العبدلاب وشيوخ الاقليم وأهل المنطقة •

توفي الشيخ في ١٧٤٣ وأقيمت على قبره قبة من الطوب غير  
المحروق وفي سنة ١٩٣٦ هدمت القبة القديمة وانشئت القبة الجديدة ،  
وهي من أجمل القب وأروعها في السودان •

وقبل أن تتوحد المنطقة التي تشلها مدينة الخرطوم بحري الحالية  
كانت المنطقة التي تقع فيها القبة تعتبر حلة مستقلة • وكانت تعرف بالقبة •  
وقد أشارت اليها وثائق المهدي بهذا الاسم • أما الان فهي تعتبر حيا من  
أحياء المدينة وتسمى حلة خوجلي وبها المركز الرئيسي لطائفة الختمية  
وقبة السيد المحجوب • وعندي أن وجود مركز الختمية وقبة المحجوب  
في هذا الوضع ثم تحول أبناء الشيخ خوجلي الى الطائفة الختمية قد  
أخذ كثيرا من بريق الشيخ خوجلي ومقامه •

وقد اكتشفت في هذه القبة بفضل خليفة الشيخ خوجلي الحالي ،  
أحمد ابن الامين ، وهو رجل من أفضل من رأيت ، مجموعة من الوثائق  
التاريخية الهامة التي تعود الى عصر الفونج • والسبب الذي حدا  
بوجودها هنا هو أن الشيخ خوجلي كان حكما بين الناس ، وكان الناس  
يودعون عنده وعند خلفائه الوثائق الدالة على حقوقهم • ثم إن أبناء  
الشيخ كانوا في نزاع دائم مع المحدثاب وجيرانهم الآخرين حول حدود  
أراضيهم •

#### قبة الشيخ حمد بالخرطوم بحري :

وهو الشيخ حمد بن محمد علي • وهو من المشايخة • ويعرف أيضا  
بود أم مريوم • وله قرابة بالشيخ خوجلي اذ أنهما أبناء اختين وقد درسا  
في خلوة أرباب العقائد •

ولد حمد في سنة ١٦٤٦ وتوفي في سنة ١٧٠٤ وقد جاء الى هذا المكان بعد أن حرق مكانه في أم درمان أثر نزاعه مع النوفلابي كما ذكرناه.

وهذا الوضع كان مستقلا قبل ظهور مدينة الخرطوم بحري وكان يشار اليه بحلة حمد أو قبة حمد . وكانت الحلة من الاحياء الاولى التي صارت جزء من المدينة . الا أنها تعرف بهذا الاسم الى هذا اليوم .

وقبة حمد موجودة الان شرق الشارع الرئيسي وأذكر أن حريقا مدمرا قد اندلع بها منذ سنوات وأتت على بعض محفوظات القبة الا أن القبة ذاتها لم تمس بسوء .

### ام درمان :

ذكرنا عند وصفنا لمدينة أم درمان كل المواضع المهمة التي ترجع الى عصر المهدية ولسنا نرى حاجة الى تكرار ما قلناه . وليرجع القارىء الى ما ذكرنا في مواضعه . وسنذكر بعض المواضع الحديثة .

### قبة الشيخ الغرقان :

وهي قبة الشيخ دفع الله حامد الغرقان .

وينتمي الغرقان الى الجميعاب . وقد درس في صغره في خلوة الشيخ العبيد بدر بأم ضبان . ولما قامت المهدية انخرط في سلكها . ولما استت مدينة أم درمان استقر في القطاع الغربي منها واشتهر فيه شهرة واسعة . وقد سمي الغرقان لانه كان يجذب في الذكر وينسى نفسه . وكانت وفاته في سنة ١٩١٦ . وتقع قبته قرب مستشفى الارسالية والمجلس البلدي .

### قبة الشيخ محمد البدوي :

وهي بالحارة الثالثة بالربع الرابع بأم درمان . وينتمي الشيخ محمد البدوي في الاصل الى اسرة مهاجرة من دنقلا وقد أكمل تعليمه في الازهر



الشريف بالقاهرة ثم استقر بأم شنقا بدارفور • ولما قامت المهديّة انضم  
الى المهدي واستقر بأم درمان حيث عمل قاضيا بها ويربر وغيرهما • وفي  
أوائل الحكم الثنائي عين رئيسا لمجلس العلماء والذي كون لابداء النصيح  
للحكومة في المسائل الدينية وليوازي نفوذ الطرق الصوفية ويعطي بديلا  
لها للحكومة وللشعب وبالتالي ينمي طبقة بعيدة عن التعصب الطائفي •  
غير أن هذا المشروع لم يكتب له النجاح لتمسك الناس بالطوائف واعتماد  
الحكومة نفسها على زعمائها • وكان من الطرائف أن أعضاء المجلس وبما  
فيهم رئيسهم كانوا ينتمون الى الطريقة التيجانية بطريقة غير علنية •

وكان الشيخ البدوي رئيسا للجنة المعهد العلمي • وفي عهده  
انتشرت مدارس العلم في بيوت العلماء وصار لكل عالم حواريون  
يجلسون اليه للعلم وينتمون الى عشيرته العلمية • وكانت مدرسة البدوي  
من أشهر هذه المدارس وأبرزها • توفي سنة ١٩١١ •

## ( ١٢ ) خاتمة

حسب النظام الاداري الذي اتبع في السودان بعد الفتح بدأت الادارة في مديرية الخرطوم بالحكم العسكري المباشر والذي كانت رئاسته في أول الامر بأم درمان • ثم تحول الحكم الى النظام الاداري وأعطى مدير المديرية نفس السلطات والصلاحيات المخولة ككل المديرين في السودان • وكان يعمل تحته المفتشون ، مفتش لمدينة الخرطوم ومفتش لمدينة أم درمان ومفتش للخرطوم بحري والضواحي • والادارة الاخيرة تشمل كل مناطق المديرية خارج نطاق مدينتي أم درمان والخرطوم • ثم تحولت الادارة المباشرة الى ادارة بلديات ، وبمقتضى ذلك صار لكل مدينة بلدية خاصة بها •

وكانت كل بلدية تملك بعض الخدمات العامة بها • فبلدية الخرطوم كانت تملك ترام بخاري يبدأ من المحطة الوسطى ويتجه خط منه الى الغرب حتى مشرع أم درمان ، ويتجه خط اخر الى الشرق حتى معديّة الخرطوم بحري ، ويتجه خط ثالث في خط دائري • وكان في أم درمان خط ترام بخاري تملكه البلدية ويسير من سوق الموردة حتى المحطة الوسطى ومنها الى أبي روف حيث معديّة الخرطوم بحري أما خط ترام الخرطوم بحري فكان يبدأ من مكان كبري النيل الازرق ، ويسير حتى المحطة الوسطى ومنها الى المعديّة بشمبات • وكان تراما بخاريا أيضا •

وقد اعطى امتياز خطوط الترام لشركة النور والماء الانجليزية • تسلمت الشركة خطوط الخرطوم في نوفمبر ١٩٢٥ وكهربته ثم تسلمت قبلها ترام الخرطوم بحري وكهربته ما بين كوبري النيل الازرق والمحطة

الوسطى بينما ظل الخط ما بين المحطة الوسطى ومعدية شمبات بخاريا •  
ثم توحدت هذه الشبكات جميعا بعد افتتاح كوبري النيل الازرق والذي  
تم في ١ - ١ - ١٩٢٨ •

ولما تقدم عمران المدن وتعاضم ثقل الحركة وصار بطء الترام لا  
يوائم الحركة السريعة أدخل نظام البصات ، وكانت تابعة لشركة النور  
أيضا • ثم لم يلبث أن ألغى نظام الترام كلية بعد الاستقلال وسودنت  
شركة النور بعد أن أوفت مدتها القانونية •

والواقع أن انشاء كوبري النيل الابيض والنيل الازرق في ١٩٠٩  
و ١٩٢٨ على التوالي كان حدثا مهما بالنسبة لتطور المدن الثلاثة وربطها  
وبدأ الميزان البشري يتسم بطابع الاستقرار • فقد ربط كوبري النيل  
الازرق العاصمة بالخط الذي يوصل السودان بالخارج وعزز بذلك  
الموقف التجاري وركزه بصورة شاملة في مدينة الخرطوم • وفي نفس  
الوقت فإن سهولة الانتقال بين الخرطوم بحري والخرطوم قد شجع  
طوائف العمال والحرفيين والموظفين الذين يعملون في الخرطوم للسكن في  
مدينة الخرطوم بحري لان مساكنها أرخص من مساكن الخرطوم ولان  
النقلة منها الى الخرطوم أسهل من أم درمان أو توتي الى الخرطوم ولذلك  
تزايد الذين يعملون في الخرطوم ويسكنون في الخرطوم بحري • وكان  
من أثر ذلك أن انخفض سكان أم درمان وانخفضت الايجارات فيها  
وأثان الارض بينما ارتفعت الايجارات في الخرطوم بحري • ولما انشئ  
كوبري النيل الازرق عاد الطوفان الى أم درمان مرة أخرى ولذلك  
اتعشت ايجاراتها من جديد وارتفعت اثان أراضيها بينما خف الضغط  
على الخرطوم بحري • ولم يرجع الضغط السكاني الى الخرطوم بحري  
الا بعد قيام المنطقة الصناعية وتوافد العمال بكثرة للعمل في المصانع •  
أما الخرطوم فقد طفرت بعد الحرب العالمية الثانية وخرجت خارج نطاق  
رصيف السكة الحديد لتعطي مجالا للقادمين من طبقات الشغيلة وذلك  
نتيجة لانشاء منطقة الصناعات الخفيفة والاهتمام بالخدمات والتوسع

## في الوزارات والادارات المختلفة •

وقد ذكرنا كيف أن ادارة المواصلات الرئيسية قد توحدت بعد فتح كوبري النيل الازرق • وقد تم في نفس الوقت توحيد خدمات الماء والنور تحت ادارة شركة النور • ثم كمل الخط الدائري للمدن الثلاثة بعد انشاء كوبري شمبات بعد الاستقلال •

وفي عام ١٩٢١ كون الحاكم العام مجلس المدن الثلاثة • وكان هذا المجلس مجلسا استشاريا ولكنه كان على نطاق المدن الثلاثة • وكان يرأسه مدير المديرية ويشترك في عضويته نائب المدير ومفتشو المدن الثلاثة ثم أربعة موظفين وأربعة تعينهم الغرفة التجارية و ١٦ عضوا يعينهم الحاكم العام •

وكان لهذا المجلس لجان فرعية منها لجنة لمدينة الخرطوم ولجنة لمدينة أم درمان ولجنة لمدينة الخرطوم بحري ولجنة للصحة ولجنة للمالية ولجنة للطرق وللنور ولجنة للوائح •

وفي نفس الوقت كونت بلدية خاصة لكل مدينة • وجاء تكوين بلدية الخرطوم بحري أولا في ١٥ مارس ١٩٢٣ • ثم تلتها بلدية أم درمان في ١٥ مايو ١٩٢٤ • ثم أخيرا بلدية الخرطوم في ١٥ أغسطس ١٩٢٨ • ولم يؤثر وجود هذه البلديات في وجود مجلس المدن الثلاثة والذي كان يعمل استشاريا في نطاق المدن الثلاثة بينما تولت البلديات الأعمال المباشرة للبلديات كالعوائد والخدمات •

وفي ١٦ فبراير ١٩٢٩ كونت لجنة تخطيط للمدن بموجب أمر نشر في الغازيتة • وكانت هذه اللجنة برئاسة مدير المديرية وترفع توصياتها للحاكم العام بواسطة السكرتير الاداري • وكان لهذه اللجنة لجنة فرعية خاصة بمدينة الخرطوم • وفي سنة ١٩٣٧ كونت لجنة تخطيط بمدينة الخرطوم ، وكانت سلطاتها تشمل المدن الثلاثة أيضا • أما المدن الاخرى

فقد ترك شأنها للسكرتير القضائي ليعالج أمرها مع المديرين بموجب لائحة المدن والبلديات لعام ١٩٣٨ •

كانت قوة الجيش المرابط في الخرطوم مكونة من فرقة انجليزية وفرقة من سلاح الطيران البريطاني وقوة دفاع السودان • أما الفرقة الانجليزية فكانت مكونة من ١٧٠٠ رجل بخلاف رجال الطيران • وكانت هذه القوات مركزة في الخرطوم والخرطوم بحري • أما قيادة سلاح الطيران فكانت في الخرطوم وكانت هذه القيادة تتبع القائد العام في السودان في العمليات بينما تتبع قيادة سلاح الطيران البريطاني للشرق الاوسط فنيا وأداريا •

أما قوة دفاع السودان فقد تكونت في ١٩٢٥ أثر اخراج الجيش المصري من السودان • وقد بدأت ببعض الضباط السودانيين والرجال الذين كانوا يعملون بالجيش المصري ثم نمت على مر الايام وقد بلغت أوج مجدها في الحرب العالمية الثانية حيث دافعت عن قضية الحلفاء وأدت دورا مهما في حروب الشرق الاوسط وافريقيا وكان توزيعها كالاتي : فرقة المهندسين بأمر درمان ، فرقة الشمالية بالخرطوم ، النقل الميكانيكي بالخرطوم بحري ، الامدادات والتدريب بأمر درمان ، الحملة البيطرية بالخرطوم •

وعند الاستقلال حلت هذه القوة محل القوتين الانجليزية والمصرية وقامت بعبء الدفاع الداخلي والخارجي •

وفي سنة ١٩٣٤ أثر مقتل السيرلى استاك بالقاهرة أمر الجيش المصري بالاخلاء • وقد تم ذلك رغم المعارضة الشعبية الشديدة واستنكار الطبقات المستنيرة وتمرد طوائف من الضباط ورجال الجيش من السودانيين • وأثر معاهدة ١٩٣٦ عاد الجيش المصري الى السودان ، وكانت له ثكنتان خلف ترس السكة الحديد ، وهما ثكنتا عباس وتوفيق • وكانت احدهما غرب كبرى الحرية وقد ازيلت بعد الاستقلال وصار مكانها جزء من محطة السكك الحديدية ، والاخرى قرب كبرى المسلمية

وبها الان ادارة للحريق وأخرى للغابات •

يتكون سكان الخرطوم من كل سلالات السودان وقبائله وعدد من الجاليات الاجنبية الوافدة من الشرق الاوسط وأوربا والسودان الغربي • ويمكن القول بصفة عامة ان أغلبية السكان السودانيون من أهل النيل عموما • أما أهل الغرب فقليلون نسبيا ولعل أغلبهم يعيشون في أم درمان • ولكن وفدت في السنوات الاخيرة مجموعات كبيرة من أهل الغرب وسكنوا في أطراف المدن في الاحياء التي عرفت فيما بعد بأحياء الكرتون • ومن الطريف أن أعدادها هائلة من أبناء الغرب الذين كانوا يعيشون في أحياء المدن المعمورة هجروا ديارهم التي كانوا يسكنونها ولحقوا بأحياء الكرتون بالرغم من أن هذه الاحياء تفتقد كثيرا من لوازم الحياة • وربما يعد ذلك رفضا منهم لحياة المدينة ولكني أميل الى القول بأنه تمسك بالعلاقات المحلية القبلية أكثر منه رفضا للمدينة ذلك لان الفرد يستطيع أن يمارس في أحياء الكرتون الانتماء القبلي الذي يتوق اليه الفرد الذي لم ينصهر بعد في حياة المدينة • كما أن هذه الاحياء مقسمة تقسيما قريبا ويعيش أبناء كل قبيلة قرب أبناء القبيلة المجاورة لهم في الوطن البعيد • وهم في نفس الوقت يعملون في المدينة ويتصرفون فيها تصرف غيرهم من الناس •

وكانت العادة فيما مضى أن يكون لكل جنس حي يسكنه أبناءه ويعرف بهم كحي الدناقلة وبرى المحس وحي الزيرية وحي الكنوز وحي التعايشه ولكن الانصهار الذي تم بعد الحرب العالمية الثانية جعل هذه الاسماء مدلولات مكانية أكثر منها مدلولات بشرية حاسمة • وقد أصبحت الانتماءات القبلية القديمة تذبل لتحل محلها الانتماءات العصرية حسب مدارسها المختلفة وألوانها وأنماطها كנקابات العمل وهيئات العاملين و فرق الكرة والمدارس الفكرية وغيرها •

وفي العاصمة المثلثة جاليات أجنبية كثيرة ، وقد كان للجاليات

الاوربية منها شأن كبير حتى الاستقلال ثم بدأ نفوذهم الاجتماعي  
وهيمنتهم المالية والتجارية تقل بمرور السياسات الوطنية وفرض الضرائب  
ووضع التجارة تحت اشراف الحكومة . ولما كان الاجانب يخافون من  
هذا المسلك فان حمى شديدة قد سرت لتهديب الاموال . وللأسف وجدوا  
فرصة سانحة في أيام الفوضى السياسية . ومن المؤسف حقا أن المهربين  
كانوا يجدون مساندة بعض السودانين ، ومن هؤلاء بعض المسؤولين في  
الحكومة .

وقد سرى طوفان التهريب وهرب الاجنبي بعد تهريب أمواله حتى  
أضحى ذلك أمرا عاديا لا يلفت النظر وامتثلت أسواق بيروت ،  
والسعودية بالعملة السودانية المهربة .

وقد واجهت الثورة هذا الموقف بحزم وعزم فعدلت العملة في وقت  
وجيز وصودرت أموال المهربين وسيطرت الدولة سيطرة تامة على البيوتات  
التجارية والمالية الكبرى والتي كانت تلعب بمقدرات البلاد . واليوم فان  
الثورة تتولى أمر هذه البيوتات ويديرها فريق من الشباب لصالح  
الشعب . وكان بودي ان يرى الشاعر السوداني العظيم التيجاني يوسف  
بشير هذه الحركة ويرى الخرطوم سودانية خالصة لا كما كان يراها  
متحسرا :

قف بنا نملاً البلاد حماسا	ونقوض من ركنها المرجحين
هي للنازحين مورد جود	وهي للآهلين مبعث ضن
يستدر الاجانب الخير منها	والثراء العريض في غير من
ابطرتهم بلادنا فتعالى ابن	أئينا واستكبر الارمنى
يا بلادي أخلصتك الخير	واستعفيت ودي اليك من كل مين
يا بلادي وأنت أضيق من رز	قي مجالا ودون اخرات اذنى
أجل لقد عبر هذا الشاعر العبقرى الفذ عن روح جيله الذي ظهر	

بعد الحرب العالمية الاولى وراح يبحث عن مكان له فاذا به لا يجد لنفسه مكانا الا في الاطراف ، واذا به غريب عن مدينته الكبرى وعاصمته التليدة . والمطالع لمجلة الفجر ومجلة النهضة يمكنه أن يرى هذه الروح وهذه النفسية . ولقد ذكر مثقف كبير كيف استكثر عليه أحد الاداريين الانجليز أن يشتري كتابا انجليزيا . ونفس الكاتب حمل في الفجر حملة شعواء على يهودية كانت تركب الترام وسقطت منها كلمة تدل على تبرمها من جو البلاد . والحق أن المقال حملة على الاجانب المستمعين بخيرات البلد ولا يعطونه وجدانهم . وأديب آخر حمل حملة شعواء على الثرى كوتتميخالوس صاحب الشركات لانه تكلم في حفل عقده لوفد اقتصادي مصري استوفده من مصر بجهدده واستضافه وأظهر أنه في مكان يعطي فيه النصح للمصريين بالنيابة عن السودانين وفي مكان يأخذ فيه على السودانين بعض الاخذ .

ولكن الاجانب مضوا في غيهم حتى جاء الاستقلال ثم هربوا الاموال وخربوا اقتصاد البلاد مستغلين الفوضى السياسية . فاذا بهم وأترابهم يدفعون ثمن ذلك ويعود الحق لاهل الحق .

وأكبر الجاليات هي الجالية المصرية ، وهي اقرب الجاليات الى نفس الشعب السوداني . ولها مثل في كل المدن السودانية الكبيرة وبالاخص في عطبرة ومدني .

والى ما قبل الاستقلال كان الاقباط جالية خاصة . أما المصريون المسلمون فلم يكن لهم تنظيم خاص ، وكانوا يندمجون تلقائيا في حياة السودانين .

وأغلب المصريون رسل حضارة . فهم معلمون في مدارس مصر الكثيرة ومؤسساتها الثقافية والجامعات أو خبراء في مصالح الحكومة السودانية ومؤسساتها الثقافية والجامعات أو خبراء في مصالح الحكومة



السودانية ومؤسساتها أو موظفون في الري المصري • والقليل منهم يعمل بالتجارة • والغالب من المقيمين منهم بشكل ثابت من الاقباط وقد حاز أغلبهم على الجنسية السودانية • وكانوا يبلغون في الخرطوم وحدها في ١٩٣٥ نحو ١٤ ألفا وكان أغلبهم وما زال الى حد ما يعملون في السكك الحديدية والشركات والبنوك والهيئات التعليمية •

وللانصاف ينبغي أن نذكر أن المصريين كانوا صادقين في خدمة البلاد والعمل لنهضتها ولم يشتركوا في حمى التهريب والهروب التي سادت الجاليات الاجنبية بل الملاحظ أن الرغبة في الاستيطان والاندماج في البلاد هي الرغبة العامة •

ومن الجاليات العربية الجالية السورية ، وهم لبنانيون وسوريون وهي جالية قديمة ولهم ناد وجمعية خيرية • ومنها الجالية اليمنية التي يعمل أغلب أفرادها في البقالة وقد قل عددهم في السنوات الاخيرة بدرجة محسوسة •

وهناك جاليات افريقية كبيرة تعد بالالاف في كل مدينة وفي بعض القرى • وأغلبهم وافدون من السودان الغربي من جمهوريات تشاد والنيجر ونيجريا ، وقد فاز أغلبهم بالجنسية السودانية واستقر في البلاد الا أنهم نادرا ما يندمجون في سكان البلاد أو يغيرون من عاداتهم ، ولكنهم نشطون ويقبلون على العمل وهم لهذا يعتبرون قوة اقتصادية •

ومن الجاليات الافريقية المهمة الجالية الحبشية • أما الاسيوية فأهمها الجالية الهندية • وأهم الجاليات الاوربية هي الجالية اليهودية ، وهي قليلة الاثر الآن لان أغلب اليهود قد فروا من البلاد ، والجالية الايطالية والجالية القبرصية والجالية الارمنية والجالية الاغريقية وقد انخفض عدد أفراد هذه الجاليات نسبة الى حمى الهجرة •

واليك الان بعض احصائيات عن سكان الخرطوم :

السنة	أم درمان	والضواحي	الخرطوم	الخرطوم الكبرى
١٩٢٥	٣٢٢١١	٨٤٢٣١	٧٨٧٣٢	١٩٥١٧٤
١٩٣٠	٥٠٤٦٣	١٠٧٧٢٠	١٠٣٥٦٩	٢٦١٧٥٢
١٩٣٥	٤٦٧٧٥	١٠٢٨٢٣	١١٠٩٥٩	٢٦٠٥٥٧

ويمكنك أن تلاحظ تحولات السكان من مدينة لاخرى والارتفاع السريع في السكان في العشرينات ثم المحافظة على مستوى واحد في الثلاثينيات . وبالطبع فان احصائية بحرى تشمل سكان الضواحي كما هو واضح . واليك احصائية تظهر سكان المدن الثلاثة مع المقارنة بالمدن الكبرى ومدى التزايد في السكان :

المدينة	السان ١٩٥٦/٥٥	السكان ٦٥/٦٦	الزيادة	النسبة المئوية
أم درمان	١١٣٥٥١	١٨٥٣٨٠	٧١٨٢٩	٦٣ %
الخرطوم	٩٣١٠٣	١٧٣٥٠٠	٨٠٣٩٧	٨٦ %
الخرطوم بحرى	٣٩٠٨٢	٨٠٠٠١	٤٠٩١٩	١٠٤ %
المدن الثلاثة				
مجتمعة	٢٤٥٧٣٦	٤٣٨٨٨١	١٩٣١٤٥	
بورتسودان	٤٧٥٦٢	٧٨٩٤٠	٣١٣٧٨	٦١ %
كسلا	٤٠٦١٢	٦٨١٣٠	٢٧٥١٨	٦٧ %
وادمدنى	٤٧٦٧٧	٦٣٦٦٠	١٥٩٨٣	٣٣ %
الايض	٥٢٣٧٢	٦٢٥٦٠	١٠١٨٨	١٩ %
عطبرة	٣٦٢٩٨	٤٨٢٥٠	١١٩٥٢	٣٢ %
الفاشر	٢٦١٦١	٤٠٥٤٠	١٤٣٧٩	٥٤ %
نيالا	١٢٢٧٨	٢٦١٦٠	١٣٨٨٢	١١٠ %

الجنية	١١٨١٧	٢٠٧٤٠	٨٩٢٣	٧٦
المجموع	٥٢٠٥١٣	٨٤٧٨٦١	٣٢٧٣٤٨	٦٦٠٧

لا بد ان القارىء قد لاحظ ان صورة الخرطوم في العصر التركي صورة مهزوزة وأن بيانات الواصفين تتفاوت وتتعارض . إن الامر في ذلك يرجع الى أن المدينة كانت تتسع وتتطور على الدوام ، وقد وصف كل واصف المدينة وهي في مرحلة معينة . وكان الواصفون بالاضافة الى ذلك يهتمون بالمشاهدات الخاصة والذكريات والغريب من أعمال البشر وعمل الطبيعة حتى يغروا القارىء الاوربي الذي كان يتوقع كل غريب في أحوال افريقيا . ولم يتيسر لاحد من الرحالة أن يصف المدينة وصفا شاملا وأن يعطي فكرة مكتملة عن معالمها وأجزائها المختلفة بل تركز أبلغ اهتمامهم على الاحياء الاستقرائية ومجتمع الاوربيين والسراة .

أما عن الخريط فان المشهور خريطة وحيدة أعدت بعد هرب سلاطين من أم درمان الى مصر بناء على وصفه للمدينة . وعندما أعدت هذه الخريطة كانت المدينة قد اندثرت ودخل السودان في مرحلة تاريخية أخرى وكان سلاطين نفسه قد لاقى في السنوات التالية لاسره أهوالا لا بد أنها أنسته الكثير عن المدينة . وهو نفسه لم يعمل في هذه المدينة ولم يستقر فيها طويلا حتى يعرف تفصيلاتها وأحياءها . وعلى ذلك فان خريطة سلاطين مفترقة الى الدقة والضبط . ولكنها مع ذلك تعطينا بيانات وتظهر أحياء لا يرد لها ذكر في الخريط التي سنذكرها فيما يلي .

ولقد وجدت في دار الوثائق العربية القومية بالقاهرة خريطين للخرطوم ، وهما في مظروف خاص بأوراق مأمورية أحمد حمدي بك ياور الخديوي الذي ارسل في مهمة خاصة الى السودان أثناء توجه حملة هكس باشا الى الغرب . واولى الخريطين في حجم فلسكاين ومرسومة على ورق التلك ، وقد رسمت في ٢٩ جماد آخر ١٣٠٠ ويظهر فيها موقع الخرطوم وطايتها والجنان وشاطئ النيل الابيض عند الفيضان العادي

ثم حدها عند الفيضان العالي ثم الترس الذي أقيم لصد مياه الفيضانات •  
وفي الطرف الآخر تظهر طابية أم درمان وخور أبي عنجة وحلة بجنوب  
الطابية لعلها أبو سعد •

والخريطة لا تذكر تفصيلات عن المدينة نفسها وإنما تبين الحيز  
المعمور فقط •

أما الخريطة الثانية فطولها متران وعرضها ثمانون سنتمرا وهي  
على ورق التلك أيضا • وقد جاء بأسفلها ما يلي : « قد صار رسم  
الاستحكام جميعه وبندر الخرطوم كما هو مبين بهذه الخريطة من على  
الارض • ورسم هذه الصورة بمعرفة صاغعول مهندس حربي عباس  
رسمي وجارى الان تصليح وترميم الاستحكامات أول بأول بمعرفتنا في  
١٤ ربيع أول ١٣٠١ » • ثم يأتي أمضاء عباس رسمي •

وبصفة عامة يمكن أن يعتبر شكل الخرطوم كما يؤخذ من هذه  
الخريطة وفي التاريخ الذي يذكره أي في اواخر أيام الخرطوم في العهد  
التركي كالآتي :

من الناحية الشرقية يفصل خط الاستحكام بين المدينة والطرف الآخر  
وهذا الطرف الآخر عبارة عن منطقة زراعية • وقد وصفتها الخريطة بأنها  
أرض زراعية خارج الاستحكام • وهي توازي المنطقة التي كانت تشغلها  
القوات البريطانية وراء خط السكة حديد والى ما وراء بيوت الجامعة وهي  
المنطقة التي بها الان وزارة التربية وداخليات جامعة الخرطوم وبعض  
المدارس • ويظهر في الخريطة بوابة برى ومحل اقامة بلكين الى جنوب  
البوابة والى الجنوب الشرقي مركز الجبخانة ومحل اقامة البلك الذي  
يحرس مركز الجبخانة وعلى بعد بعيد منها وفي نفس الاتجاه طابية بها  
مدفعان وصاروخ •

هذا من جهة الطرف الذي يسير مع الاستحكام بالجهة الشرقية

والشرقية الجنوبية • أما في هذا النهر فنجد ما يلي :

تسير الاراضي الزراعية والجنائن حتى الترسانه • وهذه المنطقة التي تشغلها الان جامعة الخرطوم والمباني الواقعة غربها حتى السودان كلب • ثم نجد الترسانة وأرض قضاء ميرى جنوبها • ثم مساكن عساكر الترسانة والى الجنوب منها حديقة تخص بعض الاهالي ثم أرض زراعية خاصة • وبغرب هذه المجموعة شونة الميرى والى الجنوب منها أرض قضاء ميرى والى الغرب من هذه المجموعة نجد مجموعة المباني التي تكون السراي وهي مبنى السراي والمشرع أمامه والحديقة والارض الزراعية التابعة له ثم بعض المباني الملحقه بالناحية الغربية • وبغرب السراي قضاء واسع ثم يأتي مباني الحكمدارية ومديرية الخرطوم ، وفي طرفها الجنوبي الشرقي بارزا في القضاء مكان للطوبجية • وهذه المجموعة من الادارات محاطة من كل الجهات بقضاء واسع وبالاخص في جانبيها الشرقي والجنوبي والى الغرب منها منطقة سكنية للاهالي والى الجنوب منها عدة منشآت وصفت بأنها مخزن وعمارات ميرية والى الغرب منها منزل وقف ثم مساكن أهالي • ثم يلي ذلك والى مسافة طويلة الجنائن ومزارع الاهالي حتى القرن • واذا أخذنا في الحساب المنطقة المعمورة والمنطقة الزراعية بالطرف الشرقي والطرف الغربي لبلغ المعمور نحو الربع ، وبلغ المزروع بالشرق ربعا والمزروع بالغرب نحو النصف • وتظهر في الخريطة المنطقة التي تغمرها مياه الفيضان العادي وهي منطقة واسعة جدا ويمتد لسان لها نحو الشمال الشرقي ، ويبدو أن هذه المنطقة كانت في الاصل جزءا من النيل الابيض • وتظهر أيضا المنطقة التي تغمرها مياه الفيضانات العالية والتي تنتهي بترس • وفي هذا الطرف أي الجنوبي الشرقي من المدينة نجد الاستحكامات وما يتعلق بها من الوحدات والمنشآت • وفي داخل خط يتعرج على الدوام الى الجوانب المختلفة وضع الراسم مدينة الخرطوم وكتب عليها البندر ، وهي محاطة بأرض قضاء يمتد شرقا وغربا من الجهة الجنوبية وفي وسط المدينة من جهة الجنوب يمتد القضاء الى الداخل في

شكل لسان يتجه الى الشمال ثم الى الغرب ، وهذا اللسان يكون المقبرة القديمة وهي التي كانت تقع في منطقة مقبرة الحكام والنادي العربي وسينما كوليزيوم ومنطقة شارع القصر الان ، ثم ميدان المولد النبوي ويظهر داخل ميدان المولد الجامع ، وهو الجامع الثاني أي جامع عباس الذي يقع غرب ميدان أبي جنزير •

من المؤسف حقا أن الخريطة تهتم بالاوضاع العسكرية فقط وأنها بالتالي لا تبين المواضع المدنية وتقسيماتها • وقد تفادت تفاصيل كثيرة في حي الحكمدارية واكتفت بابرار المواضع المهمة • كذلك تفتقر الخريطة الى مقياس الرسم •

واذا انتقلنا الى أم درمان فاننا نجد في نفس مجموعة أحمد حمدي خرطا في غاية الدقة لاستحكامات أم درمان والمناطق المجاورة لها • وقد ظهرت حلة لعلها أبو سعد الى الجنوب ولكن دون أن يذكر اسمها او تقسيماتها •

ثم هناك الخريطة التي أعدت بناء على وصف سلاطين ، وهي مبنية على الذاكرة وعلى مقدار ما اختزنه ذهن سلاطين عن المدينة وتقسيماتها وتعاريجها • وفي رأيي أنها ، حتى وان كانت تفتقر الى الضبط والدقة فيما يختص بالتفاصيل وخاصة في اطراف المدينة والاحياء المدنية ، تعطي فكرة واضحة وقريبة الى الحقيقة فيما يختص بالتقسيمات الكبيرة وتوزيع المجموعات القبلية والسياسية والعسكرية •

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل أن نتكلم عن مصادر البحث بصفة عامة ، لاننا قد عالجتا تفصيلاتها في كشف المصادر الذي يأتي في نهاية الكتاب ولان وصف المصادر مهم لمن يقدمون على دراسة هذا الموضوع في المستقبل ، خاصة ومجال الدراسة واسع والمصادر كثيرة وأغلبها لم تستغل علميا الى هذا اليوم •

ان البيانات التي ذكرناها عن الخرطوم قبل الفتح التركي تعتمد على التخمين والاستنتاج أكثر من أي شيء آخر خلاف المعلومات الخاصة عن الاثار القديمة التي اكتشفت وسجلت علميا والبيانات الخاصة عن خلوة أرباب العقائد . وقد خلت المصادر السودانية المتاحة الى الان كطبقات ود ضيف الله وتاريخ كاتب الشونة وسجلات الاراضي المكتشفة الى الان عن ذكرها . ونحن نستنتج من هذا ان الموضوع لم يكن يشكل أهمية .

وفي العهد التركي نجد مصادر مختلفة . هناك كتب الرحالة الاوربيين وهم مهتمون بالاكتشافات العلمية في النبات والحيوان وغيرها وبمجتمع الاوربيين والسراة وبنظام الحكم وبعض القضايا التي كانت تشغل أذهان الناس في تلك الايام كتجارة الرقيق والفساد الاداري وفرص التجارة . ولذلك فان هذه المصادر تعتبر وافية في هذه الجوانب أما عن تكوين المدينة وتقسيماتها وحياة طبقات العامة والفقراء ومجتمعهم فقد أهملها الرحالة .

وهناك انطباعات بعض المصريين ، وهؤلاء كانوا مهتمين بالعمران عامة ولذلك نجد ذكر المباني والمنشآت الكبيرة والشوارع المهمة وأزياء المجتمعات العالمية .

وتوجد بدار الوثائق العربية القومية وثائق كثيرة عن المدينة ، وقد وقفت على جملة منها وبينتها في كشف المصادر ولا بد أن يكون هناك عدد آخر ولكن استقصاءها يحتاج الى معاناة طويلة لافتقار الدار الى الكشافات التي تهدي القارئ الى ما يريد .

وفيما يختص بحصون الخرطوم والوقائع الحربية حولها فان غالب الاعتماد على تقرير نصحي باشا . ويوجد النص العربي الوحيد لهذا التقرير المهم في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية . وهذا النص

منقول عن الاصل أو نص قريب منه ، اي أنه ليس الاصل • وهو مكتوب بخط جميل متأن • وقد ترجم نعوم شقير هذا التقرير الى اللغة الانجليزية ثم نظر ونجت في هذه الترجمة وأعد نصا جديدا هو المعتمد • وتوجد النصوص الاهلية للترجمتين في دار الوثائق السودانية • وقد نشرت الدار الترجمة الاخيرة منذ سنوات •

وقد نقل نعوم المعلومات التي ذكرها في تاريخه عن وقائع الخرطوم عن هذا التقرير وكذلك فعل ونجت • وعنه أيضا أو عن ونجت ونعوم أخذ سائر المؤلفين •

ويقابل هذا الوصف الذي يذكره اسماعيل عبد القادر لهذه المعارك في كتابه سعادة المستهدي بسيرة الامام المهدي • وهذا الوصف يعد مطابقا لرأي الانصار وما يرونه في هذا الموضوع •

وهناك — طبعا — مذكرات غردون •

وفي بداية العهد الثنائي نجد ذلك التقرير المهم الذي أعده الكولونيل استاتن والذي كان مديرا للخرطوم في أوائل العهد الثنائي واننا — بحق — لا نجد نظيرا لهذا التقرير • كذلك نجد فصولا مهمة في التقارير الدورية التي كانت تصدر عن رئاسة المديرية أو عن الحاكم العام •

وتوجد بدار الوثائق المركزية السودانية وفي أضاير وزارة الاشغال وقسم اشغال الخرطوم ملفات هامة عن المدينة • ونشير بوجه خاص الى دليل مديرية الخرطوم Khartoum Province Handbook وتقارير لجنة التخطيط • وفيما عدا هذه توجد كنوز من الوثائق في مكاتب الاراضي ومحفوظات المديرية والبلديات والتخطيط والاقسام المختصة بالخدمات ، وهي تحتاج الى جهد كبير يبذل من أجل الضبط والتنظيم ووضع الكشافات المساعدة ونفس هذا القول ينطبق بحذافيره على مدينتي أم درمان والخرطوم بحري •



وبالنسبة الى مدينة أم درمان في فترة المهدي فاننا نعتمد فيما يختص بالمدينة نفسها على ما ذكره سلاطين واهرولدر وابراهيم فوزي وغيرهم من المشاهدين • ولكن لكل واحد من هؤلاء اهتماماته الخاصة • فسلاطين مثلاً مهتم بالنظم السياسية والاجتماعية والعسكرية بينما يهتم ابراهيم فوزي بذكرياته وحياته الخاصة • أما كتاب المستهدي وهو المؤلف الوحيد الذي يعبر عن الجانب المهدوي فلا يهتم الا بقبة المهدي والمسجد، وقد وصف هذين الموضعين وصفا شاملاً وأعطى بيانات دقيقة عنهما • وقد وردت اشارات مقتضبة عن المدينة والحياة فيها في كتاب على المهدي والذي طبع بعنوان « جهاد في سبيل الله » وهو وان كان من المصادر التي تعبر عن آراء المهدويين الا أنه في الحقيقة يعبر عن المهدويين الاواخر أي جماعة السيد عبدالرحمن خاصة وهو مهتم أساساً بالتاريخ السياسي • وقد تأثر صاحبه بالقراءات المختلفة والتي شملت المصادر الانجليزية والمصرية •

وهناك مصادر غنية عن المدينة في تقارير المخابرات المصرية الحربية وان كان أغلبها متعلقاً بالحياة السياسية والاجتماعية • ونود أن نشير بصفة خاصة الى التقرير الشهري رقم ٦٠ والذي أعد بعد الفتح مباشرة • ان هذا التقرير يحتوي على معلومات وبيانات كثيرة عن المدينة وأخبارها وحصونها وأقسامها واداراتها المختلفة ولكن من المؤسف أن بعض التقارير الخاصة لم تضمن في التقرير المطبوع وانما رفعت للمسؤولين بشكل منفصل • وقد ذكر التقرير هذه التقارير الخاصة وبين أنها توجد بمعزل عنه ولكننا لم نهتد اليها الى الآن •

دار الوثائق القومية العربية ( بالقاهرة ) — الوثائق التالية من المجموعة المترجمة من اللغة التركية الى اللغة العربية ومحفوظة حسب تتابعها الزمني :

وثيقة بتاريخ ١٦ رجب ١٢٨٦ هـ عن وفاة أبي صالح خليفة الشيخ الطيب •

٢٨ شوال ١٢٨٦ هـ عن مسجد الخرطوم •	وثيقة بتاريخ
٢٩ جماد ثاني ١٢٨٦ هـ عن التعليم في مساجد المدن	» »
١٢٤١ (١٦/١٢/١٨٢٤) عن موافقة محمد علي على	» »
مقر الخرطوم •	
١٩ جماد ثاني ١٢٣٩ عن حركات الدفتردار •	» »
١٣ ربيع آخر ١٢٤٠ تقرير عثمان جركس عن الخرطوم	» »
وكردفان والاحوال في القرى •	
٢٣ ربيع آخر ١٢٤٠ عن الخرطوم وتوزيع القوات •	» »
٣ شعبان ١٢٤٠ عن الخرطوم وتوزيع القوات وفصل	» »
كردفان •	
٢٥ ربيع أول ١٢٤٣ عن ناظر مراكب سنار •	» »
٢٥ ربيع أول ١٢٤٣ عن صناع المراكب القادمين من	» »
مصر •	
٢٥ ربيع أول ١٢٤٣ عن عمل القوارب في السودان •	» »
٢٧ محرم ١٢٣٧ عن الحلفاية •	» »
٢٧ جماد آخر ١٢٣٧ عن الحلفاية وحوادثها •	» »
٢٩ شوال ١٢٣٧ عن نقطة الحلفاية والعاصمة بمدني •	» »
٢٢ شوال ١٢٨٨ عن موت محمد راسخ بالشلال غرقاً •	» »
٢٢ جماد أول ١٢٨٢ عن مرتبات لشيخو الخلاوي •	» »
٤ محرم ١٢٨٧ عن حالة المدن في السودان ومشاكلها	» »
ومبانيها •	
٢٩ جماد ثاني ١٢٨٦ عن أماكن التعليم في المساجد	» »
والمدرسين •	

٢٩ جماد آخر ١٣٠٠ خريطة الخرطوم •	وثيقة بتاريخ
٢١ شوال عن حاكم الحلفاية •	» »
١٤ ذي القعدة ١٢٣٦ عن أن سنار مقر الحكم •	» »
٨ جماد آخر ١٢٣٨ عن حملة الدفتردار •	» »
١٣ شوال ١٢٦١ عن انشاء مسجد بالخرطوم لتعليم القرآن •	» »
١٦ صفر ١٢٦٣ عن رواق السناريين •	» »
٢٦ شوال ٢٦٣ عن مسجد ومدرسة وسوق بدنقلا •	» »
٩ جماد آخر ١٢٥٥ عن سودانيين لمعاهد الزراعة بمصر •	» »
١٩ محرم ١٢٧١ عن مدرسة الخرطوم •	» »
١٠ شعبان ١٢٩٢ عن انشاء مديرية اسوان •	» »
١٢ صفر ١٢٨٨ عن ترسانة الخرطوم •	» »
٢٠ جماد آخر ١٢٧٩ عن قنصل استريا ( النمسا )	» »
٢٧ صفر ١٢٤٥ عن نقل ترسانة الخرطوم الى مكان مرتفع •	» »
١١ ربيع ثاني ١٢٨٢ عن عصيان بعض الجند ونهب الخرطوم •	» »
١٩ ذي الحجة ١٢٦٢ عن اعادة بناء مخزن الزخيرة بالخرطوم •	» »
١٧ محرم ١٢٧١ عن استئجار الاجانب لمراكب الميري للتجارة •	» »
٢٣ ربيع أول ١٢٤٤ عن صناعة المراكب وتدريب الصناع •	» »

٢٨ صفر ١٢٦٠ عن ثورة الجند بمدني •	وثيقة بتاريخ
٢٣ شوال ١٢٨٣ عن أبنية الخرطوم •	» »
١٥ جماد أول ١٢٨٦ عن وصول خط التلغراف الى الخرطوم •	» »
٩ شوال ١٢٨٢ عن قنصل بروسيا •	» »
٨ شعبان ١٢٧٩ أحمد أبوسن مديرا للخرطوم عوضا عن محمد راسخ •	» »
٧ جماد ثاني ١٢٨٧ عن فصل مديرية بربر •	» »
٢٧ شوال ١٢٤٠ عن وفاة عثمان بك جركس •	» »
٢٧ شوال ١٢٤٠ عن وفاة عثمان بك جركس وتعيين محو بك •	» »
٨ صفر ١٢٦٧ عن عرائض القناصل بالخرطوم •	» »
١٥ ذي القعدة ١٢٧١ عن شكوى مدير الخرطوم السجين •	» »
١٩ شعبان ١٢٨٧ عن تدريب السودانيين في بعض الوظائف الفنية •	» »
٢٠ محرم ١٢٧٤ عن التجار الاوربيين •	» »
غاية ذي الحجة ١٢٨٧ عن التدريب لمهنة الطب •	» »
٢١ ربيع ثاني ١٢٧١ عن الغاء مدرسة الخرطوم •	» »
١٥ مايو ١٢٧٧ عن ترسانة الخرطوم	» »
١٨ ذي الحجة ١٢٨٠ عن زعيم النقشبندية الى السودان •	» »
٩ محرم ١٢٨٦ عن قنصل فرنسا ببربر •	» »
٦ رجب ١٢٧٦ عن بناء سراي الخرطوم •	» »
١٠ ذي القعدة ١٢٧٩ عن مدارس السودان •	» »
٢٣ جماد أول ١٢٨٣ عن الخرطوم وأمطارها وتوتى •	» »

## المصادر

- أبو سليم ، محمد إبراهيم (الدكتور) سلسلة مقالات عن الخرطوم .  
وامدرمان والخرطوم بحري في مجلة  
الخرطوم .  
الفونج والارض  
القصر الجمهوري : وصف وتاريخ .  
رسائل عن السودان . نشرت بجريدة  
الاهرام ١٨٩٦ و صدر عدد من المقالات  
في كتاب .
- أحد ادباء مصر .
- سلاطين ، رودلف
- السيف والدار في السودان - ترجمة  
جريدة البلاغ طبعة مكتبة الحرية  
بأم درمان .
- الشاطر بصيلي عبد الجنيل
- شبيكة ، مكي ( الدكتور ) .
- شقيز ، نعوم .
- الطهطاوي ، رفاعة رافع .
- عبدالله حسين .
- عنايات الطحاوي .
- تاريخ السودان وادي النيل .
- السودان في قرن . السودان عبر  
القرون .
- تاريخ السودان ( طبعة بيروت ) .
- مناهج الالباب المصرية .
- السودان القديم والجديد .
- اقليم الخرطوم ( دراسة جغرافية  
لأهم الظواهر الطبيعية والبشرية )
- تاريخ ملوك سنار ( او مخطوط كاتب  
الشمونة ) . نسخ مختلفة .
- كاتب الشمونة ، احمد بن الحاج علي

كشيه ، سليمان .

مازري ، صلاح

المبارك ابراهيم

محمد صبري ( الدكتور )

محمد فؤاد شكري ( الدكتور )

محمود طلعت .

محمود القباني .

ود ضيف الله ، محمد النور .

مصطفى حامد الامين

تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية  
( الخرطوم ١٩٦٦ ) .

المدينة السودانية الحديثة - مجلة  
الدراسات السودانية عدد (٢) .

تاريخ مدينة الخرطوم ، نشأتها وما  
قاله الكتاب والشعراء فيها من المدح  
والهجاء ( الخرطوم ١٩٤٠ ) .

الامبراطورية السودانية .

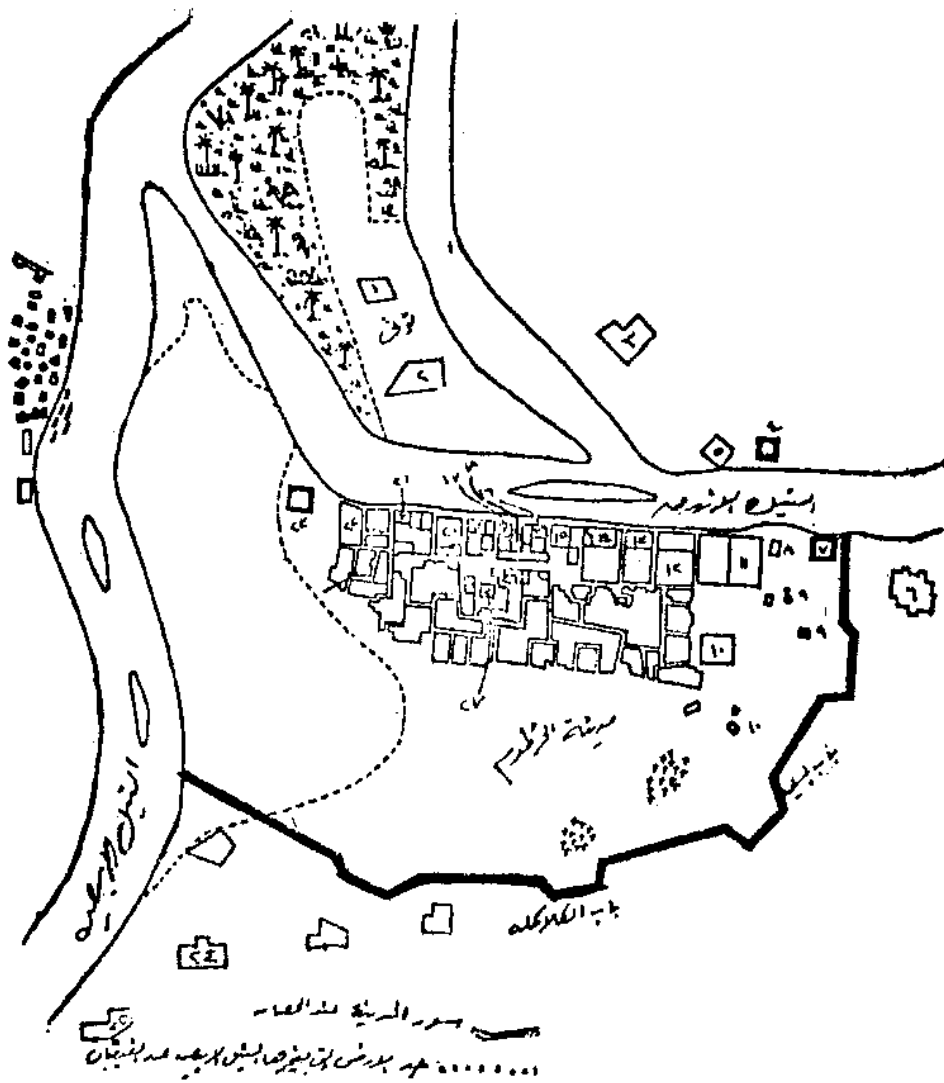
الحكم المصري في السودان .

غرائب الزمان في فتح السودان .

مدينة الخرطوم .

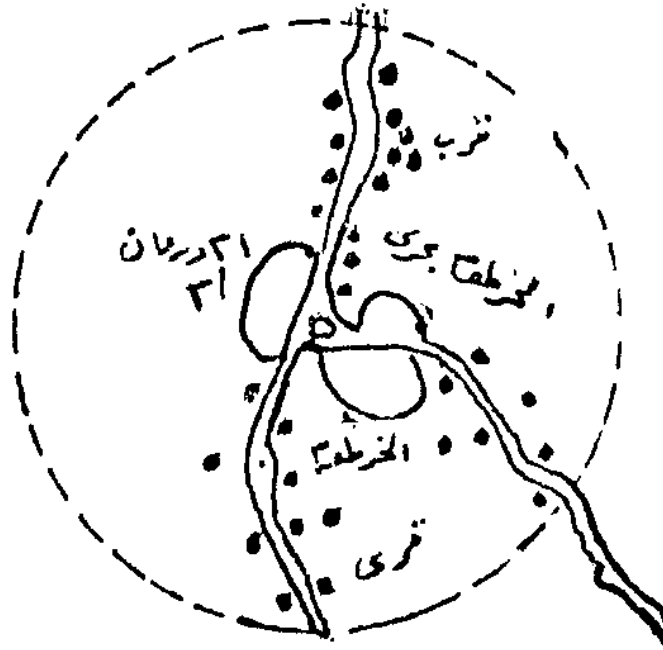
طبقات الاولياء .

ام درمان . الخرطوم ١٩٥٤ ( مكتب  
النشر ) .



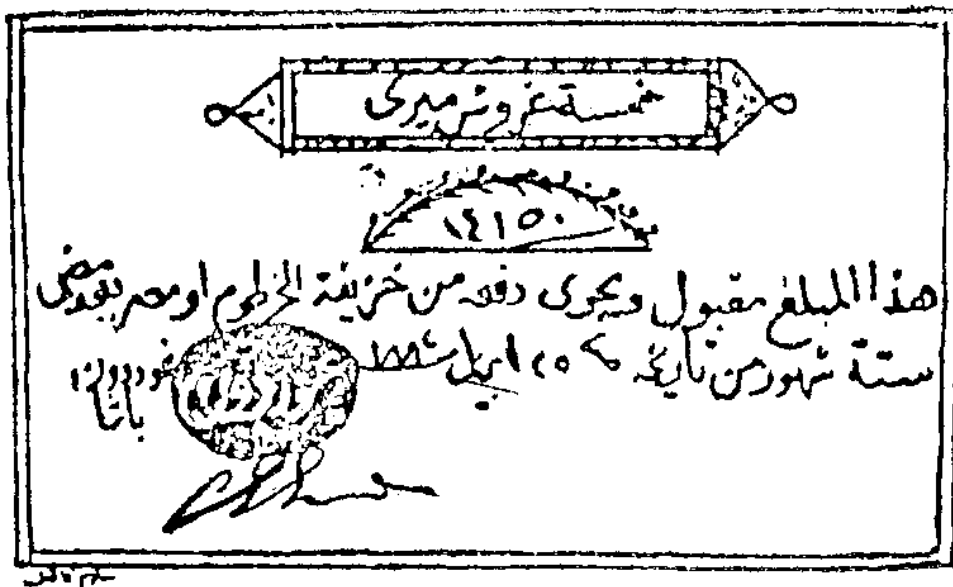
خريطة مدينة الخرطوم في نهاية العهد التركي كما رواها سلاطين

- |                          |                               |
|--------------------------|-------------------------------|
| ١٥ - قصر الحكمدارية      | ١ - مخزن البارود              |
| ١٦ - القنصلية النمساوية  | ٢ - حلة توتى                  |
| ١٧ - البوستان والمالية   | ٣ - قبة الشيخ خوجلى           |
| ١٨ - المديرية            | ٤ - طابية الشرق               |
| ١٩ - الصحة               | ٥ - قصر راسخ                  |
| ٢٠ - الكنيسة الكاثوليكية | ٦ - حلة برى                   |
| ٢١ - كنيسة الاقباط       | ٧ - طابية برى                 |
| ٢٢ - حدائق               | ٨ - مستشفى الخرطوم            |
| ٢٣ - طابية القرن         | ٩ - مخازن سلاح                |
| ٢٤ - حلة الكلاكلة        | ١٠ - مصنع خرطوش ومهمات عسكرية |
| ٢٥ - حلة شجرة محوبك      | ١١ - القشلات                  |
| ٢٦ - القنصلية الفرنسية   | ١٢ - الترسانة                 |
| ٢٧ - القنصلية الإيطالية  | ١٣ - الشونة                   |
|                          | ١٤ - السراى                   |

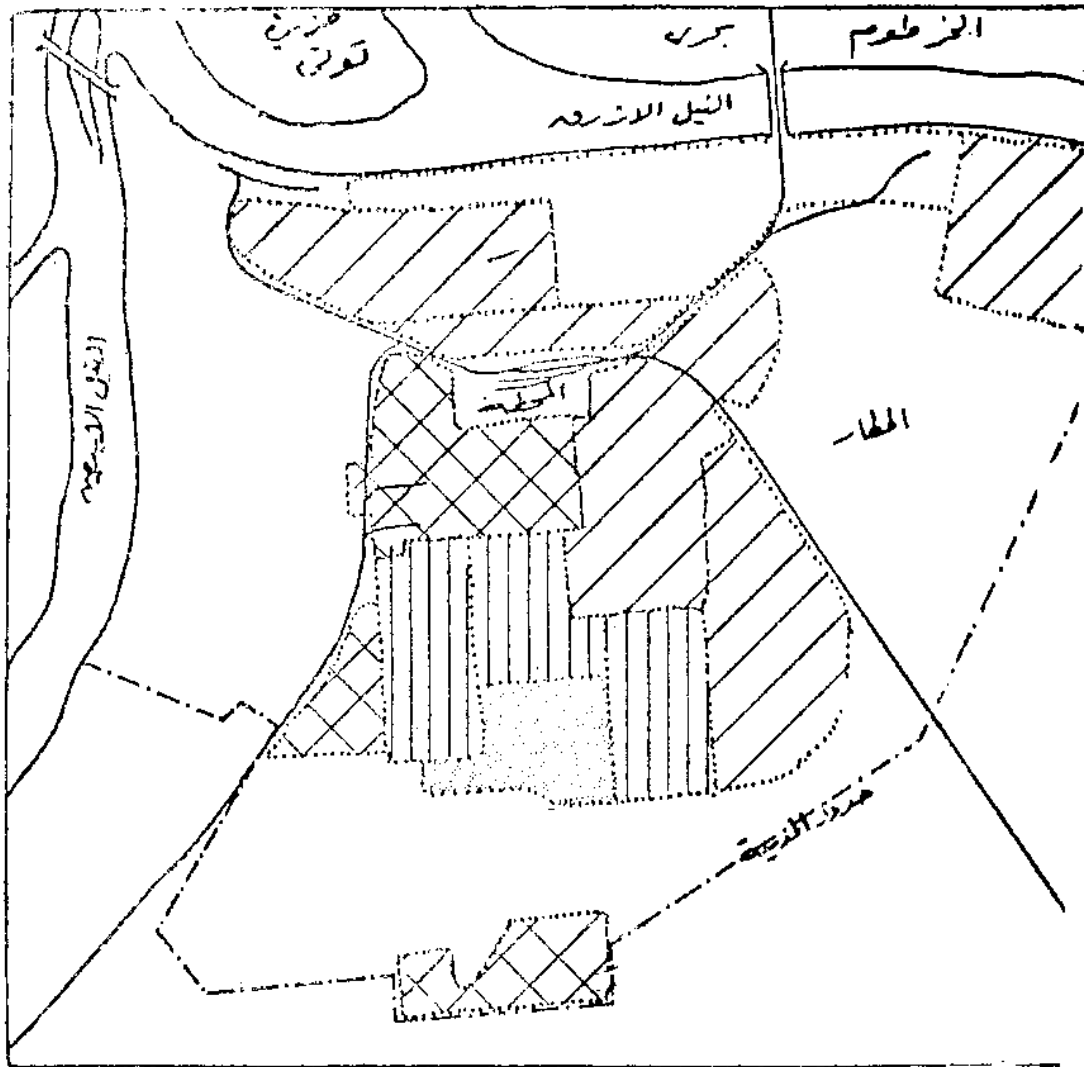


خريطة للمدن الثلاثة والقرى المجاورة

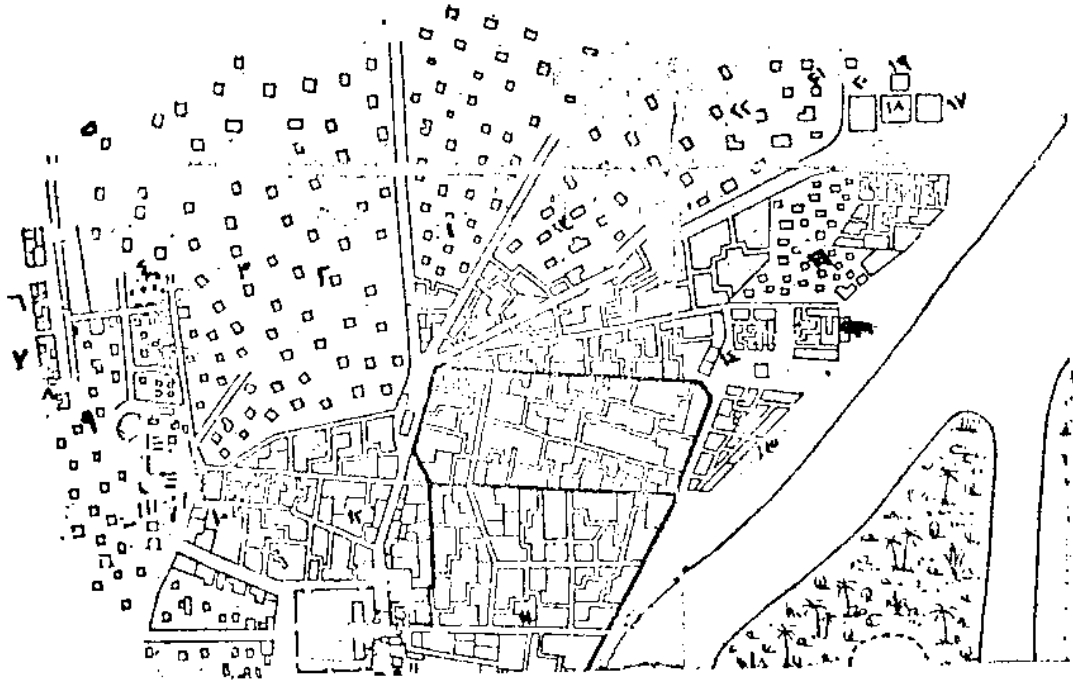




العملة الورقية التي اصدرها غوردون اثناء الحصار



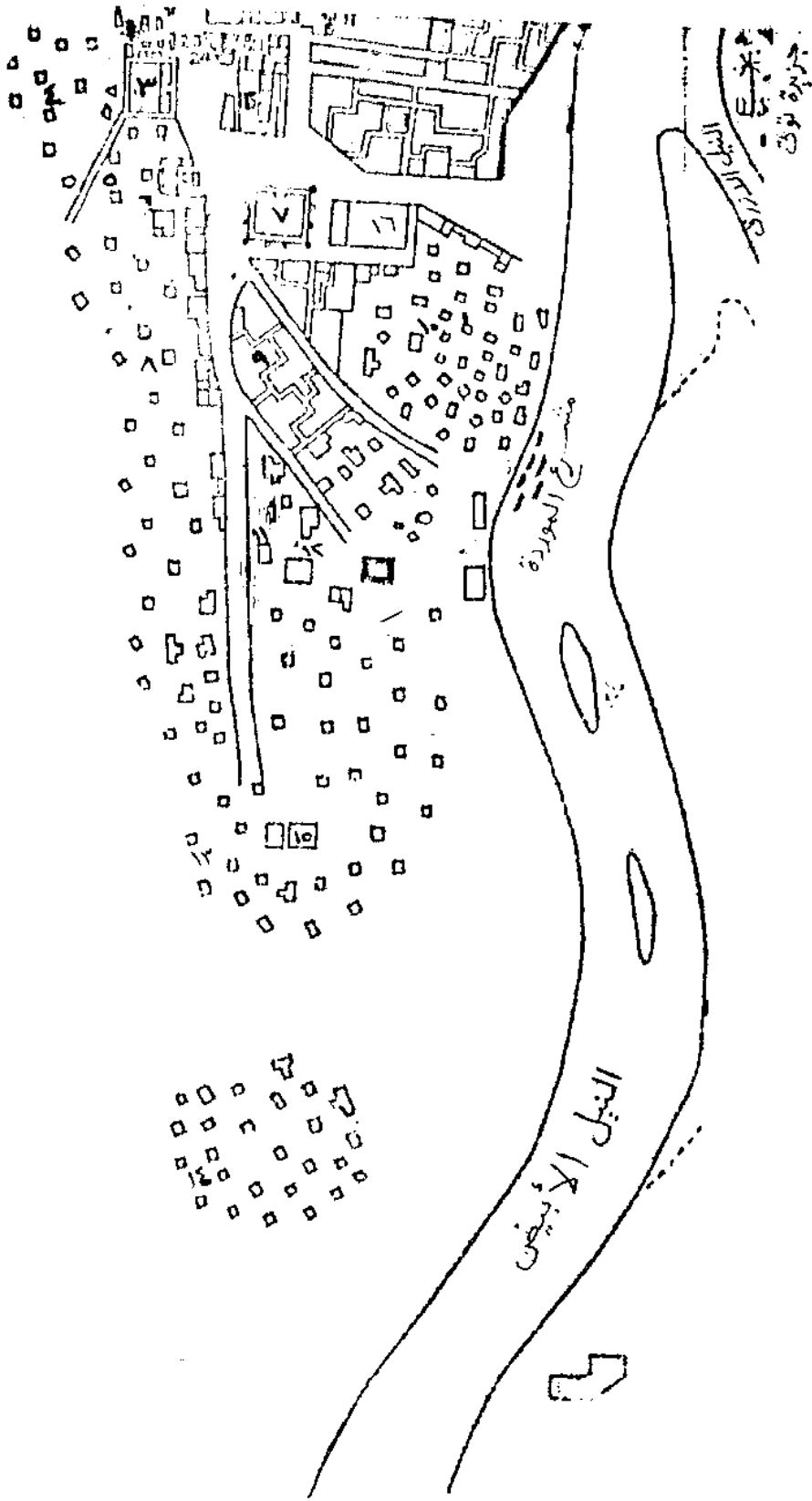
مدينة الخرطوم قبل الإضافات الجديدة



خريطة ام درمان في فترة المهدية :  
القطاع الشمالي

- |                             |                                 |
|-----------------------------|---------------------------------|
| ١ - مقبرة الشهداء           | ١٣ - بيت مال اللازمين وكتبة بيت |
| ٢ - الجوليون                | المال وعماله                    |
| ٣ - المسلمانية              | ١٤ - مصنع البارود               |
| ٤ - المقابر                 | ١٥ - بيت المال                  |
| ٥ - حي الدناقلة             | ١٦ - حي المصريين واهل الخرطوم   |
| ٦ - منزل احمد شرفى وعائلة   | ١٧ - منزل الخليفة عبدالله       |
| الخليفة شريف                | ١٨ - مسجد الهجرة                |
| ٧ - الكنوز والنوبيون        | ١٩ - منزل علي الخليفة           |
| ٨ - سوق الحرير              | ٢٠ - الهجرة                     |
| ٩ - السوق الكبير            | ٢١ - منطقة الحلاوين             |
| ١٠ - منطقة غرب النيل الابيض | ٢٢ - تجمعات قبيلة مختلفة        |
| ١١ - القطاع الاوسط          | ٢٣ - مقابر الاشراف              |
| ١٢ - منطقة دغيم             |                                 |

خريطة أم درمان في فترة المهدي :القطاع الجنوبي



- |                            |                                     |
|----------------------------|-------------------------------------|
| ٩ - منطقة البرقو والتكارنة | ١ - منطقة الرزيقات                  |
| ١٠ - منطقة لاهل الغرب      | ٢ - منزل يعقوب القديم               |
| ١٢ - حوش للجهادية السود    | ٣ - منزل يعقوب الجديد               |
| ١٢ - منزل قائد الجهادية    | ٤ - منطقة الكبابيش                  |
| ١٣ - ديم يونس              | ٥ - مخزن الرايات والطبول            |
| ١٤ - حلة الفتيحاب          | ٦ - منطقة الحمر                     |
| ١٥ - منزل الخليفة          | ٧ - بيت الامانة                     |
| ١٦ - مصنع الذخيرة          | ٨ - منطقة البرنو والفلاتة والجوامعة |

# فهرست

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٢	مقدمة
٥	من القديم الى العهد التركي
٢٧	٢ - عاصمة الترك المصريين
٤٩	٢٠ - الحياة في الخرطوم
٦٥	٤١ - المهديّة والخرطوم
٨٣	٥١ - أم درمان العاصمة
١١٧	٦٢ - الحياة في أم درمان
١٣٣	٧٢ - الخرطوم الجديدة
١٥٤	٨١ - امتدادات الخرطوم
١٦٦	٩١ - أم درمان ( ما بعد الفتح )
١٧٢	١٠٠ - الخرطوم بحري
١٧٧	١١٠ - معالم مهمة
١٨٩	١٢٠ - خاتمة
	الخرائط